

297

تجريد صالح الدقر  
٢٢٢٧٧

297 [redacted] C.2

العماري و محمد عبد القادر

هذا هو الاسلام

A2345

OCT 16 '89

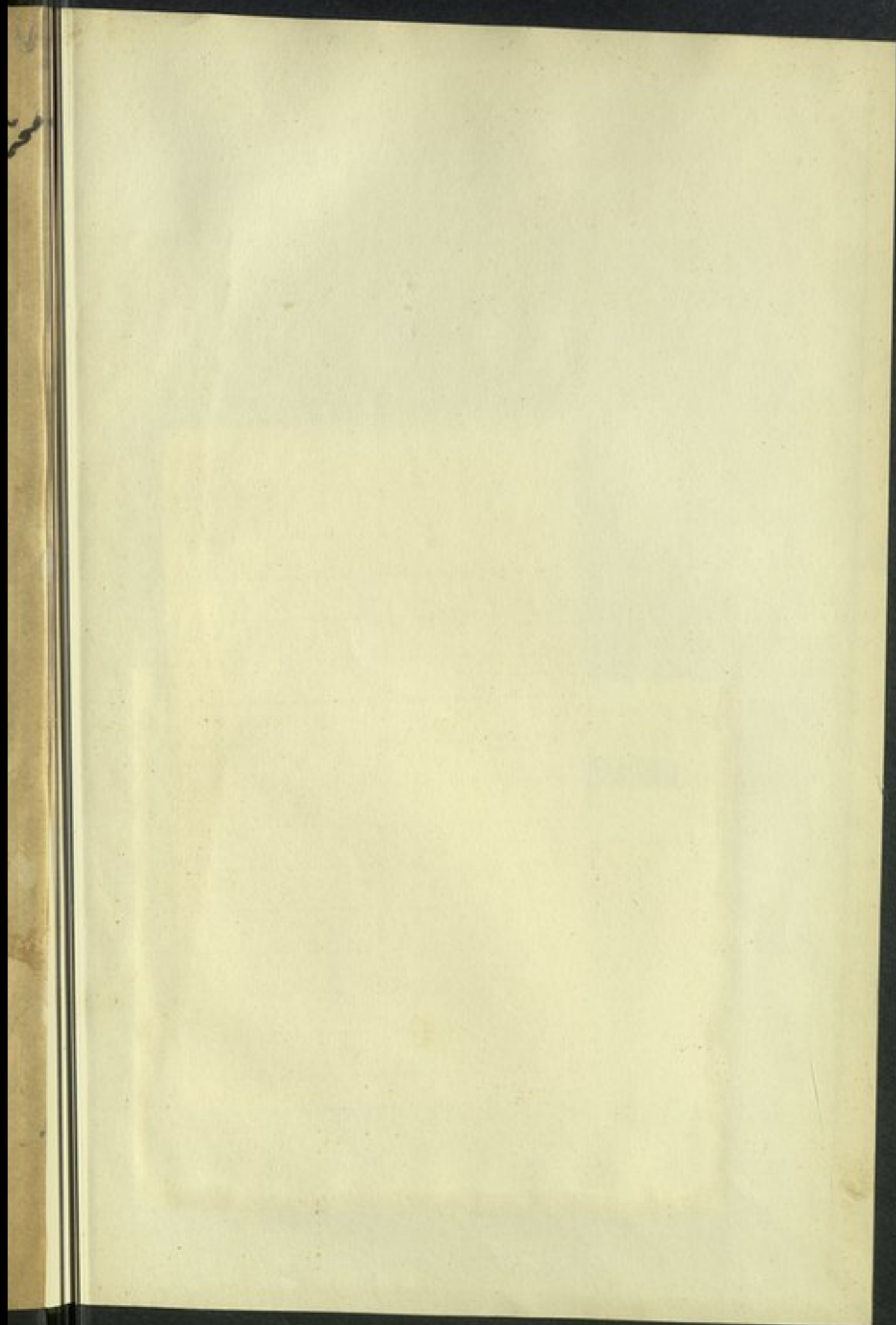
297

~~1 No 69~~

[redacted]

C.2

~~2 No 69~~



297  
A51/hA  
محمد عبد القادر العتّاي

# هَذَا كِتَابُ سَبِيلِ الْإِسْلَامِ

الناشر

دار الفكر الحديثة للطبع والنشر

١٠ شارع خيرات - المانية



100

## لماذا وضعت هذا الكتاب؟

من الظواهر العجيبة التي تسترعى نظر الباحث المدقق في الثورات الفكرية والانقلابات التاريخية : أن البيئة التي تحتضنها بذور هذه الثورات والانقلابات، وتكمن فيها بواعثها ودوافعها هذه البيئة لو درسها الباحث لخرج منها بشيء عجيب حقاً وهو خصامها للدين والحادها به، والعمل في غير شفقة ولا رحمة ولا تدبر ولا ترو على هدم مبادئه ومحو آثاره والمتبع لتاريخ هذه الثورات الفكرية والحركات الانقلاية يظهر له ذلك كله في وضوح وجللاء ويقين ولنتحدث عن هذه الثورات القريبة التي ما زالت تؤثر في التفكير البشري حتى الآن وأولى هذه الثورات ثورة أوروبا على الكنيسة في أواخر القرون الوسطى هذه الثورة التي كانت تمتاز بطابع السخرية من رجال الدين والتحلل المسرف من الايمان بالله ومن قواعد الأخلاق التي رسمها الدين للناس . فكان طابعها الاعتماد على العقل وحده في النظر إلى الأشياء والناس والكائنات وليس أدل على ذلك من أن الفلسفة التي آتت بها أدباء أوروبا وفكرؤها في ذلك الحين واتخذوها مادة لغذائهم العقلي وأخذوا يقيسون آراءهم وتصورهم للأشياء على ضوئها وبوحى من هديها لم تكن الا فلسفة اليونان الوثنية المألوفة التي لم تكن تؤمن برسول ولا بأنبياء ولا آلهة . والتي وضع سقراط أسسها وأقام دعائمها من بعده تلميذاه أفلاطون وأرسطو ليس . هذه الفلسفة التي كانت قائمة على التأمل والفكر والايمان بالعقل ومحو أي قيد يقيد به ويملكه قابلاً في دائرة محدودة لا يبرهن منها ولا يحيد عنها هذه الفلسفة التي كانت أول لبننة من لبناتها هذه الجملة المشهورة التي كانت مكتوبة على معبد دلفي والتي اتخذها سقراط شعاراً له ( اعرف نفسك بنفسك ) فكانت ارتفاعاً للفرد وإيماناً بالعقل ومقدرته وقوته وكانت تقديساً

للفكر الحر الذي كان طابعه الاستقلال وعدم الاعتماد على تقاليد أودين أو عرف لم يكن سقراط يؤمن بالله اليونانيين (أبولون) ولم يكن يتبع شيئاً من مبادئه أو تعاليمه وإنما كان يسخر منه ومن اليونانيين في محاوراته ونقاشه مع تلاميذه وقد ظل معتصماً بذلك حتى وهو في أشد تنكبه وأعصب وقت في حياته يوم أن وقف أمام قضائه ليحاكم على خروجه على الدين وعمله على هدم العرف والتقاليد فلقد سخر من الدعوى وسخر من قضائه حين طلبوا منه أن يدافع عن نفسه لأن إيمانه بعقله وتقديسه لحرية الفكر وبصيرة الإنسان كان يملك عليه نفسه وحواسه فكان يعتقد أن إقامة مثل هذه الدعوى عليه عبث من القوم وضرب من الخزي والعار وكان من نتيجة ذلك أن حكم عليه قضائه بالاعدام فتقبل الحكم راضياً مبتسماً ساخراً لأن هؤلاء القضاة قد حكموا على جسمانه المادى بالفناء ولكنهم لم يستطيعوا ولن يستطيعوا أن يحكموا على آرائه الفكرية وفلسفته العقلية بالزوال والاعدام وكان أن تجرع السم في رباطة جأش رائعة وفي غير ما جزع ولا مال وظل حتى وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ناعياً على اليونان تفكيرهم منكراً عليهم معتقداتهم وتقاليدهم لم يتطرق إلى نفسه ضعف أو خور أو شك فيما قال بل لم يندم على ما كان .

هذه هي فلسفة اليونان بتحللها وانطلاقها وعبادتها للعقل وانكارها كل شيء غيره هي التي اتهل منها مفكرو أوروبا في ثورتهم الفكرية وأول نهضتهم الحديثة حتى جاء هذا العصر الذي يؤرخونه بعصر التنوير مجدداً العقل مزهواً به منكراً الروح ساخطاً على كل مظهر من مظاهرها وهو عصر الفيلسوف الفرنسي (فولتير) الذي بلغ فيه العقل منزلة من القدسية والألوهية لم يكن يحلم بها وترك هذا الآن لتحدث عن ثورتين خطيرتين حدثتا في قرننا هذا الذي نعيش فيه - القرن العشرين - وأولى هاتين الثورتين هي ثورة الشيوعية في روسيا والدارس الميكولوجي لنفسية هذه البيئة التي احتضنت تعاليم (كارل ماركس) البروسي اليهودي واعتنقت مبادئه وأرهفت أذنيها لصوته يخرج بنتيجة غريبة غاية في الدهشة والعجب فإن هذه البيئة كانت تؤمن قبلاً بالمسيحية وكانت تخضع



معيشتها ونظم حياتها لتعاليم القساوسة والرهبان وكان هؤلاء القساوسة والرهبان أنفسهم يدعون الناس إلى الزهد والقناعة والاتكال والذلة والمسكنة والمحافظة على النظام الامبراطوري القائم بنظام القيصرية ونظام العاقبات من أمراء وأشرف ونظام الإقطاعيات هذه التي كانت تجعل من روسيا كلها وهي الأرض الشاسعة الواسعة ضيقة لعدم النظام القيصري القائم بل كان هذا النظام يحمل في ذاته امة تانياً بخيفاً للكرامة البشرية لأنه كان يجعل غالبية أفراد الشعب سخرة وعبيداً لهؤلاء الأشراف والأمراء بل لهذه الضياع التي يملكونها لأنهم كانوا تابعين لها يباعون ويشترون كما تباع هي وتشتري ولم يكن القساوسة والرهبان ورجال الكنيسة منكرين لشيء من ذلك بالقول أو الفعل وإنما كانوا يسكرون الناس بروحانيتهم وينيمونهم بمواعظهم هذه التي تستعذب الذلة والمسكنة والخضوع ومن هنا ندرك كيف تقبلت روسيا مبادئه (كارل ماركس) واحتضنتها وجعلتها انجيلاً لها ودين هنا ندرك أيضاً كيف كان عداؤها للدين بغلوه وامرافه حتى قال لنين أبو الثورة (إن الدين مخدر للشعوب مؤخر لها عن النهوض والكمال)

فلولا هذه الظروف الاجتماعية السيئة التي كانت تسود روسيا في عهدها القيصري البغيض ولولا هذا الاستغلال والظلم الذي ظهر بأشع صورة وأتقى ما يتصوره عقل الإنسان ، ولولا جمود رجال الدين وانحطاطهم ونفاقهم وتفكيرهم الرجعي لما وجدنا هذه القسوة الطاغية ولا هذا العنف المتغالي الشاغل سواء على النظام القائم أو على الدين ونظمه وتعاليمه ولكل ما يمت إليه بصلة من قريب أو بعيد

هذه هي روسيا القيصرية وما كان يكتنفها من عوامل الانحطاط والفقر الخلق والافلاس الاجتماعي والجشع الاستغلالي والعريضة الرأسمالية .

وهذه هي الثورة الشيوعية التي كان يمكن وراؤها من روح التذمرو وبواعث السخط ما جعلها لا تلوى على شيء في طريقها لأنها ترفع دين كادها عبنا ثقيلاً بغيضاً ولأنها تستنقذ نفسها من ظلم صارخ مزمن لم تكن تحس به لأنه لم يكن

يوجد من بينها إليه ولأن رجال الدين وأرباب الكنيسة كانوا آخذين على أنفسهم عهداً بقتل كل نزعة وهي في مهدها ترمى إلى التحرر من الفقر والظلم والمسكنة كان رجال الدين لشهوات في نفوسهم خيثة وحرصهم على بقاء العهد الحاضر على حاله الذي يتمتعون فيه بما هم للمادى وسلطانهم الروحي أولعقليتهم التقليدية الرجعية التي لم تكن تهضم ولا تقبل أى طريقة من وسائل الإصلاح ما دامت تحمل في طياتها روح التجديد والابتكار .

كان رجال الدين هؤلاء هم العقبة السكوتية في سبيل كل تقدم أو إصلاح وإذا فوجب القضاء عليهم قضاء لا هوادة فيه وإذا فوجب إزالتهم وعدم الاعتراف برسالتهم هذه الروحية التي قتلت روح الابتكار وعطلت التقدم والإصلاح كل هذه الحقب الطوال .

وقد كان من عداة هذه الثورة للدين الذي كان يمثله هذا الرهط من القساوسة والرهبان وقد تقبل أفراد الشعب من زعماء روسيا ومفكريها هذه الدعوة إلى هدم الدين بحماسة وقوة وإقبال واستبدلوا إنجيل عيسى بإنجيل (كارل ماركس) ولولا أنى اشفق من إطالة البحث في هذه الصفحات اليسيرة القليلة لحدثك عن شئ لا ينفد من حماقة رجال الدين وجمودهم وعقليتهم التقايدية وارتكابهم أخطاء شنيعة ومسئوليات جسيمة في حق الدين وفيما أودى به وما انصب عليه من هذه اللعنات والسخطات: ولكن لنترك ذلك الآن على أن نحدثك عنه مرة أخرى في موضعه من هذا الكتاب . ولم يبق إلا أن ننتقل بك الآن إلى الثورة الثانية متأملين مسهبين حسب ما تتسع له مقدمة هذا الكتاب لأن هذه الثورة تعيننا أكثر من غيرها لأنها حدثت من أمة اسيوية شرقية كانت تشترك معنا في المزاج والعقيدة وكانت تربطنا بها روابط عدة : روابط تاريخية وروابط اجتماعية بل كنا مرتبطين بها فيما هو أخطر من ذلك فكان في يدها مصيرنا ، وكانت ترسم لنا مجرى حياتنا ؛ وتتحكم فينا في كل شئ بحكم الخلافة الاسلامية التي كانت مركزها حينذاك .

لننتقل الآن إلى (تركيا) ولنتأملها في ثورتها العنيفة وانقلابها الخطيرة

نجد هذه الدولة التي كانت الرأس المدبرة واليد الموجهة للعالم الاسلامي بحكم الخلافة . قد انقلبت من تدين بالدين وحرص عليه ومحافظته له إلى الحاد مسرف به وإلى سحق عام ليس على الدين الاسلامي فقط وإنما على الأديان جميعاً . وعلى ما سمته العقلية الآسيوية بوجه عام . وانتقل الآن به من فقرات من كتاب لسكاتب تركي عاصر الانقلاب التركي واسمه (قاييل آدم) واسم الكتاب مصطفى كمال لنرى إلى أي حد كانت تتور العقلية التركية هذه البواعث والعوامل التي ساعدت على نجاح حركة مصطفى كمال قال السكاتب التركي (١) إن العقلية الأوروبية هي العقلية التي تتسق وحاجات هذه الحياة الدنيا ونحن إنما نتبع ما توحى إلينا به هذه العقلية بحكم أننا موجودون في هذه الحياة أما العقلية الآسيوية ، فالعقلية التي تلائم الحياة الآخرة فإذا انتقلنا إلى الحياة الباقية فهناك نتبع ما توحى به هذه العقلية )

( لم تسلم الأمم الآسيوية يوماً من الفقر والتعاسة وليس لهذا من سبب سرى أنها اعتادت على أن تستقرى حياتها المعيشية كلها من تشريعها الديني المقدس ولن تقف على طابع آخر غير هذا إذا ما قلبت تاريخ مصر والهند وفارس واليابان القديمة والصين وبلاد العرب فإن هذه الأمم لجهلها قد نسبت لأمرائها وسلطينها أو لغيرهم من مقدمي الاتهازيين صفات قدسية حيناً أو سلطة إيمانية حيناً آخر وكان من نتائج هذه العقلية أن تردت الأمم الآسيوية في وهدة التعاسة والشقاء )

( أما المعركة القائمة اليوم فوجهة بكل ما فيها من قوة إلى القضاء على هذه العقلية الآسيوية والحالة جليلة واضحة فلست نجد في أوروبا مثقفاً أو غير مثقف يعصى في أعماله متراكلاً على سلطة الوحي أما في آسيا فإنك لا تجد شيئاً اللهم إلا الأنبياء والقديسين والحكام الذين يستمدون سلطنتهم من الله مباشرة . نجد الأوامر والنواهي القدسية متغاغة في تضاعيف العديد الأوفر من الشئون الخاصة الصرفة للناس محتكة في كل وجه من وجوه حياتهم الاجتماعية

(١) اعتمدنا في نقل هذه الفقرات على ترجمة للاستاذ الفاضل اسماعيل مغامر

والاقتصادية والتجارية والإدارية ولديهم أن هذه الأوامر والنواهي هي أوامر الله ونواهيه وعلى هذا لا يمكن تبديلها أو تكييفها إذا تبدل الزمان وتكيف وجمدت هذه الأوامر والنواهي مقصورة على اللحاق بروح العصر نشوء أو ارتقاء لا تجد من شيء اللهم إلا نبيا آخر مرسلًا بتعاليم جديدة ولا مربة في أن تتابع ظهور الأنبياء في آسياله طابع خاص بها لا تفاضلها فيه بقعة أخرى من بقاع الأرض )

( لم تكن الديانات في تاريخ آسيالكه إلا حركات رجعية أملتها الغيرة التي تزود بها كل رسول جديد ضد الرسل الأقدمين . ان ديانات آسيا كافة واحدة في جوهرها فإن تعاليم بوذا وكرونفوشوس وبراهما وموسى وعيسى ومحمد كلها واحدة فإن اختلفت فإنها إنما تختلف في التفاصيل لا في القواعد )

( إن مشيدوا العقلية الآسيوية وواضعوا قواعدها لم يتوانوا على أن يجعلوا أساسها الاعتقاد بأن الحق في هذه الحياة تقليدي لا عقلي ولكن تتساءل ما هي التقاليد ولماذا لا يكون لدينا من الحرية ما نستطيع به أن ننظر في هذه التقاليد نظرة تحليل نحكم فيها العقل : تلك التقاليد التي لم تسم بنا يوما إلى أفق السعادة والحرية والثروة ومعرفة حقيقة الانسانية بل كثيرًا ما عضدت أسباب التعاسة والشقاء وقرت جذور شجرة الاستبداد التي تمتع بشمراتها الرئيس الروحي خلال كل الأزمان ، وبما أن هذه التقاليد لم توضع الا لتطبق على لانسانية فإن العقل الانساني محس ضرورة بأنه مقسور على أن يبحث في أصلها ونشأتها وماهيتها ليعرف ان كانت التقاليد مموما قاتلة أم أنها عقاقير لقمان السحرية )

( إن من أبلغ السفسطة أن تقول بأن العقل الانساني لا يستطيع أن يدرك الحقيقة إن كل الذين أوصلوا لنا هذه التقاليد وبشوها في نفوسنا قد اتخذوا العقل الانساني وسيلة لبثها . وما هذه التقاليد لدى الواقع الا مجموعة من السخف لا يمكن أن تقاوم قوة النقد ساعة واحدة ولم يكن في استطاع أحد من ناطقي هذه التقاليد ( الأنبياء ) أن يوحى اليها برسالة تساعدنا على اختراع آلة من الآلات أو استكشاف الكهرباء أو البواخير أو الطائرات أو التليفون اللاسلكي

أو مبادئ الطب التي تساعدنا على مقاومة داء السرطان أو السل أو غيرهما من الأمراض ولقد ثبت في روعنا اليوم أن ما يجب أن يوحى إلينا به من العالم المجهول إنما ينحصر في مثل هذه العلوم لخير الانسان والإنسانية وإذا قلبت تاريخ آسيا برمتها منذ أبعـد العصور إلى اليوم لما استطعت أن تلتقي في سفرك الطويل بقديس واحد من أولئك القديسين الذين اتخذوا العلم للقداسة طريقا في حين أن تاريخ الدنيا يفيض بذكر الكثير ممن هم من هذا الطابع الخالد أولئك الذين استكشفوا الحق وعرفوا الحقيقة . أولئك الذين آمنوا بأن الحق عقلي لا تقليدي . لا الذين ظلوا طوال الأعصر ينتظرون الوصول إلى الحق من طريق التقاليد ولا شبهة في أن رجال آسيا وهذه عقليتهم لا يستطيعون أن يدركوا من الحقيقة شيئا )

لقد عودنا بأن نلقن بأننا عبـد الخليفة ( ظل الله فوق الأرض ) وأننا له ملك ومتاع وهذا يتضمن بالضرورة الاعتقاد بأنه ليس لدينا من شيء يمكن أن يقاوم قوة خليفة الله الواحد القهار . المتربع فوق عرش الأرض وأنه لن يكون من نظام إجتماعي اثبت أصولا من اجتماعنا ولا حياة دنيوية أسعد ولا أمتع من حياتنا بينما كانت الحقائق الملموسة توحى لنا كل حين بأن في أنحاء مملكتنا فقر وجوع ، وأن جزءا بعد جزء من أطراف الأمبراطورية كان يؤخذ عنوة ورغمنا منا نهبا واغتصبا ، وكانت لنا حكومة هي أضعف من أحط الحكومات الأوروبية متردية في حمأة الرشوة مفككة الأوصال مضطربة الأحوال بعيدة عن حكم الشرائع والآداب ، وأننا كنا نستجدي الغرب في كل شيء نحتاج إليه ومع كل هذا فقد كان لدينا ( ظل الله فوق الأرض ) وأربعون زوجة من زوجاته ، وأربعون غلاما ممن تعرف ولا أذكر ، لا شغل له إلا أن يحمل الشعب على أن يتجرع فكرة الجنة ونعائمها على ما وصفها رجال المذاهب القديمة . كان قد أصابنا الانحلال في الداخل ، ولم يكن لدينا من سبيل لكي نفهم الحق أو نعرف الحقيقة إلا بأن نتصل من طريق ما بالمعرفة الأوروبية . وأن نعرف بتفوق العقلية الغربية وأن نكسب على درس الأسباب التي غرست الشقاء

والتعاسة في أرض من كنا نعتقد أنه ( ظل الله فوق الأرض ) ولما فعلنا بان لنا ( أن ظل الله فوق الأرض ) لم يكن شيئاً اللهم الا صنم مفقود القوة والروح كأي صنم من اصنام بوذا في الهند وكان لنا بمحمد أسوة فكما انه حطم أصنام مكة والمدينة كذلك نحن حططنا اصنام الخلفاء والمذاهب القديمة والتكاييا والقبور : هذا هو معنى الثورة أما نتائجها فسوف تكون عظيمة لخير الأمة وسعادتها في المستقبل )

هذه بعض فقرات من الكتاب تحمل في طياتها كما قرأت هذه السخرية والسخط على الدين ورجاله والداعين اليه والمؤمنين به والعاملين له وليس من سبب لذلك أو أردت أن تدرس الناحية السيكولوجية لهذه البيئات التي اختمرت فيها بذور هذه الثورات جميعها الاسباب واحد - سبب شنيع بغيض مخز - سبب يحمل في طياته أنانية الحكام وجرم ويفضح فيهم ضميرهم الميت وشهواتهم الخبيثة ووحشيتهم البشعة وتضامن رجال الدين معهم في ذلك

نعم لو أراد الباحث النزيه أن يستخرج علة لقيام هذه الثورات وللبواعث التي كانت تأتمر فيها وللقوة التي كانت تحركها لخرج بما ذكرت ، ولخرج بما هو أشد هولاً وبشاعة مما ذكرت : وهو أن الذي يتحمل المسؤولية وتنصب عليه كل التبعات في الانقلاب على الدين ، ومحاولة محوه من الوجود ، ووصمه بكل هذه الصفات كما رأيت . إنما هم رجال الدين أنفسهم لأنهم لم يحاولوا أن يفسروا الدين بعقلية حرة تجديدية . وعلى ضوء نظام التطور والارتقاء ، وانما قيدوا الدين ، وقيدوا أنفسهم والمتدينين معهم في دائرة ضيقة تقليدية هي خطر على الدين في جوهره ومعناه ، وغاياته لم يسألوا أنفسهم : ماهي الغاية الحقيقية لنزول الأديان ؟ وهل كانت تنشد شيئاً غير صلاح الانسان ورفقيه وامتيازاه ، وإيمانه بالخير والمثل العليا وقتل كل شهوات دنيئة فيه ، والارتفاع به عن حيانه الحيوانية البهيمية التي كان يحياها ، وجعله يترنم بأن هناك أشياء أخرى كثيرة غير مطالب جسده ، واشباع غرائزه يجب أن يعطيها شيئاً من التفاهة واهتمامه ، وأن يجعلها تؤثر في تكوينه ويجري حياته ، وأن يرتب معيشتة على نظم ومبادئ من طبيعتها صلاح العمران ومنع الفساد

فالدِّينَ عندما أنزل على الرسل ليبيشروا به الناس كأن يحتفل بالإنسان .  
وعنصره وكان يؤمن به وينشد له تنظيم حياة راقية صافية فيها سعادته ونعيمه  
ولسكن رجال الأديان في كل زمان ومكان الذين لم يعاصروا أنبياءهم ورسلمهم  
وانما اتوا بعدهم بفترات غير قصيرة لم يسألوا أنفسهم عن شيء من ذلك  
ولإنما فسروا الدين على هراهم ، وفي حدود التقاليد والرجعية التي لا تخلو من الكذب  
والافتراء فحقروا الإنسان وزهدوه في دنياه ، وشجعوا الناس على حياة الذلة  
والمسكنة والخضوع والخنوع وقتلوا فيهم كل روح للتجديد والابتكار وعدم  
الاحتفال بحياتهم التي يحيونها : زهدوهم في كل شيء إلا في أن هناك حياة أخرى  
يجب أن ينفقوا كل وقتهم وحياتهم للعمل لها وحدها ، وان يقاطعوا كل عمل  
يتصل بحياتهم الدنيا ، لينقطعوا للزهد والانسكال والقبروع في كسل وخمول  
يرددون الفاظاً بأفواههم لأن ذلك هو ثمن سعادتهم الآخرة :

بصورتهم ذلك كله مما يدعو إليه ويعمل له الدين والدين من كل ذلك براء  
ان المتدين العاقل البصير يسأل نفسه أول ما يسأل عن الغاية من وجود  
الدين ، وعن الغاية مما ينبغي تحقيقه من المبادئ والنظم والآراء ثم يتبع هذه  
الغاية بأية وسيلة تقربه إلى تحقيقها التحقيق الصحيح ولا حرج عليه أن اختلفت  
وسائله والوسائل التي كان يدعو إلى اتخاذها الدين ، لأن العبرة والمعول على الجوهر  
وليس على الوسائل ، ولأن الوسائل كثير أما تتغير وكثيرا ما لم تعد تصلح وذلك  
بحكم الزمن والتطور ، أما الغاية فهي الجوهر في كل شيء لأنه غير قابل للتغير  
بحكم لانهايته وبحكم طبيعته الخالدة ، والأديان السماوية في طبيعتها لا تمنع في ذلك  
لأنها قد نزلت لخاطب العقل الحر بحكم أنها كانت تنعى على العقل التقليدي الرجعي  
فكان من طبيعتها وديدها الجدل والنقاش والالهام لأنها هي الأخرى كانت  
جديدة على العقل الإنساني بحكم ما سبقها من الوان التفكير التي اتخذها العقل مادة  
له في بداءته الأولى ولذلك كانت هذه الكتب السماوية نفسها تنعى على الإنسان جموده  
وتنكر عليه عقليته هذه الرجعية التقليدية التي لا تؤمن بالقديم إلا لأنه قديم ورثته  
عن آباؤها وأجدادها ، والتي تنفر من الجديد لأنه جديد تخشى أن يغير ما ألفته من

معيشة وما تواضعت عليه من حياة والانسان بطبيعته يركن إلى ما ألف ولو كان فيه تعاسته ، وينفر مما لم يألف ولو كان فيه سعاده والمتصفح لسكل الكتب السماوية يظهر له كل ذلك في غير عسر ولا إبهام :

كان هذا هو الشر الأول والائتم الكبير الذي ارتكبه علماء الدين في حق الدين ثم أتى الخلفاء والأمراء فحكموا الناس حكما أو تقراطيا محضا يبيحون لأنفسهم ما لم يبيحونه لرعاياهم لأنهم يعتقدون ورعاياهم يسلبون لهم بذلك انهم خلفاء الله في أرضه يتصرفون فيها كيفما يشاءون وحسبما يهونون يميزون أنفسهم عن رعاياهم في كل ظرف من ظروف الحياة ومع ذلك ترى رجال الدين يقرونهم على ذلك ويخردون الناس بتلبيتهم عن حياتهم هذه الدنيا ليحفظوا بالآخرة ما جعل أكثر المفكرين الأحرار في كل ثورة فكرية أو انقلاب تحريري بغضبون على الدين ويسبونهم ويرمونهم بكل نقيصة ويحملونه مسئولية تاخر الانسانية وانحطاطها وترديها في هذه الهاوية السحيقة التي لولاهم ولولا انتشالهم لها لفضى عليها قضاء لارجوع فيه ما ظهر لك في أول هذا الكتاب واعل سائل يسألني بعد ذلك لماذا وضعت هذا الكتاب ؟ . وأنا أجيبه في قوة وشجاعة ، وفي غير دوران أو التواء أنني وضعت هذا الكتاب لأدافع به عن الدين الصحيح ، لأكشف عن جوهره ، واهتك النقاب عن غاياته وما يرمى إليه ، لأظهره للناس عاريا صافيا خالصا مما علق به من أوهام وخرافات وخزعبلات أعلم أنه يرى منها وأنه ينكرها على نفسه وينكرها ممن الصقوها به بنية سليمة لجهلهم وغباوتهم ، وعدم ادراكهم ، أو ممن الصقوها به بسوء نية لمآربهم الجشعة وشهواتهم النهمه ، وتزعاجهم الخبيثة

نعم لقد وضعت هذا الكتاب به لأدلل به على ان الدين في جوهره وغاياته لا ينكر التقدم ولا يخاصم التجديد ، وإنما يشجع الارتفاع بالفرد والاحتفال به : كما يشجع تنظيم الجماعات ورفقها . كما أنه يقر اجتهاد الانسان وحرية وافكاره البصيرة . وما يسعى له من حياة ممتازة ومثل عليا  
إني لأبتسم في سخرية مريرة عندما أقرأ لبعض متعنى الصوفية ومترهيبهم



والزاهدين المتخلفين عن ركب الحياة : ان الحياة ماهي الا كعبة حذاء من العبيث  
الاحتفال بها وان الرجل الذي يحتفل بحياته ويجهد ويسعى في أن يوفر لنفسه  
حياة راقية ممتازة هو رجل مكروه من الرب بعيد عن السماء سائر في  
طريق الضلال

ولو تبسطت مع هؤلاء الناس . وأردت أن تسبر غور تفكيرهم . وأن تصل  
إلى مداركهم لتستخرج من ذلك كله صورة لنظرهم الى الحياة ، وتفسيرهم لحقيقة  
الوجود لهالك الأمر وافزعتك الحقيقة ، ولرجعت مشفقا عليهم راثيا لهم با كيا  
على حالهم وتخطيهم وضلالهم

ان هؤلاء الناس الذين يتشدقون بحب الرب والقرب من السماء مغضوب  
عليهم من ربهم ، بعيدون عن السماء حاملين لعنائها وسيخطاها فهذه الاشارات  
التي أتت في كل السكتب السماوية مزهدة الناس في الحياة الدنيا منزلة من قيمتها حاططة  
من قدرها ليس معناها أنها تدعو الانسان إلى ان ينكر وجوده وحقيقته وأن  
لا يتمتع بكل ما طاب له ولذما بسطه الله وانما ترمي إلى معنى سام رفيع تدركه  
العقول البصيرة والقلوب الثيرة ، وهو محاربة الجشع والبطر والاستغلال  
الرخيص ، وقتل شهوات الانسان الخبيثة ، ومحاربة كبريائه وغروره والحذ من  
حيوانيته النهمة التي لا تنفق ونظام العمران

إن الانسان بطبيعته وجبلته مفلور على الغرور وحب الذات والتمتع  
والاستعلاء على حساب غيره من الضعفاء والمساكين ولو ترك له الأمر لاستبد  
وتكبر وطمع وهدد الانسان والعمران في سبيل لذائذه وشهواته ونزعاته  
الحيوانية فيكون من نتيجة ذلك ماذا ؟ يكون من نتيجته تأخر العمران  
وانقراض نوع الانسان فهذه الاشارات التي أتت في السكتب السماوية  
محقرة الدنيا منزلة من شأنها لم تكن تقصد الا مثل هؤلاء الطغاة القساة المستبدين  
الذين كانوا يسعون في الأرض فسادا يقاتلون ويعتدون لا لشيء الا لنزعات  
طارئة وشهوات فاجرة يعيشون في همجية متواصلة قانونهم الاعتداء والسلب  
والاغارة على الضعفاء من بني جنسهم يتصرفون فيهم كما يشاءون بالبيع أو الرهن

أو يقتلونهم ويفنونهم من الوجود ولا اعتراض عليهم في ذلك لأن هذا قانون متعارف بينهم: الحق للقوة ، والزعامة لمن يسلب ويعتدى ويفر على الغير والدارس لكل البيئات التي انزات عليها هذه البيانات يرى ماذا ؟ يرى أمما يكيفون حياتهم على هدى غرائزهم ، ويسلبون قيادهم لمن يظهر البطش والقسوة والظلم عليهم يدينون للطاغية ويعبدونه ويؤلوهونه . ينكرون ذاتيتهم وفرديتهم لاني سبيل الصالح العام ولا في سبيل نفع المجتمع الذي يعيشون فيه وإنما لأجل نزوات حاكمهم ووليهم فهم قطع عنده يسخرهم لجمع المال من غير طريقه الشريف وتوفير لذائذه البهيمية التي ترجع بالانسان القهقري إلى الوراء حيث كانت تسوده شريعة الغابة ، وشريعة الغرائز التي تقرر بأن ( الكلل للقوى ولاشيء للضعيف )

الدارس لكل هذه البيئات يرى مجتمعات يحتفلون بالحياة حقيقة ويحبون أن يوفروا لأنفسهم فيها الرفاهية والسعادة والهناء ولكنهم لا يفعلون ذلك بجهدهم وثمره أعمالهم وما يستعدون به في سبيل ذلك من آلام ، وإنما يبطشهم واعتدائهم على حقوق الغير وطمعهم في سلب ما لا يملكون ، لا يحتفلون بهذه الحياة ولا ينظرون اليها بمنظار التفكير والعقل والبصيرة ، وإنما بمنظار الحيوان الشره المفترس الجبار الكافر بقانون النظام وقانون التعاون وقانون الاخاء فهذه الاشارات لم تكن تعني إلا هذه المجتمعات التعسة التي تخضب ايديها بالدماء في سبيل لذائذ فانية ولكنها لم تكن تعني أبدا إنكار الانسان نفسه وعمل الانسان لديناه وحنه على الكشف والاختراع والتطور في حياته بدليل ماأقرته من النظم التي اصطنعها الانسان لنفسه مثل التشريعات اليونانية والرومانية التي أدجتها في تشاريعها ادماجاً مما سنحدثك عنه بأسهاب في موضعه من هذا الكتاب عندما نتحدث عن علاقات الاديان بعضها ببعض

ولا يطاوعنا القلم أن نمضي دون أن نرجع ثانية إلى هذه الفئحة من المتكشفين المستذلين المتكرين للحياة فنسألهم : ماهي حقيقة الرب الذي تعبدونه وما هي حقيقة السماء التي تعطف عليكم ؟ وهل يكره الرب أن يرى خلقه في جمال وقوة ونضارة وحياة ؟ وهل عظمة الخالق تكون أروع واعظم في بقاء الحياة على حالها بغير تقدم بل

بتأخر : أم بتطور الحياة واستغلال خيراتها ومواصلة البحث لاستخراج أسرارها ، والانتفاع بما أودعه الله فيها من مزايا وعناصر قوة وارتقاء  
إني لأسائل هؤلاء الناس وفي جوانحي أسأ ، وملاء في دهشة من تخبطهم وظلوعهم ، ومن ضيق مداركهم وظلام بصيرتهم  
إني لأسألهم : كيف عرفتم الله ؟ وكيف توصلتم إلى حقيقة السماء ؟ وهل إيمان الانسان بالله بعد تفكير وتعقل وتأمل خير ؟ أم إيمانه به بالتقليد والسمع والانقياد ؟

نعم اني لأسأهم هذه الأسئلة ولكني لن أسمع منهم جواباً لأنهم يتشككون في مقدرة الانسان وقوته يمجحونها ويكفرون بها بل لأنهم ليكفرون بالانسان جميعه وبكل ما وهبه الله من ميزات وصفات وفضائل ميزه بها وفضله على كل العالمين وعلى جميع المخلوقات

فالانسان عندهم خلق من قاذورات وركب من تئانه فأصله وضعيف حقير : ومن هنا يستعدون للذلة والمسكنة وتعذيب أنفسهم وعدم السعي في الحياة ناسبين ذلك كله إلى واجبات الله وأوامر الدين وتنزيلات الكتب المقدسة مستغلين بعض آيات من التنزيل كانت تأتي لتعالج مشاكل خاصة في بيئات معينة لظروف كائنه ضارين صفحا عن التنزيل في مجموعه وفيما يهدف اليه ويبنى تحقيقه ولكننا لانحب أن نتهادى في ذلك كثيرا ، وإنما نعرض هنا هذا العرض البديهي وهو هل تأتي معرفة الله الحقيقية المؤيدة بالدلائل المادية بطريق غير العقل ؟ وهل يكون العقل صافيا خالصا مليئا بالقوة والحوية في جسم غير سليم صحيح ؟ وهل يتوفر الجسم السليم الصحيح بدون أن يأخذ الانسان حظه من المتع البدنية ويوفر لنفسه ماشاء من طيبات الحياة

وهكذا نرجع فنجد الانسان هو الكائن الممتاز ونجد حياته هي الحياة لانقول الجديرة بأن يعتز بها ويعمل لها ويحرص عليها لانقول ذلك فقط وإنما نقول فوق ذلك إنها هي الحياة التي بها عرف الخالق ، والتي هي استمداد لمعرفة قدرته وعظمته وبديع خلقه : فإذا أراد إنسان أن يسهو بحياته ويرتفع بها

وأن ينقب ويفتش ويسخر كل ما يمكن تسخير له لمنفعته ومصالحته من أسرار الأرض والسماء والهواء ، وإن يعتز باستقلاله التفكيرى والعقلى فى اصطناع ما يلائم حياته الحديثة من نظم ومبادئ وقوانين قالوا له قف مكانك ! إنك تأمر بغير ما نزل الله ناسين أو متجاهلين أو متغايين أن الله لا يكره أن يرى فى مخلوقه استعدادة للتطور والحقاق والابتكار لأنه هو الذى أودع فيه تلك القدرة ، ولأنه من قوة المخلوق تستبان مقدرة الخالق ولأن الله لم يكن يرسل أنبياءه ورسله الا عندما كان يفلس الانسان وينفذ رصيده من بواعث التقدم والارتقاء !

وماهى حقيقة السماء ؟ هل حقيقة السماء شىء غير درس الطبيعة وكشف ما وراءها من غموض وابهام ؟ وإذا فليقل لنا هؤلاء الناس المقربون من السماء لماذا نجهد فى معرفة حقيقة الطبيعة أو ما وراء الطبيعة وما فيها من شمس وقمر ونجوم وعوالم أخرى بل لماذا وجدت فيها هذه الشمس والقمر والنجوم والعوالم الأخرى الأجل أن ننتفع بها فى حياتنا هذه الدنيا ونسخرها لاستغلال أرضنا التى ندب عليها أم لأجل أن ننكرها ونتمنى زوالها ونحوها ليعجل بنا ذلك كله إلى حياتنا الآخرة ! إن كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، بل من ظواهر السماء تنادى بالحياة وتعمل على تنمية الوجود وإحيائه وازدهاره والتقدم به بخطى سريعة إلى الامام فن يقف ومن يتخلف فى الطريق فلن يحفل به أحد وسيدوسه الركب ولن يبوء الا بالندم والهلاك والضياع

وإذا فأنا لم أضع هذا الكتاب إلا لأجل أن أبعد به هذه المعتقدات الباطلة وهذه المزاعم المضللة التى إن دلت على شىء فأنما تدل على جهل فاضح بحقائق الكون وأسرار الوجود ، ورسالات السماء

إننا لنسمع كثيرا من علماء الدين ومن كتاب يتعرضون للدراسة والبحث فى مسائل الأديان ونظمها ومبادئها وقوانينها فيبرزون لنا ماسمونه المادية والروحانية زاعمين أنهما ضدان متخاصمان متنافران لا تربطهما ببعضها صلة كبيرة أويسيرة

ومن هنا ننظر وينظر معنا القارئون والآخذون عن هؤلاء العلماء فنجد

أما ما مشخصين قائمين متخاصمين مشخصا يرمز إلى المادية والآخرة الروحانية  
مشخصا يشمل العلوم وما يدخل فيها من كافة العناصر الطبيعية والجيولوجية  
والقوانين الصناعية ورسائله البحث والتقصي والتجربة والاختبار والكشف  
ثم الاختراع والحلق ، وإضافة كائن إلى الكائنات له أصول وآثار محتبثة كأمته  
تحتاج إلى من يعالجها ويكشفها ويعرف أسرارها وهذا هو مشخص المادية  
أما مشخص الروحانية كما يبسطه ويفسره رجال الصوفية وبعض علماء الدين  
فإنه يشتمل على ماذا ؟ نجد يشتمل على العلوم النظرية ثم على الزهد والقناعة  
والتحقير من شأن الدنيا والخصام والمناقشات البيزنطية الشديدة العنيفة لكل  
مظهر من مظاهر المادية

وهكذا سادت هذه المهزلة - مهزلة رجال الصوفية وبعض علماءنا الدينيين -  
الذين ضلوا الناس لغباتهم وجهالاتهم وأخذهم بالظواهر والقشور ولغضائهم عن  
الجوهر واللباب ففسروا لهم الروحانية قائمة بذاتها مضادة للمادية في كل شيء بل  
قالوا لهم إن المادية خطر على الروحانية ، وإن اجتماعهما ببعض فيه تعويق لقوانين  
الحياة وفساد لنظام العمران وإشاحة عن أوامر الله ومن هنا جعلوا الروحانية  
وحدها المثل الأعلى للإنسان ، وهي السمر الذي لا يصل إليه إلا كل إنسان رفيع ممتاز  
ونحب نحن قبل أن ندخل في مناقشة هذه المسألة ، وقبل أن ندال على أن  
المادية من صميم الدين ، وأنها تشغل حيزاً غير قليل من رسالات الكتب السماوية  
نحب قبل أن ندخل في هذا النقاش أن نوجه سؤالاً بسيطاً إلى هؤلاء السادة  
الأفاضل : وهو هل من الممكن أن يدلونا على إنسان أو على مجتمع خاصم المادية  
وأنكرها ، ولم يخضع لها في مجرى حياته وعمر على ذلك طويلاً ؟ أما إذا كان  
الجواب بالسلب وهو بالسلب حتماً لأن الإنسان بطبيعته وخلقه مادي لأنه  
ابن للبادئة خلق منها ويعود إليها يخضع لها خضوعاً تاماً سواء رضى ذلك أم لم  
يرض وسواء أراده مختاراً أم مكرهاً

وعلى ذلك فإننا نحب أن نقرر هنا مستمدين ذلك من روح الأدب  
وتشاريعها جميعاً نحب أن نقرر بأن المادية لا تصلح إلا بالروحانية ، وأن الروحانية

## لاتعيش بدون المادية

وعندما ننظر إلى بعض الديانات التي جاءت تدعو للروحانية ولم تحفل بالمادية في شيء يذكر مثل الديانة المسيحية نجد أنها لم تسكن تحارب المادية أو تخاصمها أو تنكرها ؛ وإنما جاءت فوجدت مجتمعا خاضعا لما يته كل الخضوع غارقا في حيوانيته إلى أذنيه ؛ قائما حياته على هدى غرائزه فدعت إلى الروحية لا لتحارب المادية أو تخاصمها أو ترتفع عنها وإنما لتكيفها مع بعض فنصالح الروحانية المادية ، وتقوم ما اعرج فيها وما شذ من طباعها

من هذا يظهر لنا أن المادية متماسكة بالروحانية كل التمسك وأن الروحانية متعلقة بالمادية كل التعلق وأن الانسان يخضع في حياته للماديات ويتأثر بالروحانيات بل من هذا يظهر لنا أن رسالات الديانات السماوية نفسها حثت الانسان على السعي نحو الماديات بعد أن يسموها ويخضعها لأحكام العقل البصير الرشيد فاذا جاءنا بعد ذلك شيخ ، أو قسيس ، أو حاخام وقال لنا : ان الدين يدعو إلى الروحانية ويجزها ويعمل لها ، وينهى عن المادية وينكرها ويحاربها بكل سلاح من أسلحته لأنها خطر على الانسانية وسم زعاف فيه هلاك للبشرية فاذا يكون جوابنا عليه ؟

يكون جوابنا عليه أنه ساذج في تفكيره ، ضعيف في عقله سادر في ضلاله يكون جوابنا عليه أنه بعيد عن جوهر دينه ، هادم لغاياته وما يرمى إليه من إصلاح شأن الانسان في حياته التي يحياها والتقدم به بخطى سريعة نحو التطور والسمو والكمال

يكون جوابنا عليه أنه مخالف حتى لمنطقه لأنه هو نفسه خاضع للمادية مستعين بها على أداء رسالته ، وأعمال وظيفته

إن جميع الأديان السماوية في جوهرها وغاياتها لا تنشد إلا شيئا واحداً : وهو تكوين مجتمع إنساني راق نظيف عامل مفيد آخذ بأسباب التقدم والتطور السريع ليسعد نفسه ، وليسعد من سيخلفه بعد ذلك من أجيال

فاذا جاءنا بعد ذلك إنسان - كائن من كان - وقال لنا : إنني أتعب النهار وأقوم

الليل في التمجيد لله . واني أقف وقتي وحياتي على ذلك لا اخل قريباً من الله :  
قلنا له إنك كاذب مختال مخادع بعيد عن الله جاهل بتعاليم دينه :  
إن الله لا يريد العبادة للعبادة فقط وإنما ذلك وسيلة لتحقيق غاية رفيعة  
سامية للإنسان : وهي تمسكه بالمثل العليا وتمثله بصفات الحق والعدل والحب  
والإيثار ، وبكل ما هو حميد قويم وحسبنا في هذه العجالة قول رسول الاسلام  
محمد بن عبد الله عندما جاءه نفر من أصحابه وقالوا له ( إن فلاناً مقيم في المسجد  
يتعبد في النهار ويتعبد في الليل فقال لهم من بعد له قالوا كلنا نعبد له فيارسول الله فقال  
لهم صلى الله عليه وسلم كلكم خير منه )

وهكذا أراني رغماً عنى أختم هذه المقدمة وفي نفسى أشياء ولكنى لن اعدم  
أن أعالجها بتطويل فيما يلي من موضوعات هذا الكتاب بيد أنى أحب قبل أن  
أطوى هذه المقدمة أن أشهد الله وهو العليم بواطن الأمور أنى ما فكرت في  
تأليف هذا الكتاب واخراجها ، نثره بن الناس إلا لأشياء خطيرة أحسن أن  
ضمير الزمن يمس بها ، وأحسن أن جيلنا هذا الحاضر قد تباورت فيه آراء  
جديدة هدامة تسبق العاصفة التي نحب أن نتفانها ، وأن نخمد أوارها بالاصلاح  
قبل أن تقوم

واني أشهد الله مرة ثانية وهو العليم ببواطن النفوس أنى لست متأثر أبهى  
شئ ولا بأية نزعة ، وأنى لا أستضيء في كتابتى هذه الا بوحى الحق ولا أنشد  
إلا الاصلاح ما استطعت راجياً من يقرأ هذا الكتاب أن يخلع عن نفسه رداء  
التعصب وأن يستقبله بعقل حر ووجودان سليم غير متأثر بأية عاطفة حتى  
يمكن أن تؤتى ثمرته كما نرجوها ( والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير )



## هل الدين لازم للبشر؟

ليس علينا من حرج في أن نختصر التعريف اللغوي لكلمة الدين . وأن  
لانسهب في ذلك كثيراً لأن قصدنا من هذا الفصل واضح جلي وهو الدراسة  
الواقعية والنفسية لمدى كلفة الدين وما تهدف اليه وتبغى تحقيقه  
فالدين بمعناه اللغوي . وبكسر الدال المتعددة وضم النون هو الطاعة  
والانقياد فيقال رجل متدين يعنى مستسلم متقاد مطيع  
وعلى كل حال فان أول ما يعن للباحث في دراسة الدين وماهيته ومدلوله  
ومدى احتياج البشر اليه أو استغنائهم عنه والدور الذي يؤديه للإنسان في حياته  
والتأثير الذي يحدثه له في مجريات أمورهم إن كان لذلك كله نصيب كما سيظهر بعد  
أول ما يعن للباحث : هو أن ما يقابل الدين من مدلولات وتفسيرات  
أنه جملة معتقدات لأشياء سماوية وغيبية . ظاهرة وخفية يدركها الانسان بعقله  
وبصيرته وقلبه أم يعجز عن إدراكها واحساسها وتصورها والالمام بها والحكم  
عليها فالمعقدة في الدين إذا هي العقيدة لأراء ومبادئ وصفات وأحكام يطمئن  
الانسان إليها ويعمل بها ولها يخطر خطواته على ضوئها ، ويستضيء بهديها .  
يكون احكامه وتصوره للأشياء والناس والصفات من خلال منظارها  
وإذا كنا نحن سنقيم دراستنا ونبرز دلائلنا ونبسط تشریحنا لحقيقة الدين  
وماهيته ، والدور الذي يلعبه في حياة الانسان من الوجهة العقلية .  
والمنطقية فقط

وإذا كنا قد هللنا أن ما يقابل الدين هو العقيدة : أو أن العقيدة هي الأصل  
في الدين . أو هي البذرة التي تنفرع منها مبادئها التي يقيم دعائمه على أصولها



إذا كنا قد هلبنا ذلك كله فالتناجب أن نوجه إلى أنفسنا وإلى قرائنا هذين السؤالين وهما أولاد هل العقائد التي اصطنعها الإنسان البدائي لنفسه كانت باختياره وبوحى من كوامنه النفسية أم أنه أرغم عليها أرغاما ، واكره عليها اكرها ؟ ، ثانياً هل يتأتى للإنسان هائل متحضر أن يدب على ظهر الأرض وأن يعمر في دنياه طويلاً دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هذه العقيدة ؟ ، للإجابة عن هذين السؤالين يحتم علينا الواجب أن نستعرض في اختصار ولحاح سريعة تاريخ الإنسان وأطواره المختلفة حتى الآن ولا نحب أن نستهدف لبحوث طويلة نعتقد أنها لاتعنى في بحثنا هذا بل نعتقد فرق ذلك أنها ليست على أهمية كبيرة أو ضئيلة للإنسانية بعد أن قطعت هذه المرحلة الطويلة في الارتفاع والتطور والرقى وتكوين هذا الوعى الإنسانى العام ثم لا نحب أن نفتحم هذه المنطقة الجدلية التي اختلف فيها العلماء كثيراً وهي : هل المادة قديمة أم الروح وبالتالي هل الأصل في الإنسان أنه حيوان مادى نشأ من المادة أم أنه روح خلقها الله قبل أن يستوى مادة

وإن كنا نحن سنتجنب الخوض في ذلك كثير فالتناجب لاشفقة منا في اطالة هذا الفصل من الكتاب وفي وضع كلام في غير موضعه ولايماننا بأنه من الخير والفائدة للإنسانية أن تفسر حقيقتها وحقيقة الوجود كما هو وكما أدركته ولمسته بدل أن تنفق وقتها وتقيس مقاييسها في شيء علمته بالسمع وعرفته بالخيال وتتبعها لمنهاجنا الذي رسمناه لأنفسنا في بحثنا في هذا الكتاب ولهذا الموضوع بالذات وهو أننا لن نتعرض لشيء إلا لما هو واقع تحت نظرنا مدرك لعقولنا مؤثر في انسانيتنا يحتاج إليه النوع البشرى في تكييف حياته وفي رسم ما ينتظره من درجات التقدم والسمو والارتفاع غير أن ذلك كله لن يمنعنا من أن نمس هذا الموضوع مساًخفياً ونطرقه طرقاً متواضعاً

وإذا كان دارون قد أقام دعائم مذهبه الذي آمن به كثير من العلماء والمفكرين على أن المادة قديمة وعلى أن أصل الإنسان تدرج من حيوان قدر ينحط فإنه قد وجد من العلماء في هذا العصر من ينكر قدم المادة ومن يقرر

في غير تحفظ بدلائل ثابتة مادية أن الروح هي الاصل في القدم بدليل تفتت  
الذرة ، وبدليل ما أثبتته علم التنويم المغناطيسي من تأثير الجسم بالروح ، وانفعاله  
بها ، وخصوعه لها

وإذا كنا نحن سنخالف داروين ومن لف لفه من الماديين الطبيعيين فيما  
ذهبوا اليه من أن أصل الإنسان وعنصره تدرج من حيوان بهيمي منحط قدر  
فإننا نخالفهم لما سبق من دلائل على قدم الروح ومن تأثير الإنسان البدائي بها من  
طريق اللاشعور ، ومن أن الإنسان الأول كان حقيقة أشبه بالحيوان في طبعه  
وغرائزه وذلك بحكم اصطباغه بطبيعة الارض المادية التي نشأ فيها ودرج عليها  
واسكن الروح كانت من عناصر تكوينه وخلقته مستترة في كوامن نفسه بحكم  
طغيان الغريز المادية عليها ، وقوتها منها

ومع ذلك فإن أول ما يسترهينا من بحث أطوار الإنسان المختلفة حتى الآن  
أن نقف قليلاً عند هذا الطور الذي حقق الإنسان فيه لنفسه ثلاثة أشياء كانت  
بالنسبة له على أعظم جانب من الخطورة وهي النطق ، ومعرفة النار واستغلال  
الأحجار في صنع أوانيها وما يلزمه من معدات وأشياء

من هذا الطور نستطيع حقيقة أن نتبين في وضوح ويقين حقيقة الجنس  
البشرى لأنه قد أثبت فيه لنفسه ارتفاع عنصره وامتياز خلقته

في هذا الطور ننظر فنجد العقيدة قد ابتدأت تلعب دورها الخطير في

حياة الإنسان

في هذا الوقت ننظر فنجد الروح السكامنة في نفس الإنسان قد هتكت  
النقاب عن نفسها وقد أخذت تظهر شيئاً فشيئاً مثبتة لوجودها عاملة على اظهار  
شخصيتها فلقد استرعى نظر الإنسان الأول الذي كان يسكن الغابات وبميش  
في الكهوف فكرة الموت بعد أن كان يسمى ذلك أولا النوم الطويل ، وبعد  
أن كان لا يعرف شيئاً عن الموت البتة وذلك بحكم الطبيعة وبحكم ظروفه السابقة  
التي كانت تحيط به والتي كانت فيها الغرائز الوحشية الفطرية هي المسيطرة عليه  
فيكفي الموت بأتمه نتيجة لاقتراحه من الوحوش أو لتصارفه مع آخرين وكان

كل ما يحدث له أو يصدر عنه أو يتمثل في خاطره يأتي نتيجة لأعماله الفطرية  
اللا إدراكية وللقوة الجبرية الغريزية فيه . ولكنه بعد أن أصبح اجتماعياً شيئاً  
ما يحكم اصطناعه للكلام والنار والآنية أخذ يحس كأن مؤثراً آخر يؤثر في  
حياته غير غرائزة الجسدية بدليل ما كان يترأى له في النوم من أفعال وأعمال  
وحوادث تتمثل أمام خاطره مثل تصارعه مع آخرين أو أقدام وحش من  
الوحوش على افتراسه فيقوم من نومه فزعاً مضطرباً فلا يجد شيئاً حدث له البتة  
ومن هنا آمن بالروح وأخذت عقيدته فيها تتشكل بأشكال مختلفة مع تطوره  
وقوة ادراكه

والمهم هو أن العقيدة قد نشأت في نفسه في أول فرصة أتاحت له عندما  
استطاع أن يتحلل من غرائز الحيوان السفلى وأن يرتفع الى منزلة الانسان  
القادر على الشعور والادراك

ثم أخذت العقيدة عنده تتطور مع تطوره وتشكل فيه بأشكال مختلفة حسب  
ما كانت توحيه ظروفه ويتمخض عنه خياله

أصبحت عقيدته في هذا الوقت ذا أثر فعال في رسم مجرى حياته وفي تكوين  
خياله وتصوره للناس والأشياء والكائنات

ولو رجعنا نحن إلى علم (الميثولوجيا) لنبحث في طراياه ونفتش في جوانبه  
عن أصل العقيدة التي اصطنعها الإنسان الأول لنفسه لوجدناها ساذجة بسيطة  
بما كان يتفق وعقله الضيق وادراكه المحدود فلقد كان يعتقد الألوهية في آبائه  
واجداده وذلك لايمانه بأرواحهم التي لم تفن بفناء أجسادهم وانما هي باقية خالدة  
غير قابلة للفناء . ومن هنا كان يقدسها ويقدم لها القرابين ومن هنا أيضاً  
كانت عقيدته فيها وإيمانه بها ذا أثر كبير في كل ما يقدم عليه من عمل أو يحدث  
له من حوادث أو يرجو من أشياء

ثم تطورت به العقيدة على أن يكون الهه هو رب قبيلته وذلك لما بلغه من  
مرحلة كبيرة في الكثرة والتناسل ومعرفة وسائل التنافس والاستغلال فكانت  
كل قبيلة لها إلهها القوي الشجاع القادر على كل شيء والذي بيده الأمر والنهي

والخير والشر والذي تضيء عليه من السمات والصفات ما تتفاخر وتعالى به على  
قربانها من القبائل الأخرى

والدارس الذي يتحرى الدقة في بحثه لا يسعه إلا أن يقف متأملاً في هذا  
الطور من أطوار الانسان . وان لا يجزم له بعقيدة معينة كان يؤمن بها أو عبادة  
خاصة كان يصطنعها لأنه هنا في هذا الطور - طور الكثرة والتناسل والتفرع  
والتشعب - لا يمكن أن يعين الباحث ديانة واحدة . أو عبادة خاصة كانت تفرض  
سلطانها عليه ، وكان يستظل بها أفراد الانسانية جميعاً وذلك لوجود ديانات  
كثيرة لا سبيل الى حصرها ولا محل للجزم بأن واحدة منها كان يستظل بها  
أبناء البشر جميعاً وعلما مقارنة الأديان يمترون بتطور الأديان واتفاقها في  
في الصفة والكثرة والتشعب ثم الاختلاف حسب ما كان يعثور البشرية من ألوان  
الحياة التي أتت نتيجة لكثرتها وتشعبها واختلافها

وإذا كانت الظاهرة التي يستخرجها الباحث في الديانات أنها لم تتفق في شيء  
قدر اتفاقها في الدعوة الى الروحانية إلا أن ذلك لا يكون دليلاً على أنها كانت  
قريبة الصلة والتفاهم بعضها من البعض الآخر وعلى أنها عالية من العصبية  
والتعصب نزوية من الاختلاف والتخاصم والتنافر والبعد والشقاق

واصدق شيء يمكن أن تصور به هذا الطور من أطوار الديانات أنها كانت  
في خصائصها وذاتها فقيرة قاصرة متممة مع المقدار الضئيل الذي استوعبته الانسانية  
من الوعي والادراك متخاصمة متنافرة متعصبة بقدر ما كان يسرد الانسانية  
في ذلك الوقت من التخاصم والتنافر والتعصب

ومن هنا نستطيع أن ندرك العلة في تلون الديانات بألوان معتنقها وصبغتها  
بالبيئة التي كانوا يعيشون فيها وتعددتها وتنافرها وذلك لأن عقول البشرية لم  
تسكن قديميات بعد لقبول مبدأ التوحيد الصحيح ولم يضح دهوة الإله الواحد  
الحلاق الذي يجب أن يدين له البشر جميعاً بالطاعة والانقياد

يقول الاستاذ المقاد في كتابه الله صفحة ٢٥

فالتطور في الديانات محقق لا شك فيه ولكنه لم يكن على سلم واحد

متعاقب الدرجات بل كان على سلاسل مختلفة تصعد من ناحية وتهبط من أخرى وقد أوجب هذا الاختلاف أن الشعب على حدته لا يطرده في التقدم عقيدة . بعد عقيدة ، ولا تزال له عقائد شتى قلما يسرى عليها حكم واحد من عوامل التطور والارتقاء . وأن الديانات نشأت في شعوب كثيرة لا في شعب واحد فما تقدم هنالم يلزم أن يتقدم هناك ، وما استعاره شعب من شعب غريب عنه قد يكون أرفع من طبقته التي ارتقى إليها من طبقات الحضارة فينتفق له في الوقت الواحد ضربان من العبادة أحدهما سابق والآخر متخلف ويتقهر السابق أحيانا قبل أن يتقدم المتخلف اليه وربما سمحت قبيلة متخلفة ربا من أربابهم باسم خالق الأشياء جميعا ولم يكن ذلك دليلا على ارتفاع في فهم الربوبية بل على ضيق في حصر نطاق المخلوقات وقصرها على الحيز المحدود الذي تعيش فيه القبيلة) ويقول أيضا في كتابه صفحة ٣٠

فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح لأنها أكبر ماتقع عليه العين . وتعلل به الخليفة والحياة فإذا دخلت هي أيضا في عداد المعالوات فقد أصبح الكون كله في حاجة الى خالق موجود للأرض والسماء والكواكب والأقمار . وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فخرى قصة ابراهيم في القرآن الكريم)

ثم يقول في صفحة ٣٢ - ٣٣

«وجملة القول أن أطوار العقيدة الالهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة في جميع الأمم وفي جميع الأزمان ولكننا اذا أحطنا بوجهتها العظمى وجدنا أن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها الأولى وأن عبادة الاسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان الى دنياه حتى التمس لها هالة في السماء فكانت الشمس هي أكبر مارآه وتوجه اليه بالعبادة ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره الى ما هو أعظم منها وأعلى فهي القنطرة الأخيرة بين العدوتين عدوة التحديد وهدوة التحديد ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة السكونية

إلا قبول التوحيد الصحيح فتعلمه الانسان من الديانات الكناية شيئاً فظيلاً حتى بلغ بالقوة الالهية نهاية التنزيل ،

ونحن وإن كنا نخالف الاستاذ العقاد في رأيه من أن عبادة الشمس هي ( القنطرة بين العدوتين عدوة التعديد وعدوة التحديد ) وهي الطريق الأخير الذي بلغه الانسان لقبوله بعد ذلك مبدأ التوحيد اذا كنا نخالفه في ذلك فنحن نخالفه لما سبق أن قررناه فيما تقدم وفيما قرره هر أيضا

وهو ان الديانات لم تسر على خط واحد منظم منسق وإنما كانت تعمل فيها عوامل الصعود والهبوط . والتقدم والانحطاط التي كانت تعتور البشر في ذلك الحين . ولأن الأمم التي كونت لنفسها حضارات وأثرت في تاريخ البشرية كانت تؤمن بالاصنام وتتعدد الآلهة مع أنها تختلف عن الأمم التي تعبد الكواكب وتزله الشمس في أشياء كثيرة غاية في الخطورة وهي أنها لم تكن متأخرة مثلها ولم تكن فقيرة في الوهي والادراك مثل ما كان عليه عبدة الشمس والكواكب وإن الآية القرآنية التي أشار إليها الاستاذ العقاد في كتابه وهي من سورة الانعام في قوله تعالى ( وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من المرقنين فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين . فلما رأى القمر بازخاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون . إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين )

هذه الآية لم تسكن تعن أن تؤرخ تطور العقيدة كما فهم الاستاذ العقاد ذلك وإنما كانت في الحقيقة تدعو الانسان الى أن يتدبر في معرفة الله بعقله وفؤاده وبصيرته ولا حرج عليه في ذلك ان اخطأ ثم اهتدى الى الحق والصواب وهنا غاية المرئنة والتسامح من قبل الله كانت هذه الآية تقرر ذلك ثم تقرر قدرة الله في عظمة وروعة تصوير وهو أن هذه الشمس في مقدرتها الكونية لأنها

أعظم قوة كونية يمكن أن يراها الانسان : هذه الشمس الضخمة الكبيرة  
لا تخلو من العجز والقصور والافول بخلاف قدرة الله القوية الجبارة التي لا يعتورها  
عجز ولا نقصان ولا ضعف ولا أفول ويوافقنا على رأينا هذا الاستاذ  
الامام محمد عبده قال رحمه الله في تفسير المنار الجزء السابع

« ان الله تعالى انزل القرآن هدى وموعظة وجعل قصص الرسل فيه عبرة  
وتذكرة لا تاريخ شعوب ومدائن ولا تحقيق وقائع ومواقع  
ثم جاء في الجزء الثاني من تفسير المنار أيضا

« فإن قيل إن التاريخ من العلوم التي يسهل على البشر تدوينها والاستغناء  
بها عن الوحي فلماذا كثر سرد الاخبار التاريخية في القرآن وكانت في  
التوراة أكثر؟

والجواب ليس في القرآن شيء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار  
للأمم أو البلاد لمعرفة احوالها ، وإنما هي الآيات والعبر تجلت في سياق الوقائع  
بين الرسل وأقوامهم لبيان سنن الله تعالى فيهم انذارا للكافرين بما جاء به  
محمد صلى الله عليه وسلم وتثبيتا لقلبه وقلوب المؤمنين به )

وجملة مانود أن نقوله ونقرره بشأن تطور العقيدة أنها كانت بصيرة  
ناضجة بقدر ما استوعبه الانسان من بصيرة وما تأتي له من نضج ، وأنها  
كانت متطورة واعية مع تطور الانسانية وما اكتسبته من وعي وأن الديانات  
الكتابية لم تنزل عليها الا بعد أن توفر لها من وسائل التكافؤ والاستعداد  
ما تستطيع أن تهضم به ما تدعوها اليه من عبادة الإله الواحد الأحد الذي سيجازي  
المحسن ويكافئه على ما قدمت يداه من خير وينتقم من المذنب على ما ارتكبه  
من شرور وآثام

من هذا العرض السريع الذي نعتقد أننا لم نسهب فيه كثيرا لاننا لسنا في  
حاجة إلى هذا الاسهاب في دراستنا هذه يظهر لنا كيف وجدت العقيدة في  
نفس الانسان الاول ، وكيف أنه هو الذي اكتشفها بنفسه واصطنعها باختياره  
ولم يرغم عليها ارغاماً أو يساق اليها سوقاً وهذا هو جوابنا على السؤال الأول

أما جربنا هل السؤال الثاني وهو هل من الممكن لإنسان متحضر أن يعيش عيشته المثالية ، وأن يسعى في الحياة يأخذ من الناس ويعطيهم يتطامن معهم في شيء أو يختلف عنهم فيه هل يتأتى لهذا الانسان أن يعيش دون أن تكون له عقيدة أيا كانت هذه العقيدة

أما أنا فإن جرواني على ذلك أنه ليس من الممكن اطلاقا وأن هذا الانسان لم يوجد بعد وأغلب الظن أنه لن يوجد أبداً بدليل ما قررناه في السؤال الأول وهو أن العقيدة ليست شيئاً جديداً على الانسان طارئاً عليه يمكن أن يلغىها من نفسه أو يعتزلها وينبوعها وإنما هي وجدت مع وجوده كإنسان مدرك مستشعر لما يحدث له أو يصدر عنه أو يحيط به

وجدت هذه العقيدة كما قررنا في ردنا عن السؤال الأول عنده يوم أن تحلل من غرائزه الحيوانية السفلى ويوم أن خرج من منطقة الحيوان الغير المدرك أو الواعي الى منطقة أخرى وهي منطقة استكشاف الروح فيه ، وتأثره بها وتنميتها فيه وتوفير عوامل الوعي والادراك في نفسه

فالعقيدة إذا من مقومات إنسانيته ، ومن بواعت نفرته من سلطة الغرائز الجبرية ومن تحلله شيئاً فشيئاً من صبغة الحيوان المسيطرة عليه ماديته والآخذة عليه كل سبيل من سبيل التقدم والارتقاء فإذا رد علينا اخواننا اللادينيون وقالوا لنا ان هوامل الوهي والادراك لم يكن سبيلها استكشاف الروح واستشعار الانسان الأول بها وإنما كان سبيلها سنة النشوء والتطور والارتقاء في عقل الانسان البدائي كان ردنا عليهم أن إيمان الانسان الأول بالروح وخلودها ، وأن وراء حياته هذه حياة أخرى كان من البواعث التي حملته على كثرة التفكير والتأمل ، وبالتالي على تكوين مادة لعقله استعان بها على اليقظة والنهوض والعمل على هتك ما كان يكتنفه من سحب الجهالة والظلام فلو لم توجد العقيدة بالروح التي يرجع اليها الفضل الاكبر في استشعار الحواس وعمل العقل ، والتي يرجع إليها بعد ذلك فضل التفكير البشري والتأمل العقلي ، ومحاولة البحث عن حقيقة الوجود



أقول لو لم توجد هذه العقيدة لما تآتى للعقل أن يخرج من جهالته ولا أن يبدد ما تكاثف أمامه من ابهام وظلام ، ولكان اتخذ له طريقاً آخر يستعين به على نصرجه وإدراكه ، وتطوره وارتقائه مع أننا لانعرف طريقاً آخر يمكن أن يستخدمه الإنسان في هذا السبيل

ومع ذلك فنحن لاتصور انساناً يعيش البتة بغير عقيدة أيا كانت هذه العقيدة ا حتى الانسان الملحد أو الانسان اللاديني لا يمكن أن نبرئه البتة من العقيدة فإنه في حقيقته مؤمن ولكن في وضع آخر وفي صورة أخرى .

وإذا نحن دققنا النظر وتممنا البحث في منشأ الفلسفة والعلوم والفنون وكل فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية وجدنا أن تقدمها وتطورها ونضوجها كان ذلك كله متأثراً في كل عصر من العصور بالعقيدة الدينية أو بما يضاد هذه العقيدة الدينية من عقائد أخرى وبذلك يظهر لنا بما سبق ومن ردنا عن السؤالين الآنفين أن العقيدة خلقت مع خلق الإنسان ووجوده الوجود المدرك ، وأنها نبعت من طبيعته وكوامن نفسه ، وأنه من العسير عليه أن يستغنى عنها أو يحيا بدونها سواء رضى ذلك أم لم يرضه ، وسواء أدرك ذلك أم لم يدركه

وعلى ضوء هذا الاستطراد السريع والتقاريرات المتقدمة نحب أن نهيب عن سؤالنا الذي صدرنا به هذا الفصل وهو ( هل الدين لازم للبشر ؟ )

ونحن بعد ذلك ، وبعد أن سردنا لك تاريخ تطور العقيدة الانسانية نقول نعم ! نقولها ونحن مطمئنون واثقون مؤيدون بوثائق منطقية وعقلية ! نقولها وماضى الإنسانية يثبت لنا ذلك ، وحاضرها يسجل عليها أنها تفرع الى الدين مستنقذة نفسها من حيرتها وضلالها وشقوقها . أما مستقبلها فينبئنا بأنها تسهر بخطى سريعة نحو الدين آخذة بأصوله ومبادئه وذلك بما تصطنعه هي لنفسها من نظم وتسنة من قوانين يتحقق بها العدل ويرتفع بها الانسان وتهدف إلى ما ترى إليه جميع الأديان

لقد دللنا في إجابتنا عن سؤالنا الاول على أن العقيدة ليست شيئاً طارئاً

أو جديراً على الانسان ، وإنما هي من صميم طبيعته وانسانيته كانت مميزة له عن الحيوان غير المدرك وحائلة بينه وبين سيطرة المادة وطغيانها عليه وتفردا به ثم دللنا في ردنا على السؤال الثاني أنه من العسير على الانسان أن يعيش بغير عقيدة لأنه فضلاً عن أن العقيدة نبعث من نفسه وأنها ملازمة لطبيعته فإن ما ركب فيه من عواطف وحواس وقلب وعقل كل ذلك يجبره على أن تكون له عقيدة حتى لا تتعطل وظيفة عواطفه وحواسه وقلبه وعقله وحتى يكون انساناً مهذباً متحضرأ يخطو خطواته ويسير في حياته على ضوء الحقائق وبوحى من هدى قلبه وعقله وبصيرته وعقيدته

وإلى هنا نعلم أن بعضاً من المتفلسفين والعلماء الماديين سيهزون رؤوسهم موافقين ولكنهم سيرفعونها دهشين متحدين سائلين قائلين وما شأن هذا بالدين . إنهم يقرون العقيدة ولزومها وضرورتها للانسان ولكن في الواقعيات والماديات وحدها أما مادون ذلك فلا شأن لهم به ولا عقيدة لهم فيه ولكننا سنزيل من دهشتهم وسنلطف من حديثهم فنقول لهم إن الدين لا ينكر عقيدتكم في الواقعيات والماديات وإنما يقربها ويعمل لها باعتبارها جزءاً آمادعاً الى الاعتقاد به ، وباعتبار أن مادها اليه من أمور أخرى سماوية وغيبية تفيد هذه الواقعيات والماديات ولا تضرها لأنها تسمو بها وتصلحها وتقتل جرائم الفساد فيها

لقد قرر علماء النفس والتربية والاجتماع أن الانسان المثالي الذي يعمل لصالح الانسانية ولخير المجتمع هو الانسان المثقف المهذب ولكنهم لم يعترفوا بمن ظهرت عبقريته في العلم أو الفن أو الأدب أو أى فرع آخر من فروع المعرفة الانسانية بأنه انسان مهذب مثقف وإنما اشترطوا فيه أن يكون ملماً بكل طرف من اطراف المعرفة آخذاً من كل شيء بحظ غير قليل يكيف به ما تخصص فيه من علم أو فن أو فلسفة أو أدب خشية جموحه وغطرسته وأنانيته وعدم استجابته لوحى الانسانية العام وتحويل عواطفه واحساساته نحو منحى خاص ووقوفها عنده لا تتذوق غيره ولا تؤمن إلا به

فإذا كان المتفلسفون والعلماء الماديون يؤمنون بأن العقيدة في الماديات

وحدها تكفي فإنهم يخالفون الحقيقة ويتعدون عن الطريق السوي بغرورهم  
وضلالهم وخيالاتهم وضيق مداركهم والتواء عقولهم فهم مقصرون في حق أنفسهم  
لأنهم يرسمون لها دائرة محدودة لا يؤمن فيها الزلل ولا يعتصم معها من الضلال  
نحن في دعوتنا الى أن العقيدة في الدين والعمل بأصوله ومبادئه الصافية  
الخالصة نحن في دعوتنا الى أنها شيء لازم للانسان المثالي الممتاز لاغنى له عنها  
ولا استقامة لحياته بدونها لانكر العقيدة في الماديات والواقعات ولكننا ننكر  
بقرة وبشدة الوقوف عند ذلك والاطمئنان له فكما انكر علماء النفس والتربية  
والاجتماع على العالم أو الفنان أو الفيلسوف أو الأديب الذي لم يصقل ذوقه  
ويكيف عقله ويهذب معارفه بأخذه يحفظ يذكر من جميع المعارف التي لم يتخصص فيها  
اذا كانوا انكروا عليه التثقيف والتهديب فكذلك نحن ننكر أيضا على من  
يقصرون العقيدة على كل ما هو مادي محسوس مرئي للعين إدراكهم للحق  
والصواب والرشاد

ننكر عليهم سعة الصدر ، وصقل الأخلاق ، وميزة الاتزان . . . !  
إن من طبيعة العقل البشري القصور والعجز والتطور من النقص الى شيء  
من النضوج والكمال فمن يريد أن يحمل العقل معرفة أسرار الكون فأنما يحمله  
محالا ، ويخرج به عن طبيعته - طبيعة العجز - الذي يتطلب نضوجا ، والنقص  
الذي يسعى الى شيء من الكمال

لقد أثبت تطور العلوم الحديثه أن في الكون أشياء وأسرار كان من المحال  
على العقل أن يؤمن بوجودها وحدوثها . ولكن لم يمنع ذلك أن تكون لها  
كائنياتها ووجودها فمن يقصر بعد ذلك الايمان على العقل وحده فأنما يبحث  
عن إيمان ناقص فقد أهم العناصر لنضوجه وكاله وهي : وحى البصيرة ، والهام  
الوحي الباطن وتأثير الاحساسات الادراكية

ومع ذلك فلن نكتفي بهذا وانما نحب أن نسأل هؤلاء السادة من الماديين  
الطبيعيين اللاديين . مالذي ينشده الدين من كل هذه الأشياء التي يدعو الى  
الاعتقاد والايمان بها؟ وما طبيعة هذه الأشياء؟ هل هي خيرة أم شريرة؟

وهل هي محببة للنفس الفردية مسعدة لمجموع الانسانية أم أنها كريمة الى النفس  
جالبة الشقاء والدمار على المجتمع الانساني؟

نعم نحب ان نسأل هؤلاء السادة: هل كان الدين في جوهره وغاياته، وفي  
البيئات التي نزل فيها عاملاً من عوامل التقدم والتطور والرقى الانساني أم أنه كان  
راجعاً بالانسان القهقري الى الوراء! ولكننا نعتقد ان هؤلاء السادة سيدسقط  
في أيديهم وسيصمتون صمت القبور لأنهم سيجدون أمامهم دلائل مادية محسوسة  
ملبوسة عندما يولون وجوههم شطر هذه البيئات التي أنزلت عليها كل الديانات  
السماوية في عصورها المختلفة. سيجدون هذه البيئات تترعرع في جبل مطبق  
وتعيش في ظلام قائم وتكيف حياتها، وتسكن نظمها، وتشرع قوانينها على  
ضوء من الأناية والتعصب والتساط ووجود سادة وعبيد، وأغنياء وفقراء  
وأقرباء وضعفاء، وعدل مزيف، وحق للناس عامة، وإنما للقوى وحده  
والظالم والمعتدى والمغير.

نعم لو تعمق الباحث المحايد إلى أعماق هذه البيئات التي أنزلت عليها الديانات  
السمائية لا استرعى نظره ما كان يعتمدها جميعاً من عوامل الانحطاط والفساد  
الذي كان ينخر فيها ويتهددها بالانقراض والفناء مما سنسهب في التحدث عنه في  
مكانه من هذا الكتاب

فاذا فعل الدين في هذا الجو الموبوء. وفي هذه البيئات الفاسدة التي لو تركت  
وشأنها لقضت على نفسها وعلى نمو الانسانية ونظام العمران هل أقرها على  
نظمها ومبادئها وما تراضعت عليه من معيشة وما ألفتها من حياة حتى يتجنب  
وقوفها ضده وصددها لمبادئه ومصادرتها لما يدعو اليه؟ وهل كانت الرسل التي  
حملت أعباء تبليغ رسالة الدين. مبشرين ومنذرين. وهادين ومبشرين هل كان  
هؤلاء الرسل الا افراداً ممتازين في انسانيتهم وفي اخلاقهم وفي اثارهم للغير وفي  
كل ما هو حميد محبوب من صفات الوفاء والحق والعدل، وصفاء الضمير ونفاذ  
البصيرة ورجاحة العقل؟

ليجيبنا هؤلاء السادة اللادينيين عن ذلك فما نشك أن ذلك يخفى عليهم

لأنه مسطور في التاريخ مقروء فيما نزلت به هذه الديانات.

إن قلبي ليضطرم وأنا أخط هذه الكلمات لأن العاصين للدين والكافرين به والجاحدين بفضائله يفسرون الدين في ضوء ما كان يأخذه ويتمثل به أتباعه والقوامون عليه الذين أتوا بعد رسلهم بحقب ليست قصيرة والذين كانوا يلونونه على هوائهم بعقولهم الرجعية. ويمثلونه بعيد أعما كان يدعو ويسعى إليه ويبغى تحقيقه. ومن هنا فهموه على غير حقيقته ورموه بالأباطيل والترهات وهو من كل ذلك براء. إنني لأطلب من هؤلاء السادة أن لا يقفوا عندهم هؤلاء العلماء. وأن لا يأخذوا شيئاً عنهم، وأن لا يتمثلوا الدين في ضوء أقوالهم وأفعالهم لأنهم أساءوا إلى أديانهم إساءة لا تغتفر، ولأنهم لن يجدوا عندهم شيئاً من فضائل الدين ومزاياه وحقيقته وجوهره وذلك لأنحطاط مداركهم ومرض نفوسهم وتكالبهم على الطمع والجشع وتسخير عقولهم وتأويل أحكام دينهم لأغراض سياسية وذلك ارضاء لغرورهم أو لرؤسائهم . . . . ! وإنما عليهم إذا أرادوا نشدن الحق والعثور على الحقيقة أن يولوا أنظارهم شطر الأديان في كتبها المنزلة، وأن يدرسوا البيئات التي انزات فيها هذه الديانات ليروا ما كان يكتنفها من عوامل الهدم والفسوق والبعد عن الصراط المستقيم ثم بعد ذلك يسألون انفسهم؟ هل حقق الدين للإنسانية نفعاً وخيراً وصلاً وهل رسم لها طريق التقدم والسمو والكمال أم لم يحقق أو يفعل شيئاً من ذلك؟ وهل لو نظرنا إلى رسالات المفكرين والمصلحين والعقريين من بنى البشر هل نجد الدين كان يقف في طريقهم (ولأقول علماء الدين) أم أنه كان يساعدهم ويأخذ بيدهم. بل كانوا يعتمدون عليه في تكوين إدراكهم، ونمو مواهبهم، وتحقيق غاياتهم

لقد سبق أن قررنا بأن اكتشاف الروح في الإنسان الأول كانت من العوامل التي حملته على الخروج من منطقة اللا إدراك إلى منطقة الإدراك ثم على التأمل والتفكير في نظام الكون وحقيقة الوجود فترك تراثاً من الفكر والأساطير والفلسفات مهما يقل فيه فإنه كان مادة صالحة ومفيدة لعمل العقل الإنساني في كل أطواره التي مرت به

وقياسا على ذلك نقرر والتاريخ معنا شاهد حق على أن ما بلغه الانسان  
من نضج وتقدم وتطور وعلى ان ما اصطنعه من صور التفكير وألوانه المختلفة  
وما أقامه من اختراعات وابتكارات وأشياء أخرى كان ذلك كله بسبب البذرات الأولى  
التي وضعها الدين في دعوته الى الايمان بالله خالق الكون ، وصانع الأرض  
والسما فوجد العقل بذلك طريقه في البحث عن ماهية الروح ، وحقيقة الكون  
وأسرار الطبيعة وما وراءها وهيئت له بسبب ذلك السبل للتأمل والتفكير  
والبحث والتدقيق في معرفة طبيعة الأرض وحقيقة السماء فاخترع ما اخترع  
واكتشف ما أمكنه اكتشافه من أسرار وعلوم وقرانين وما اصطاحه لكل  
ذلك من اصطلاحات

ومع ذلك لا نود أن نكتفي بهذا لأننا نعلم أن بعضا من الناس سيتعرضون لنا  
قائلين وإذ كانت طبيعة الدين كما ذكرت . فكيف اذا حارب الدين العلم وكره  
الناس فيه وانكره عليهم وبغضهم فيه ؟ وجوابنا عليهم أننا لانعلم أن الدين في  
ذاته - أى دين من الأديان المنزلة - انكر العلم المفيد للانسانية الأخذ بها نحو  
السمو والكمال لانعلم أن الدين أنكر شيئا من العلم أو عاداه أو أكره الناس  
على عدم الأخذ به لأن هذا مخالف لطبيعته ورسالته وغاياته - فإذا كان هؤلاء  
يعنون العلماء الذين سموا أنفسهم بعلماء الدين فالدين ليس مسئولاً عنهم وهو  
منهم براء

اننا نعلم أن الدين أنكر بعض العلوم وبغض الناس فيها وصرفهم عنها  
مثل علوم السحر المؤذية للانسان ؛ و مثل العلوم الأخرى المبلبلة لافكار  
الانسانية والمقلقة لراحتها وأمنها ولكنه كان ينظر من وراء ذلك مصلحة لانسان  
وخيره وسعادته وهنا يظهر لنا ما في الدين من سمو وكمال وارتفاع عن الدنايا  
والمورقات وتحلل من الغريزة الوحشية والبغضاء والانتقام فأى عقل يهضم بعد  
ذلك أن الدين كان يقف أمام العلم يعثر خطواته ويسد طريقه

إن الحضارة الحديثة التي من آثارها وجود هذه العلوم والفنون وكثرتها  
وتشعبها تنكر بقوة وبشدة استعمال العلوم المييدة للانسانية المفككة لرابطتها

المق

أن

الا

وم

الع

وال

عن

في

مز

الح

بعد

ترج

كل

وفي

ذرة

مقا

التص

ذى

### المقرضة لأركانها

فهل هناك انسان بعد ذلك عنده ذرة من العقل والوجدان السليم يستطيع أن يقول إن الدين وقف في طريق العلم وتوق من تطوره ونهضاته  
ان الباحث المحايد النزيه لا يسعه الا أن يشكر الله ويحمد له ما أفاء على  
الانسانية من خير بوجود الدين الذي نجاها من الضلال وجنبها العثرات  
وميزها تميزا ساميا رفيعا عن باقي المخلوقات

(١) قال جون استيولرت ميل في رسالة له في فائدة الديانة  
، ان الديانات قد أفادت قديما في تعليم الانسان مكارم الأخلاق ومحاسن  
العادات ، وكانت هي المرجع الوحيد الذي كان يرجع اليه في التفرقة بين الحسن  
والقبيح والمباح والمحظور . ولكنها قيدت عقله بأحكامها وفروضها فأعجزته  
عن التفكير في مضامينها والتخلص من عيوبها وعنده أن العقائد الانسانية كافية  
في تهذيب الناس وقيادتهم بعد زوال العقائد التي تقوم على ماوراء الطبيعة لولا  
مزبة لهذه العقائد لا توجد في العقائد الانسانية وهي تعزية النفس برحمة الله ودوام  
الحياة في العالم الآخر ولا مانع عقلا ولا علما في أن يصح وعد الديانات بالحياة  
بعد الموت ،

وقال الأستاذ الفيلسوف جمال الدين الافغانى في كتابه ( الرد على الدهريين )  
ترجمة الاستاذ الامام محمد عبده

« اكسب الدين عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث خصال  
كل منها ركن لوجود الأمم وعماد لبناء هيتها الاجتماعية وأساس محكم لمدينتها  
وفي كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى  
ذرى السعادة ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزهها عن  
مقارنة الفساد ويصدها عن مقاربة ما يبئدها ويبددها (العقيدة الأولى)  
التصديق بأن الانسان ملك أرضى وهو أشرف المخلوقات (والثانية) يقين كل  
ذى دين بأن أمته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل (والثالثة)

جزمه بأن الانسان انما ورد هذه الحياة الدنيا لاستحصال كمال هيئته للعروج  
الى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى والانتقال من دار ضيقة الساحات  
كثيرة المسكروحات جديرة أن تسمى بيت الأ-زان وقرار الآلام الى دار  
فسحة الساحات خالية من المؤلمات لا تنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها  
لا يغفل العاقل عما يتبع هذه العقائد الثلاث من الآثار الجاليلة فى الاجتماع  
البشرى والمنافع الجمّة فى المدنية الصحيحة وما يعود منها بالاصلاح على روابط  
الأمم وما اسكل واحدة من الدخل فى بقاء النوع والميل بأفراده لأن يعيش  
كل منهم مع الآخر بالمسالمة والمواودة والأخذ بهمهم الأمم للصعود فى دراقى  
الكمال النفسى والعقلى

من البين أن لسكل عقيدة لوازم وخواص لا تزايلها فما يلزم الاعتقاد بأن  
الانسان أشرف المخلوقات ترفع المعتقد بحكم الضرورة عن الخصال البهيمية  
واستنكافه عن ملابسة الصفات الحيوانية ولا يرب أنه كلما قوى الاعتقاد اشتد  
به النفور من مخالطة الحيوانات فى صفاتها وكلما اشتد هذا النفور سما بروحه  
الى العالم العقلى وكلما سما عقله أوفى على المدنية وأخذ منها بأوفر الحظوظ حتى  
قد ينتهى به الحال إلى أن يكون واحدا من أهل المدنية الفاضلة يحيا مع اخوانه  
الواصلين معه الى درجته على قواعد المحبة وأصول العدالة وتلك نهاية السعادة  
الانسانية فى الدنيا وغاية ما يسعى اليه العقلاء والحكماء فيها

فهذه العقيدة أعظم صارف للانسان عن مضارعة الحمر الوحشية فى معيشتها  
والثيران البرية فى حالتها ومضاربة البهائم السائمة والدواب الهاملة والهوام الراضمة  
لا تستطيع دفع مضرة ولا التقية من عادية ولا تهتدى طريقا لحفظ حياتها وتقضى  
أجلها فى دهشة الفرع ووحشية الانفراد

هذه العقيدة أشد زاجر لأبناء الانسان عن التقاطع المؤدى لافتراس  
بعضهم بعضا كما يقع بين الأسود الكاسرة والوحوش الضاربة والكلاب العاقرة  
وأشد مانع يدفع صاحبها عن مشاكلة الحيوانات فى خسائس الصفات وهذه  
العقيدة أحجى حاد للفكر فى حركاته وانجح داع للعقل فى استعمال قوته وأقوى



فاعل في تهذيب النفوس وتطهيرها من الرذائل

ان شئت فارم بنظر العقل إلى قوم لا يمتقدون هذا الاعتقاد بل يظنون أن الانسان حيوان كسائر الحيوانات ثم تبصر ماذا يصدر عنهم من ضروب الدنيايا والرذائل والى أى حد تصل بهم الشرور وبأى منزلة من الدناءة تسكون نفوسهم وكيف أن السقراط الى الحيوانية يقف بعقولهم عن الحركات الفكرية ومن خراس يقين الأمة بأنها أشرف الأمم وجميع من يخالفها على الباطل أن ينهض أحادها لمسكائرة الأمم في مفاخرها ومساهماتها في مجدها ومسابقتها في شرائف الأمور وفضائل الصفات ، وأن تتفق جميعها على الرغبة في فوت جميع الأمم والتقدم عليها في المزايا الانسانية عقلية كانت أو نفسية ومعاشية كانت أو معادية وتأنى نفس كل واحد عن اعطاء الدنية والرضى بالضم لنفسه أو لأحد من بنى أمته ولا يسره أن يرى شيئا من العزة أو مقاما من الشرف لقوم من لأقوام حتى يطلب لأمته أفضله وأعلاه ذلك انه بهذا الاعتقاد يرى أبناء قومه أليق وأجدر بكل ما يعد شرفا انسانيا

فان جازت صروف الدهر على قومه فأضرعتهم أو ثلثت مجدهم او سلبتهم مزية من مزايا الفضل لم تستقر له واحة ولم تنشأ له حمية ولم يسكن له جيشان فهو يمضى حياته في علاج ما ألم بقومه حتى يأسوه أو يموت في أساه فهذه العقيدة أقوى دافع للأمر الى التسابق لغايات المدنية وأمضى الاسباب بها إلى طلب العلوم والتوسع في الفنون والابداع في الصنائع وانها الأبلغ في سوق الأمم الى منازل العلاء ومقام الشرف من غالب قاسر ومستبد قاهر عادل وان أردت فالبح بعقلك حال قوم فقدوا هذا اليقين ماذا تجدد من فتور في حركات أحادهم نحو المعالي وماذا ترى من قصور في هممهم عن درك الفضائل وماذا ينزل بقراهم من الضروف وماذا يحل بديارهم من الفقر والمسكنة والى أية هوة يسقطون من الذلة والهوان خصوصا اذا بغى عليهم الجهل فظنوا أنهم أدنى من سائر الملل كطائفه (الدهير) و (مانك)

ومن مقتضيات الحزم بأن الانسان ماورد هذا العالم الا ليتزود منه كمالا

يعرج به الى عالم أرفع ويرتحل به الى دار أوسع وجناب أمرع أن من أشربت  
هذه العقيدة قلبه ينبعث بحكمها وينساق بجادها لاضاءة عقله بالعلوم الحققة  
والمعارف الصافية خشية أن يهبط به الجهل الى نقص يحول دون مطلبه ثم  
ينصرف همه لابرار ما أودع فيه من القوة السامية والمدارك العقلية  
والحواس الجليلة باستعجالها فيما خلقت له فينجلي كماله من عالم الكون  
الى عالم الظهور ويرتقى من درجة القوة إلى مكانة الفعل فهو ينفق ساعاته في  
تهذيب نفسه وتطهيرها من دنس الرذائل ولا يناله التقصير في تقويم ملكاته  
النفسية وينزع لكسب المال من الوجوه المشروعة امتنكبا عن طرق الخيانة  
ووسائل الكذب والحيلة معرضا عن ابواب الرشوة وترفعها عن الملق السكبي  
والخداع الثعلبي ثم ينفق ما كسب في الوجه الذي يليق وعلى الوجه الذي ينبغي  
وبالقدر الذي ينبغي لا يأتي فيه باطلا ولا يغفل حقا عاماً أو خاصاً

فهذه العقيدة أحكم مرشده وأهدى قائد للانسان الى المدنية النابتة المؤسسة  
على المعارف الحققة والأخلاق الفاضلة وهذا الاعتقاد أشد ركن لقوام الهيئة  
الاجتماعية التي لا عماد لها الا معرفة كل واحد حقوقه وحقوق غيره عليه والقيام على  
صراط العدل المستقيم هذا الاعتقاد أنجح الذرائع اتوثيق الروابط بين الأمم  
اذ لا عقدها الا مراعاة الصدق والخضوع لسلطان العدل في الوقوف عند حدود  
المعاملات هذا الاعتقاد نفحة من روح الرحمة الأزلية تهب على القلوب ببرد  
الهدون والمسالمه فان المسالمه ثمرة العدل والمحبة والعدل والمحبة زهر الاخلاق  
والسجايا الحسنة وهي غراس تلك العقيدة التي تحميد بصاحبها عن مضارب الشرور  
وتنجبه عن متاهة الشقاء وتعاسة الحد وترفعه الى غرف المدنية الفاضلة وتجلمسه  
على كرسي السعادة

وقد يسهل عليك ان تتخيل جيلا من الناس حرم هذه العقيدة فكم يبدو لك  
فيه من شقاق وكذب ونفاق وحيل وخداع ورشوة واختلاس وكم يغشى نظرك  
من مشاهد الحرص والشره والغدر والاعتيال وهضم الحقوق والجدال والجلاد  
وكم تحس فيه من جفاء للعلم وعشوة عن نور المعرفة ، انتهى

وهكذا وجدتنى مضطرا لأن أنقل لك هذا الفصل بأجمعه لأنه متصل ببعضه ببعض اتصالا وثيقا ولأنه صادر من مفكر شرقي عظيم يعتبر الباعث الأول لنهضتنا الحديثة والذي تلمذ على يديه زعماء الفكر والسياسة والدين في مصر والشرق جميعا

وإذا كان لنا أن نكتب بعد ذلك شيئا عن مزايا الدين وضرورته للبشر وإن عقيدته هي أفضل العقائد وأقواها وأسماها بعد أن قررنا فيما سبق من الكتاب بأدلة مادية قاطعة بأنه ليس للإنسان مفر من عقيدة في نفسه لأنها من طبيعة تكريته ولأنها من لوازم تطوره ووجوده كأنسان متحضر في هذه الحياة إذا كان لنا أن نكتب بعد كل ما قدمناه من دلائل وأبواب واستشهادات أقول إذا كان لنا أن نكتب شيئا عن عقيدة الدين بعد هذا كله فإننا سنتكلم عن مرجد هذه العقيدة والداعى إليها والأمر بها بواسطة رسله وكتبه المنزلة من السماء

سنتكلم على حقيقة الوجود ، أو على حقيقة الإله خالق الكون وباسط الأرض ورافع السماء ومنظم العمران بعيني خبير قدير وكما قلنا نحن سابقا من أننا لم نقم بهذا البحث حبا للترف العقلي والنزهة الفكرية وكثرة المناقشة والجدل فيما لا ينفع ولا يفيد الإنسانية في حالتها الراهنة وفيما تستقبله من الأيام وإنما نحن في دراستنا هذه لا نشد إلا الخير والفائدة الملبوسة والمحسوسة للإنسانية في حاضرها ومستقبلها فمن أجل ذلك لن نناقش علماء الميتافيزيقيا ، في آرائهم الكثيرة المتناقضة وفي تفسيراتهم المتباينة لمختلفة لحقيقة الوجود وماهية الكون ولكننا نكتفي رغم اختلافهم في ذلك بإعترافهم جميعا بأن وراء الطبيعة قوة قاهرة قادرة تفرع منها الوجود وتسبب عنها حدوث الكون فإذا جاءت الأديان لترشدنا وتدلل لنا على أن هذه القوى القاهرة القادرة هي الإله خالق الكون ورب الجميع الذى لا أول له ولا آخر ولا بداية له ولا نهاية والذى بيده الملك ، ويده الأمر والنهى والذى سيحاسب الإنسان على ما قدمت يدها واكتسبه من خير أو شر ، فمن عمل صالحا فلنفسه

ومن أسماء فعلها وما ربك بظلام للعبيد ،

إذا جاءت الديانات لتدعونا بأن نؤمن بهذا الإله بعد أن أظهر العقل عجزه عن معرفته وتصويره . واكتشاف حقيقته وبعد أن وجدنا فليسوفا عبقريا مثل ( عما نوئيل كانت ) المفكر الالماني الذي سادت فلسفته أوروبا في القرن التاسع عشر والتي مازالت فلسفته تؤثر في الفكر البشري حتى الان يقرر في قوة ومن غير تحفظ « بأن لا سبيل للعقل في معرفة حقيقة الله أو حقيقة الروح لأنه لا تتوفر فيه القدرة على ذلك . ولأنه يعجز عن أن يصل الى شيء أضخم وأعظم منه ولأن مجاله لا يتأني الا في الأشياء المادية الملموسة المحسوسة والله منزه عن المادة ، وعن أن يكون شيئا ملموسا محسوسا ،

فالعقل هنا يثبت تقصيره وعجزه أمام القوى الازلية غير المشخصة أو المستحدثة أو المدينة في وجودها لعله من العلل أو لسبب من الأسباب ولكن العقل اذا كان لا يملك ادراك الذات الإلهية فليس له من سبب وجيه لانكارها وعلى ذلك فإنه يكون من الجحود لأنفسنا أن لا نؤمن بوجود الإله

وإن الباحث إذا رجع بنظره وفكره إلى السكيفية التي آمن بها الانسان الأول - وان كنا نقرر هنا بأن ايمانه لم يكن صحيحا - الا أن ذلك لا يمنعنا من أن نعرف الأدوات التي استعملها في البحث عن ماهية السكون وحقيقة الإله وأول شيء يبرز لنا من ذلك أن العقل لم يستأثر وحده بالبحث ولم يكن وحده هو الأداة التي حملت الانسان على الايمان بالروح بل كان القلب وكانت الاحساسات هي التي تحملت النصيب الأوفر في ذلك .

لقد قررنا نحن فيما مضى بأن ما اكتسب العقل من انارة ونضوج كان بسبب الاحساسات الانسانية التي استشفت للعقل المادة التي يتدبر فيها ويتحكم ويحكم وغاية ما نقوله في هذا الموضوع هو أن العقل الذي طبيعته انقصور والعجز دائما فلا سبيل له الى الكمال أبد الأبد من العبث أن نحكمه في الكمال المطلق ليلم به ويتحكم عليه . وانما نحكمه فيما يرتاح اليه القلب وترتاح اليه الاحساسات ، نحكمه في الفوائد الملموسة التي يجنيها المجتمع في ايمانه بالله . أو في الشرور التي

ينغمس فيها بالكفر به

قال الفيلسوف الانجليزى هكسلى فى حقيقة الاله :

( هناك طريقة الى الحقيقة الالهية من داخل النفس وطريقة اليها من داخل العالم وجواهره واعراضه . ومشكوك فيه أن تغنينا واحدة من الطريقتين عن الأخرى كل الغنى فأما إذا اتفقتا معا فذلك هو النهج السديد )  
ويقول العقاد فى صفحة ( ٢٩٣ ) من كتابه ( الله )

( نحن قد جعلنا أحكام البساطة وصفاتها فى المادة المحسوسة قرونا بعدد قرون ولا تزال نعلم أننا واهمون فيما نتصف به من الحركة والسكون . فمن أن لنا أن ندرك أحكام البساطة الالهية قياسا على وصف لا تحيط به العقول من أين لنا ان ارادة الله من قبيل ارادتنا . وأن علم الله من قبيل علمنا وكيف يسكون الوجود إن لم يكن وجرداً يفعل وبخالف العدم ؟ وكيف يخالف العدم اذا كان سلباً لا أثر له على سبيل الثبوت هنا نعلم أن الدين لم يكن أصدق عقيدة وكفى بل كان كذلك أصدق فلسفة حين علمنا ان الله جل وعلا ( ليس كمثله شئ )

فكل ما نعلمه أنه جل وعلا ( كمال مطلق ) وان العقل المحدود لا يحيط بالكمال المطلق الذى ليست له حدود . وليس لهذا العقل أن يقول للكمال المطلق كيف يسكون وكيف يفعل وكيف يريد .

ويفضى بنا الكلام فى طلاقة العقل الى نتيجة رابعة وهى الصلة بين العقل والايمان فكيف تؤمن اذا كان العقل الانسانى قاصراً عن ادراك الذات الالهية وكيف تأتى الصلة بين الكمال المطلق وبين الانسان

وقد نهد للجواب على هذا السؤال بسؤال آخر يرد البحث الى نصابه فنسأل : أيراد بالعقل اذا أن يكف عن الايمان حتى يكون عقلاً كاملاً مطلق الكمال أم يراد بالعقل أن ير من ياله دون مرتبه الكمال ؟

لا هذا ولا ذاك مما يقع فى حسابان فالكائن الذى يستحق الايمان به هو الكائن الذى يتصف بالكمال المطلق فى جميع الصفات وغير معقول أن يكون سبب الايمان هو السبب المبطل للايمان . وغير معقول أن يستحيل الايمان مع وجود الاله الذى يتصف بأكمل الصفات فالخروج الوحيد من هذا التناقض أن الصلة بين

الخالق وخلقها لا تتوقف على العقل وحده : وأى عجب في ذلك إن الانسان كله لفي الوجود وليس العقل وحده هو قوام وجود الانسان . فلما ذا تنقطع الصلة بين الخلق والخالق إذا حسرت العقول دون ذلك المقام أفمعنى هذا أن العقل الانساني لا عمل له في مسألة الايمان ؟ كلا بل له عمل كبير ولكنه ليس بالعمل الوحيد و فرق بين أن يعرف العقل حدوده وبين أن يبطل عمله فان العقل ليستطيع التفرقة بين عقيدة الشرك وعقيدة التوحيد ويستطيع التفرقة بين أدلة الايمان وأدلة التعطيل ويستطيع التفرقة بين ضمير مؤمن وضمير عطل من الايمان . ويستطيع أن يبلغ غاية حدوده ثم لا ينكر حدودها لانه وراء تلك الحدود يستطيع أن يسأل نفسه : أتمكن أن يمنع على الايمان بالله لا شيء الا لانه متصف بأكمل الصفات التي تتعلق بها إيمان المؤمنين فان لم يكن ذلك ممكنا فليعترف ( بالوعى الديني ) لانه ضرورة لا يحصى عنها ولانه واقع ملازم للانسان في محاولاته الأولى ، ولن يزال ملازماً له في مقبل عصوره أبد الآبدن ) انتهى

ومع ذلك فاننا لا نحب أن نترك هذا البحث دون أن نجد للعقل ونجد المنطق مجالاً في معرفة آثار الذات الالهية وفي معرفة ما يجنيه الانسان من الايمان بها من خير أو شر : نعم هنا مجال العقل ، وهنا مقارعة المنطق وهو هل الايمان بالله وإطاعة أو امره والابتعاد عن نواهيه خير وإصلاح وتهذيب للانسانية أم جرم وفساد وشر ووبال عليها :

ان النفس الانسانية أماراة بالسوء ، وإن الغريزة البشرية ركب فيها من عوامل الاثرة والوحشية والاعتداء ما لو تركت وشأنها لقضت على الانسانية والعمران شر قضاء فلو لم يستشعر الانسان ويؤمن بأن هناك قوة قادرة عليه بصيرة تقف له بالمرصاد وتسجل عليه ما يكتسبه من الأعمال وستحاسبه على ما قدمت يده من خير أو شر حساباً عسيراً فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

إذا لم يؤمن الانسان بذلك لما كان هناك فرق بينه وبين الذناب المتوحشة والفقر الكاسرة ، وذلك فضلاً عما يجده القلب في ايمانه بالله وما تجده الاحساسات البشرية من معين للتغذية ومن مجال للرفعة والتسامي والايثار والحب

إن التعاليم والمبادئ التي نزلت بها الديانات من قبل الله من تكرار القول بالتحديث عن نعمها وخيرها للإنسانية لأنها من البدائنه التي لا يتناول إلى انكارها لإنسان كأننا من كان والتي يقف أمامها العقل البشري منحنيًا في تقديس وإكبار وإجلال .  
يقول أحد الفلاسفة الغربيين ( لو لم يكن للبشر إله لكان من الخير لهم أن يصطنعوا لأنفسهم إلهًا )

ويقول الأستاذ جمال الدين الأفغاني في كتابه سالف الذكر ، إن الإيمان بأن للعالم صناعاً عالماً بمضمرة القلوب ومطويات الأنفس سامي القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قدر للخير والشر جزاء بوفاء مستحقه في حياة بعد هذه الحياة . وفي الحق إن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يحويان أثر الغدر ويستأصلان حتى مادة التدليس وهما أفضل وسيلة لاحقاق الحق والتوقيف عند الحد وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للإجتتماع الإنساني ولا تلبس المدنية سربال الحياة ولا يستقيم نظام المعاملات ولا تصفو صلوات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش  
فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل وسدت عليها طرق الفضائل ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسه عن خيانة أو يترفع بها عن كذب وغدر وتملق ونفاق وقد تقرر أن العلة الغائية لأعمال الإنسان إنما هي نفسه كما سبق فإن لم يؤمن بشواب وعقاب وحساب وعتاب في يوم بعد يومه فما الذي يمنعه عن ذمائم الفعال خصوصاً إذا تمكن من إخفاء عمله وآمن من سوء عاقبته في الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة في ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة وأي حامل بحمله على المعاونة والمرادفة والرحمة والمروءة وعلو لهمة وما يشبه ذلك من الأخلاق التي لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها ( ولئن وجد في أحد الجاحدين شيء من مكارم الأخلاق بمقتضى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتز ناقصاً لفقده ما يمدده من سائر صفات الكمال )  
وقد تبين أن أول تعاليم الدهريين ابطال هذين الاعتقادين ( الاعتقاد بالله والاعتقاد بالحياة الأبدية ) وهما أساس كل دين وآخر تعاليمهم الإباحة

والاشترارك فهؤلاء القوم هم الساعون في نفس بناء الانسانية وتذريته في  
ذبول السافيات يطلبون ضعضة اركان المدنية وفساد الاخلاق البشرية  
ويقوضون بذلك ما رفعه العلم وشادته المعرفة يهلكون الامم باطفاء حرارة  
الغيرة واخماد ريح الحمية . هؤلاء جرائم اللؤم والخيانة وأرومات الرذالة  
والدناءة واحلاس الحسة والنذالة وأعلام الكذب والاقتراب ودعاة الحيوانية  
العجماء محبتهم كيد وصحبهم صيد وتوددهم مكر ومراصلتهم غدر وصداقهم  
خيانة ودعراهم للإنسانية خيالة ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة يخونون الأمانة  
ولا يحفظون السر ويبيعون الصق الناس بهم بأوفى مشترياتهم عبيد البطون  
وأسراء الشهوات لا يستنكفون من الدنية اذا اعقبها عطية ولا يخرجون من  
الفضيحة اذا اتبعها رضيخة لا علم عندهم بالوفاء ولا احساس لهم بالعار ولم  
يلغهم عن شرف النفس خبر مخبر ولا وصل اليهم عن الهمة عبارة معبر أو تفسير  
مفسر الابن فيهم لا يأمن أباه والبنات لا أمان لها من كليهما . نعم أي حد تقف  
دونه حركات طبع الطبيعيين ،،

الى أن قال : فتبين مما قررناه أن الدين وأن انحطت درجته بين الاديان  
ووهي أساسه فهو أفضل من طريقة الدهريين وأمس بالمدنية ونظام الجمعية  
الانسانية وأجمل أثراً في عقد روابط المعاملات بل في كل شأن يفيد المجتمع  
الانسانی وفي كل ترق بشري الى أية درجة من درجات السعادة في هذه الحياة  
وختم هذا الفصل بقوله : فلم تبق ريبية أن الدين هو السبب الفرد لسعادة  
الانسان فلو قام الدين على قواعد الأمر الالهي الحق ولم يخالطه شيء من أباطيل  
من يزعمونه ولا يعرفونه فلا ريب أنه يكون سبباً في السعادة التامة والنعيم  
السكامل وينذهب بمعتقديه في جواد الكمال الصوري والمعنوي . ويصعد بهم الى  
ذروة الفضل الظاهري والباطني ويرفع أعلام المدنية لطلابها بل يفيض على  
المتمدنين من ديم الكمال الفعلي والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين والله يهدي  
من يشاء الى صراط مستقيم ،

ويقول (أجوست سباتيه) في كتابه فلسفة الدين (لماذا أنا متدين؟ انى لم أحرك :  
شفتى بهذا السؤال مرة إلا وأرانى مشوقاً للإجابة عنه بهذا الجواب ،؟ وهو



أنا متدين لأنى لا أستطيع غير ذلك فالتدين لازم معنوى من لوازم ذاتى يقولون ذلك أثر من آثار الوراثة أو التربية أو المزاج فأقول لهم قد اعترضت على نفسى كثيراً بهذا الاعتراض نفسه ولكنى وجدته يقهر المسألة ولا يحلها وأن ضرورة التدين أشاهدها بأكثر قوة فى الحياة الاجتماعية البشرية. فهى ليست أقل تشبهاً منى بأهداب الدين) إلى أن قال :

(وإذا فالدين باق وغير قابل للزوال وهو فضلاً عن عدم تضرب ينبوعه بتماذى الزمن ترى ذلك ينبوع يتزايد اتساعاً وعمقا تحت المؤثر المزدوج من الفكر الفلسفى والتجارب الحيوية المؤلمة)

ويقول الفيلسوف (أرنست رينان) فى كتابه تاريخ الأديان « من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه وكل شىء نعدده من ملاذ الحياة ونعيمها . ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والصناعية ولكن يستحيل أن ينمحي التدين أو يتلاشى . بل سيبقى أبداً الأبدىين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضائق الدنيئة للحياة الأرضية » ويقول الدوس هكسلى : « إن الحضارة الأوربية قامت على التفوق الذهنى وحده وخلقت نهضة صناعية لم تحقق للإنسانية إلا القوى المادية والترفع ولكنها أهملت تربية عواطفه وأخلاقه وفضائله الروحية ،

ويقول الفيلسوف الفرنسى (شارل) فى كتابه الوحي الجديد (لما فقد الناس التصديق بوجود الروح صارت منابع الأخلاق مهددة بالنضوب وأحست الإنسانية من نفسها بأنها قد دخلت دور الفتن والإنحلال الذى يعقبه عادة التلاشى والفناء)

وقال الأستاذ أحمد أمين بك فى مقال له فى مجلة الكتاب : اجتمع جماعة من أشهر رجال العلم يمثلون علم الفلك والكيمياء . والإقتصاد والتاريخ والأدب والفلسفة والدين ووضعوا تقريراً جاء فيه :

« الديمقراطية الصحيحة والثقافة الحقة يجب أن لا تعتمد على أن الإنسان جزء من الطبيعة فقط بل هو أيضاً كائن روحى . وأن الحياة الروحية لا يمكن

أن تفسر بالقوانين الطبيعية التي يشرحها علماء الطبيعة . وأن الروح الانسانية مستقلة عن الجسم وبيئته . وأن اتصال الروح بالمنبع الأبدى مسألة أساسية في فهم الروح الانسانية وأن إنكار الطبيعيين لعلاقة الانسان بالروح الأعلى التي تسيطر على العالم أجمع حرمه من قوة الخالق وأبعده عن الصراط المستقيم ، والخلاصة التي يمكن أن نخرج بها من هذا الفصل هي أن الدين لازم للبشر لزوم الماء والهواء للإنسان والحيران والنبات ضروري لرقى الانسانية ضرورة لا يحصى منها ولا يحيد عنها . وأن الباحث لا يملك نفسه من أن يتنبأ بأن الانسانية في تطورها هذا القوي العنيف سينتهي بها المطاف الى أن ترتقى في أحضان الدين ، وأن تكيف نفسها به ، وأن تستمد حياتها بوحى من هديه فعلى الدين بعد ذلك أن يكون مرناً صافياً خالصاً بما ألم به من الشوائب والباطيل والترهات التي أملت به في عصوره الماضية وهو منها براء .

ولقد أخذنا على أنفسنا عهداً بأن نقوم بهذا العمل الضخم الجبار فنستظهر ديننا الاسلامي ونقدمه للانسانية نظيفاً بما علق به لترى فيه بغيتها وهداها وتستثقف نفسها به مما هي فيه من حيرة وضلال وظلوع عن الطريق المستقيم . إن الاسلام هو آخر الاديان السماوية وأقواها وأصلحها وأعظمها مرونة وها نحن أولاء نقدمه لا للمسلمين فقط وإنما للانسانية جمعاء لترى فيه رشادها وتستمد منه سعادتها في حاضرها وما يستقبلها بعد ذلك من عظمة وتفوق وامتياز



## حالة الانسانية قبل الاسلام

من الملاحظ في نزول الديانات والدعوات الالهية أنها كانت تتفق جميعها ومطالب الانسانية وحاجتها القصوى إلى استحداث مبادئ ونظم تكيف بها حياتها وتنمي بها وجودها :

ولقد كانت الديانات في صميم مبادئها ودعواتها كأنها تترجم عما يكن في ضمير الانسانية من حب للتقدم والتطور ومن محاولة لاستنقاذ نفسها مما هي فيه من تأخر وانحطاط . ومن سعى واستعداد لتحطيم قيودها التي غلتها بها التقاليد والرجعيات فكانت الديانات تنزل على بني البشر مؤرخة في الحقيقة لنهضاتها وتقدمها وبلوغها مرحلة تستطيع بها أن تهضم وتعي ما تدعوها اليه من آراء ومبادئ وما تفرضها عليها من قوانين ونظم .

والدارس لكل لديانات في مجموعها تبرز له روعتها ولباقتها في ذلك لأنها كانت تنزل متمشية مع تطور الانسانية في حاضرها ولكنها قاصرة عن الاهتداء اليه والاسترشاد له .

والديانات في مجملها متفقة على وجود إله يجب أن تدين له الانسانية بالطاعة والانقياد ومتفقة على الدعوة إلى الفعل الصالح وعلى وجود جزاء وعقاب وحياة أخرى سيعاقب فيها المذنب ويجازى المحسن ولكنها مختلفة في التفاصيل اختلافا بينا عظيما

ومن هنا ندرك شدة حرصها واتفاقها مع مقدار ما استوعبته الانسانية من رصيد المعرفة والادراك . وما تحتاج إليه من اصلاح وتهذيب تهضمه وتعيه وتعمل به وتدرك مقدار خيره ونفعه وصلاحه لها . وعلى ضوء ذلك سندرس

حالة الانسانية قبل نزل الاسلام

وإذا كانت الديانة الإسلامية - وهي آخر الأديان المنزلة - قد أتت عامة  
 لأبناء الجنس البشري جميعا وقد حملت في جورها ومبادئها العناصر التي تتفق  
 مع تطور الانسانية جميعها وتعاونها وائتلافها فإنه لا معدى لنا من أن نكشف  
 النقاب عن حالة الأمم التي كانت ظاهرة وسائدة قبل ظهور الاسلام . والتي  
 كانت تؤثر في غيرها من بني البشر وتفرض عليهم نظمها وقوانينها وتكيف لهم  
 حياتهم لنرى ان كان التشريع الاسلامي في جملته وتفصيله مما تحتاج إليه  
 الانسانية وما يمكن أن يستخذهه بنو البشر جميعا لا فرق بين أمة أخرى ولا  
 بين جيل ومن يأتي بعده من أجيال لا فرق بين هؤلاء جميعا في أن يسموهم  
 هذا التشريع الاسلامي وأن ينظم حياتهم ويحضرها ويجعلها تنسق وتتمشى مع  
 تجدد العمران وتطور الاجيال

وأول ما يترامى لنا عندما نأخذ في دراسة البيئة الانسانية قبل ظهور  
 الاسلام أن نتجه في دراستنا الى دولتي الفرس والروم بجانب دراستنا للأمة  
 العربية التي أنزل فيها هذا التشريع لأن هاتين الدولتين كانتا في الواقع مؤثرتين في  
 غيرهما من الأمم والشعوب فارضتين عليهما ما شاءتا من نظم وقوانين  
 وأول شيء يعن لنا ونحن تجاه دراسة هاتين الدولتين وتجاه ما اكتسبته كل  
 منهما من علوم وقوانين وما برعنا فيه من اختراعات وفنون أن نذكر فضل  
 اليونان عليهما . وفضل الفلاسفة اليونانية القديمة التي نعتبرها بحق أصل التفكير  
 البشري المنظم وجرثومة الفكر الحر المجدد .

هذه الفلسفة القوية الجسارة التي نستطيع أن نتمثلها في مرحلتين بعيدتين  
 كل منهما عن الأخرى : المرحلة الاولى وكانت في القرون الخمسة الاولى قبل  
 الميلاد وهي التي فرضت الفلاسفة فيها نفسها على الامم فرضاً فكانت تمشي جنبا  
 الى جنب مع غزوات الاسكندر المقدوني البطل اليوناني الشهير وانتصاراته  
 المترالية حتى أخضع ملوك العالم جميعا وحتى أصبحت الدول جميعها تدين له  
 بالطاعة والانقياد . فكان علماء اليونان في هذه المرحلة هم أساتذة العالم جميعا  
 دون نزاع . وكانت كل ألوان التفكير البشري مستعدة في الحقيقة من فلسفة

هؤلاء العلماء الذين اعتزوا وتميزوا وفرضوا آراءهم في كنف قائدهم العظيم الذي كان هدفه الأوحى في كل حروبه وغزواته نشر العلم والفلسفة اليونانية وسيطرتها على العقل الانساني وحسبك على ذلك مكتبة الاسكندرية وما كانت تحويه من كتب كثيرة هائلة في مختلف العلوم والفنون

هذه المرحلة الأولى للفلسفة اليرانية وهي التي سيطرت فيها على العقول بعد السيف وبالغزو الحربي هي التي كانت تؤثر في حياة الفرس والروم وفي حياة غيرهما من الشعوب التي أخذت بقسط من التحضر كل التأثير .

أما فلسفة اليرانيين في مرحلتها الثانية فكانت في النصف الثاني من القرن السادس عشر عندما ذهب مفكروا أوروبا وأدباؤها مختارين طائعين نهمين إلى هذه الفلسفة فعبروا منها عباءة واعتنقوها وأسرفوا في اعتناقهم لها غاية الاسراف بما حدثت عنده في مقدمة هذا الكتاب .

ولا يعني في هذا الفصل من الكتاب دراسة هذه المرحلة الثانية بقدر ما تعيننا دراسة المرحلة الأولى التي كما قلت كانت مؤثرة في حياة الفرس والروم وما كان يتبعها من أمم وشعوب .

ولعل من الواجب علينا قبل أن يمضى بنا القلم أن نلم المامة خاطفة بتاريخ هاتين الدولتين العظيمتين وما تعرضتا له من غزوات سواء أكانت هذه الغزوات حربية أم فكرية . وما كانتا تتخذانه من عقيدة وتؤمنان به من دين . وإذا ما رجعنا إلى الوراء وولينا وجوهنا شطر هاتين الدولتين العظيمتين اللتين كانتا تسيطران على غيرهما من الأمم والشعوب . أقول إذا ما وجهنا وجوهنا اليهما في القرن الرابع قبل الميلاد نجدهما كاتتا كما قات متأثرتين غاية التأثير بالفلسفة اليونانية التي غزت العالم كله وسيطرت على العقول سيطرة طاغية وكانت تعززها الانتصارات الحربية التي حمل لواءها الاسكندر المقدوني تلميذ الفيلسوف اليوناني أرسططاليس .

وما دمنا سنلم بحالة كل من الفرس والروم قبل ظهور الاسلام فليس لنا من التيسر بعض الشيء في دراسة التاريخ القديم لكل منهما .

فأما الفرس فالتاريخ يحدثنا عنها أنها دولة عريقة في الحكم لم تستطع أي دولة من الدول أن تحكمها مدى ثلاثة آلاف سنة قبل ظهور الاسلام اللهم الا بطل اليونان الاسكندر المقدوني الذي ذهب إلى ملكها دارا الثالث في القرن الرابع قبل الميلاد فقتل عرشه وقضى على حكمه قضاء تاما .

هذه الدولة لم يعرف عنها إلا أنها كانت من عبدة الأوثان حتى ظهر فيها زرادشت أثناء العشرة قرون الأولى قبل الميلاد والتي لم يستطع المؤرخون أن يعينوا أي قرن ظهر فيه بالضبط ودعا إلى ديانة جديدة هي المجوسية فاعتنق دينه أفراد كثيرون من الشعب كان منهم ابن الملك وبقى الآخرون من الشعب على دينهم القديم وكان من الطبيعي أن يتصارع الفريقان . وأن يحاول كل منهما الغلبة على الآخر ولكن كان النصر لأتباع زرادشت وذلك بسبب تأييد الملك لهم فاتصروا وتغلبوا على الوثنيين وظلت الفرس مجوسية إلى أن ابتداء العرب غزواتها في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ثم القضاء والسيطرة على بلادها كلها في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ودخل الاسلام من بينهاردهط عظيم خدمه بإخلاص فاجتهد وجدد وكون له مذاهب وآراء غاية في الروعة والخطورة مثل الامام أبي حنيفة وابن سينا والبخارى والغزالي

هذه الدولة التي اشتهر أهلها وملوكها بالذكاء الحاد واترف المترف والتي نبغ فيها من الأطباء ومن علماء الفلك ما لم تزاحمها فيه دولة أخرى . هذه الدولة عندما ندرس حالتها قبيل ظهور الاسلام نجد أن عوامل كثيرة كانت تنخر في نظامها الاجتماعي وكان تهيأ للقضاء على كيانها الدولي قضاء تاما لأنها كانت آخذة بنظام الملكية الاستبداد الاستبدادي الذي ~~هو~~ ورتبة غنية مترفة لها من الحقوق والامتيازات الطائلة الكثيرة مالا سبيل إلى غيرها للتطلع إليه والذي كون طبقة أخرى فقيرة مدممة كانت دوغرة المصدر شديدة المقت الملك وحاشيته ورجال الحكومة وحواريها من الأشراف .

يقول الأستاذ عبد الحميد العبادي في كتابه صور من التاريخ الاسلامي ( ونعود فنقول إن أعمال الناس مزاج من الخير والشر فإذا كانت سياسة

الأكامرة تنطري على خير كثير فإنها الأسف كانت تحمل في ثناياها العناصر التي أدت في النهاية إلى انتفاض أمرهم ورضياع ملككم فإن حملهم الشعب على اعتقاد أنهم يحكمون بتفويض من الله على حسب تصورهم له كان لا بأس به لإبان قوة الأسرة الساسانية فلما اضمحلت وعراها الوهن والهجوم من بعد كسرى أنوشروان لم يكن يمكننا أن يقرم رجل قروي فينتزع منهم السلطان وينقله إلى أسرة أخرى فتية ناهضة فإذا حدث أن رجلاً قروباً حدثه نفسه بذلك لقي الخذلان من الشعب على نحو ما حدث لبهزام جورين في أواخر القرن السادس ثم ان انحصار الدرمة الزرادشتية والمباغاة في رفع أقدار رجالها قد أدى في نهاية الأمر إلى قيام طبقة كهنوتية متمسكة مستبدة لا تعرف الرفق بالناس في مسائل الدين ولا السماح نحو أهل الديانات الأخرى الذين كان منهم بايران خلق كثير .

ثم إن التمسك بنظام الأسرة والملكية على النحر الذي كان عليه دون تعديل يطابق الظروف أدى إلى قيام طبقة أرستقراطية قليلة العدد واسعة الثروة كثيرة الامتيازات كما قسم العرب طبقات متحاربة متحاذرة تماماً وأوغر قلوب الناس بعضهم على بعض . والواقع أن شيرعية مزدك إنما كانت احتجاجاً صارخاً على ذلك النظام بصورته التي أصبحت عليها في القرن السادس الميلادي .

وكان اجتماع هذه العوامل في نهاية القرن السادس مما أوقع الدولة في الفوضى والارتباك وهي فوضى يكفي للتدليل عليها أن اثني عشر ملكاً جلسوا على سرير الملك فيما بين عامي ٦٢٨ ، ٦٣٢ أي في نحو أربع سنوات ومن الاتفاقات العجيبة أنه في تلك السنوات عينها أخذ العرب يخرجون من جزيرتهم غزاة فاتحين فلم يقر صرح الأكاسرة المتداعي على صدماتهم العنيفة في ميادين القادسية وجولاء ونهاوند . وقضى آخر الأكاسرة وهو يزيد بن شهريار بقية أيامه شريداً مطروداً إلى أن اغتيل على يد رجل من أحقر رعيته عند مدينة مرو عام ٦٢١ هـ ( ٦٥١ م ) فذهب بمصرعه على هذه الصورة المؤلمة مثلاً واضحاً للحورد العامة وغرور الحياة .

أما الدولة الثانية فهي الدولة الرومانية فقد تأثرت أيضا في تاريخها القديم بالفلسفة اليونانية التي حملها الإسكندر المقدوني في كل حروبه وغزواته التي لم يكن الغرض منها استعباد الشعوب والسيطرة عليها بقدر ما كان يهدف اليه من نشر الفلسفة اليونانية وفرضها على الناس لتثقيفهم وتحضيرهم . ولقد تجلت روعة الفلسفة اليونانية في روما فازدهرت إيما إزدهار وتأثر منها بنوها وأثروا فيها غاية التأثير ، وبفضلها قويت روما وانهضت وكونت امبراطورية ضخمة حتى قضت على استقلال اليونان وأدجتها في امبراطوريتها ادماجاً إلى أن أغارت عليها الأمم المنبررة من ناحية . وغزاها المسيحيون من ناحية أخرى فكان ذلك إيذاً لنا بأفول نجم هذه الحضارة الرومانية اليونانية الأصل لما فهمنا وثنية ومن نظم كثيرة كنظام الطبقات ونظام الاستغلال الرخيص غير المشروع وكنظام الرق الذي كان عماد الاقتصاد الروماني مما يتنافى ذلك كله ومبادئ المسيحية التي جاءت تدعو إلى المساواة والمحبة والسلام .

والتاريخ القديم لروما يثبتنا بأنها أسست دولتها في القرن الثامن قبل الميلاد وكانت ديانتها الصابئة وظلت محافظة على هذه الديانة إلى أن ظهرت المسيحية واعتنقها أفراد من بني إسرائيل وتسربت منهم إلى روما فآمن بها أول الأمر أفراد قليلون كانت تضطهدهم الحكومة وتكيل لهم العذاب ألواناً ولكن ذلك لم يصرفهم عن عقيدتهم حتى إذا جاء القرن الرابع الميلادي وكثر اتباع المسيحية كثرة ساحقة حملت ( قسطنطين ) امبراطور روما في ذلك الحين على أن يتبع هذه السكثرة الساحقة ويعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة ثم جاء بعده الامبراطور ( ثيودوسيوس ) فحمل الشعب على امتناقها بالحديد والنار وكانت قد أصبحت كل من الإمبراطورية لروما مسيحية كمصر والشام وروسيا وغيرهم . وبذلك عادت روما إلى مجدها القديم وأصبحت هي العالم كله يحكمها قيصرية ذوو قوة وبأس ونخامة .

والمهم هو أن نعرف أن الدولة الرومانية ظلت مخلصه للفلسفة اليونانية متأثرة بها مؤثرة فيها محافظة عليها إلى أن أخذها منها العرب وأخذوها من غارات



الأمم المنبرية من ناحية ومن انتماء المسيحية عليها من ناحية أخرى .  
هذا هو تاريخ روما القديم في اختصار حتى سيادة المسيحية عليها في القرن

الرابع الميلادي .

و ذلك كانت روما في تاريخها القديم قد فازت بغيرها من الأمم في الحسنة  
السياسية وقد برعت أيما براعة في نظم الحكم وفي وضع القرازين حتى أثر عنها  
القانون الروماني الذي ما زال مؤثراً حتى الآن في حضارة العالم أجمع فإنها في  
عهد ما المسيحي قد حاررت أن تكون القرازين بهذا الدين الجديد الذي اعتنقته ،  
و قد نوحى في ذلك إلى ما يفتن بها بتميزتها بها وبتمنح عدم تدخل الكنيسة  
في أمور الدنيا حتى ذلك الوقت . ولا يمكن بعد أن قربت الكنيسة ووطدت  
مكانها استغل رجالها ضعف الامبراطوريات المتعاقبة فكانوا يتدخلون في كل  
شيء ويرسمون القواعد للناس وللحكومات في كل شأن من شؤون الحياة وأصبح  
البابا يلقب نفسه بخليفة الله في الأرض وأن الامبراطور وحكرمته والناس  
جميعاً هم رعاياه .

يقول الدكتور محمد سامي جزيه في كتابه ( القانون الدولي العام ) صفحة  
٥٦ - ٥٧ ( على أن الواقع أن الدين المسيحي كان من طريق آخر عقبه في سبيل  
نمو قواعد القانون الدولي العام ) ( أولاً ) لأن الرابطة التي كان يخلقها هذا  
القانون دينية قاصرة على الدول المسيحية ويخرج بذلك شطر كبير من أعضاء  
العائلة الدولية وهم الدول غير المسيحية ( ثانياً ) لأن روح السيادة العالمية كانت  
متسلطة على الكنيسة فكانت تتدخل في شؤون الدول الخارجية منها والداخلية  
ومثل هذه السيادة العالمية تتنافى مع استقلال الدول ومساواتها وإذن تتنافى مع  
وجود القانون الدولي العام في شكله الحديث .

ويقول على ماهر بك ( باشا الآن ) في كتابه القانون الدولي العام صفحة  
٥٩ - ٦٠ ( استخدم البابا نشاطه الديني العظيم للتحكم في تيجان الملوك والأمراء  
حتى أن هنري الرابع ملك الرومانيين الذي تزوج امبراطوراً وهو أقوى ملوك  
المسيحيين بأساً ذهب ذليلاً خاضعاً إلى ( كانوسا ) سنة ١٠٧٧ م لاستعطاف البابا

( جريجوار ) السابع واسترضائه لما أنذره البابا بأنه إذا لم يحضر إلى روما للتوبة عن خطاياہ وعن سوء حكمه خلعه .

هذا الاذلال الذي بقى فيه هنرى الرابع في الثلوج عارى القدمين في فناء محكمة ( السكوتس ما تلبدا ) بالقرب من ريجيو في جبال أنباين منتظراً إذن القسيس بالدخول إليه ليغفر له ذنوبه لم يبق بعده هيبة للتاج ولم يتسن بعده للامبراطور أن يدعى أنه الرئيس الأعلى في العالم ولا أنه غير مسئول إلا أمام الله وعلى الضد من ذلك أدعى البابا النيابة عن الله في الأرض وافرد السلطة الروحية بالسلطان كما ادعى أن الجنس الإنساني رعاياه ، وأن الملوك مسئولون أمامه ، وأن له خلعتهم لأنه هو الذي يوجههم ، انتهى

وان الدارس لهذه الفترة من سيادة المسيحية وهي التي ابتدأت من القرون الوسطى إلى نهايتها ليملكه العجب وتملأه الدهشة لأن رجال الكنيسة كانوا يفرضون سلطانهم الأوتقراطي على الشعوب والأمم وكانوا يتخذون لذلك من ألوان العذاب والاضطهاد والطغيان ما لم يحدث في تاريخ البشر على الإطلاق فكانوا يفرضون رقابة شديدة على حياة الناس وعلى أفكارهم وعقولهم وحسبك على ذلك أن تقرأ التاريخ الاسود لمحاكم التفتيش هذا التاريخ الذي يحمل لك بطش الكنيسة وبشاعتها وتعنتها وأنها كانت حجر عثرة في سبيل التقدم الإنساني وفي القضاء على كل نزعة حرة تجديدية من غير ترو ولا شفقة ووسائل غاية في الوحشية والجهالة والظلم حتى كان من ضحاياها العالم الفلكي ( جولييليو ) الذي حكمت عليه محكمة التفتيش بأن تحرق جسده وهو حي لما نادى بدوران الأرض وكان ذلك كله باسم الديانة المسيحية التي من أول مبادئها الصبح والرحمة والمغفرة والإيثار ( وإذا ضربك أخوك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ) .

هذا الاضطهاد المروع الذي كان يلاقيه البشر ويلاقيه بنوع خاص العلماء والفلاسفة الأحرار مما يتنافى مع المسيحية الحقة ومع أي دين سماوي آخر هو الذي كان من العوامل التي أخرت المعرفة الإنسانية وكادت تقضى على المدنية البشرية ولكن العالم كقطيع من الأغنام يساق سيرة دون اعتراض ولا إدراك . وظهرت

الكهنوتية المسيحية بشكها الاستغلاالى الجبار وأصبح كل قسيس من رجال الكنيسة يناهى بأنه مثل الله فى الأرض بيده السلطة لله، به وغفران الذنوب ويده منح الثراب والسعادة فى الآخرة واضحت هذه السلطة فى يده كتجارة رابحة يستكثر بها الاموال ويقتنى القصور والضياع ويعيش فى ترف واذة واشباع لشهراته الزهمة الجامحة رغم ما كان يقاسيه رعاياه من ظلم وفقر وجهالة وما كان يسرد حياتهم وعقولهم من انحطاط وظلام .

وإذا ما تعمق الباحث فى الأسباب التى كرات هذه السلطة فى أيدي رجال الكنيسة وفى خضوع الحكام لهم وموافقهم على كل ما يتلون من أوامر وما يصدر من أحكام إذا ما فكر الباحث وتعمق فى ذلك يجد أن الدين المسيحى لم يتعرض لا فى جهاته ولا تفاصيله لرسم نظم ولا قرازين ولا حدود لشؤون الناس يقفرون عندها ويحكمونها فيما ينشأ بينهم من اختلافات ثم شىء آخر وهو هذا النظام الكهنوتى الذى اصطلحته المسيحية وهو الواسطة بين الله وبين مخلوقاته من ذلك نشأ استبداد رجال الكنيسة ونشأ معه اضمحلال المعرفة الانسانية فى شتى فروعها .

هذه هى حالة الفرس وحالة الروم قبيل ظهور الاسلام بل هذه هى حالة الانسانية كلها لأن هاتين الدولتين كانتا فى الواقع الممثلتين للعالم الانسانى جميعه بحكم ما كونه كل منهما من تراث مجيد وما اكنسبته من حضاره تأثر بها غيرهما من الأمم والشعوب .

والذى يعيننا الآن أن ننظر اليهما فى هذه المرحلة التى ذكرناها والتى سبقت ظهور الاسلام .

أن ننظر اليهما فاحصين متدبرين سائلين : هل ما كان يسود الدولة الأولى من فقر فى الاخلاق ومن انعدام للعدالة الاجتماعية والعدالة القانونية مما يتفق ومصالحه الانسان وهل ما كان يسود الدولة الأخرى من هذا النظام الكهنوتى الذى يخلق الطبقات خلقا ويشجعها وينميتها ويجعل بين الانسان وبين خالقه واسطة . يجب أن يعترف لها بالخطايا وأن يطلب منها هى العفو والتوبة

والمغفرة...! هذا النظام الكهنوتي الذي فهمته الدولة الرومانية أسوأ فهم .  
والذي استخدمته الكنيسة أشنع استخدام حتى كان وسيلة كما قلت للتجارة  
وللربح الرخيص .

هل هذا أيضا مما كان يتفق مع تحضر الانسان وتطوره وأخذه بحظ يذكر  
من نضوج العقل وفتح البصيرة وقوة الإدراك .

اللهم لا . واللهم إن الانسانية كانت في أمس الحاجة إلى هذه المبادئ والنظم  
وقواعد الأخلاق التي حملها الاسلام للعالم فقومت من أخلاقه وقوت من  
بذور التقدم والتحضر فيه .

إننا عندما نذهب في دراستنا إلى الجزيرة العربية ونعلم أي حياة كان يعيشها  
العرب من جهالة وكسل وخمول لا دولة تربطهم ولا قانون ينظم حياتهم  
ويخضعون له في معاملة بعضهم بعضا اللهم إلا تقاليد قبائلهم المتنافرة المتنازعة  
المتخاصمة لأوهى سبب من الأسباب

هؤلاء القوم الضاربون في هذه الصحراء القاحلة الجدياء والذين كانوا ذا  
نكرة جاهلية وذا عصبية متعصبة لتقاليدهم وما كانوا عليه من بداعة وتأخر  
وانحطاط كيف استطاع الإسلام أن يغزو قلوبهم ويسيطر عليها . وأن يجعل  
منهم هداة ومرشدين ومحضرين للعالم أجمع ومرفعين به إلى أسمى مراتب التقدم  
والتقدمين ان لم تكن فيه عناصر قوة وعناصر حق وعناصر تقدم وصلاح .

يقول الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل .

• إن في الإسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأحبها وهي المساواة بين  
الناس أمام الدين .

والإسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا على كل مسلم  
وقاعدة من قواعد الإسلام ويقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من  
أربعين من الثروة تعطى للفقراء والمنكوبين والمساكين .

وما هذا إلا صوت الانسانية . صوت الرحمة والاخاء يصدر من فؤاد ذلك  
الرجل ابن الصحراء .

ويتحدث في مريض آخر عن أثر الإسلام في حياة العرب .  
« لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور فقد كانت فئة من  
جرالة الأعراب تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها  
حركة فأرسل الله هذا النبي برسالة من عنده فإذا الخمول قد استحال شهرة .  
والعموض نياحة . والضعف قوة وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبحت  
لدولة العرب قدم في الهند و قدم في الأندلس وأشرقت دولة الاسلام قرونا طويلة  
على نصف المعمورة . انتهى

وهكذا نحب أن نعرض هنا بعض الشيء لدراسة مبادئ الاسلام مما يحتاجه  
هذا الفصل من الكتاب لنبرهن على أن الانسانية كانت مفتقرة الى هذه المبادئ .  
وكانت في حاجة شديدة ملحة الى من يحملها اليها ويرشدها عنها .

وأول شيء يبرز لنا من هذه المبادئ التي كانت الانسانية متلهفة عليها  
المساواة بين الناس كافة في الحقوق والواجبات والتقارب والتآلف بين  
أفراد الانسانية جميعا . يقول القرآن الكريم ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر  
وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ) ويقول  
رسول الاسلام ( لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى )  
ثم يقول مرة أخرى ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه )

أنظر معي الى هذا المبدأ الذي نادى به الاسلام ثم أنظر الى ما كان يكتنف  
الانسانية ولا أقول في عهد انحطاطها وجهانتها . وإنما في العهود التي بلغت فيها  
شأواً كبيراً في المعرفة والادراك . أنظر الى ما كان يسودها من حب للسيطرة  
وللإستعباد . والنسخير لأفراد من البشر بدعوى أن ذلك مما يقره  
الله ويدعوهم اليه .

يقول على ماهر في كتابه سالف الذكر ( القانون لدولى العام ) صفحة ٥٥  
( كان ارسطو يرى أن الخالق أوجد البرابرة لأن يكونوا أرقاء ويعد من

الأعمال الشريفة محاربتهم لسلب ثروتهم واسترقاقهم فغير اليونانيين اعداء خوارج  
على القانون . إخضاعهم واجب سيامى على اليونان لذلك كانوا فى حروبهم معهم  
غاية فى الحشونة والوحشية فإذا انتصروا قتلوا الجنود المهزومة وضربوا المدن  
واسترقوا سكانها )

ثم يقول فى صفحة ٥٧

( كان القانون الرومانى هو الذى يحدد حقوق الأمم المغلوبة وواجباتها  
وكانت سياسة مجلس الشيوخ نحو الدول الأخرى قاسية وكانت الحروب كلها  
للإستعباد والفتح لبسط السيادة على العالم ولما كانت سياسة المملكة الرومانية  
لا تلائمها علاقات دولية سلمية كان عدم وجود قانون دولى مسيما عن الوجهة  
السياسية الرومانية لا عن عجز النظريات العلمية فان فقهاء الرومان الخالدين أمثال  
( بابينيان . وأولييان . وأفريكان ) الذين وضعوا القانون المدنى المستمدة منه  
الشرائع الحديثة لم يكن من المتعذر عليهم أن يضعوا قواعد القانون الدولى العام  
إذا كان ذلك لا يتنافى مع فكرتهم فى سيادة العالم المعروف كله ) انتهى

نقابل ذلك بما حملة الاسلام للعالم من المساواة المطلقة بينه وبين بنيه فساكن  
المسلمون اذا ما فتحوا بلداً خيروا أبناءه بين أن يعبدوا الله ويتبعوا رسوله  
السكريم ويسيروا على تعاليمه السامية وما رسمه لهم من مثل عليا فن نطق  
بالشهادتين وأسلم واتبع الهدى فله كل الحقوق التى للسلم وعليه كل الواجبات  
أمامن تخلف فليس عليه الا أن يدفع الجزية لبيت مال المسلمين وهو آمن على ماله  
مطمئن على حياته وزوجه وأولاده فى كنف الحكومة الاسلامية .

واعل أبليغ مثل لما كان يلقاه غير المسلمين من رعاية لحقوقهم ومن عدل  
لقضاياهم ما حدث فى عهد الخليفة الثانى عمر بن الخطاب فلقد تسابق ابن والى  
مصر عمرو بن العاص مع ابن قبطى من أهل مصر فسبقه ابن القبطى فاغتاز ابن  
عمرو وضرب ابن القبطى بالسوط وقال له أنا ابن الأكرمين فتمنى الخبر الى  
عمر بن الخطاب فأرسل فى طالب عمرو وابنه ثم أتى بالسوط وأعطاه لابن  
القبطى وقال اضرب به ابن الأكرمين ثم التفت الى عمرو وقال كلمته المأثورة

( متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً )  
 ثم انتظر معي قليلاً أزيدك شيئاً من هذه السماحة ومن هذه الروعة والقوة  
 في المساواة التي حملها الاسلام للناس .

شكا يهودى على بن أبي طالب إلى عمر في خلافته فلما مثلاً بين يدي أمير  
 المؤمنين نظر إلى علي وقال له : أجلس يا أبا الحسن . فظهرت آثار الغضب  
 على أسارير وجه علي فقال له عمر : أكرهت يا علي أن يكون خصمك يهودياً  
 وأن تمثل وإياه أمام القضاء فقال علي : لا ولكني غضبت لأنك لم تسو بيني  
 وبينه بأن كنتيني فقلت يا أبا الحسن ( والتكنية التعظيم )  
 وانتظر معي مرة أخرى أروى لك هذا الحدث الفذ .

تقاول أبو ذر الغفاري وعبد زنجي في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم فاحتد  
 عليه أبو ذر وقال له : يا بن السوداء . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وطف  
 الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل الا بالتقوى أو  
 بعمل صالح ، فوضع عند ذلك أبو ذر خده على الأرض وقال للأسود قم  
 فطأ على خدي وذلك تكفيراً عن ذنبه .

ليحدثنا أحدهم هناك مثل علياً للمساواة والعدالة الانسانية أبلغ وأنبل وأروع  
 من ذلك ، وهل هذه الصفات من الفضائل والأخلاق التي أكسبها الاسلام  
 لأبنائه وحملوهاهم ليثروها في كل مصر من الأمصار أو قطر من الأقطار يفتحوه  
 مما كانت تحتاجه الانسانية وتحتضنه وترتمي عليه أم تنكره وتفر منه

ثم أنظر الى ما كان يسود المجتمع الانساني من هذا النظام الذي حملته الديانة  
 المسيحية والذي كان آخذاً بخناق الانسانية يكاد يقتلها ويجعلها تلفظ نفسها  
 الأخير وهو نظام الكهنوتية الذي يخول للقسس والرهبان السلطة في فرض  
 الأوامر والنواهي لأنهم الممثلون لله في الأرض أنظر الى هذا النظام الذي  
 كان ينكر ويقتل روح الآباء والشمام والقدرة والامل في الانسان وما يقابل  
 ذلك في الاسلام من أن يقول الله في كتابه الكريم : لا اكره في الدين قد تبين  
 الرشد من الغي ، ثم يخاطب نبيه المرسل وحامل رسالته الى البشر بقوله : إنك  
 لا تهدي من أحببت واسكن الله يهدي من يشاء ، ويقول في موضع آخر

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر ، ثم بأمره بقوله ، اخذ العفو وأمر  
بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، - « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة  
الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ،  
وعن أبي هريرة قال :-

« قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله ، وأنذر عشيرتك  
الأقربين ، قال يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني  
عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله  
شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سايني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً ،  
ومع ذلك فلن نكتفي بهذا وإنما سننقل لك فصلاً كاملاً يصور حالة الإنسانية  
قبل ظهور الإسلام كتبه فليسوف فرنسي هو المسيو جول لا بوم لترى الى أى  
حد كيف كانت الإنسانية متعطشة الى مبادئ الإسلام ونظمه وتعاليمه ولترى  
الى أى حد كيف كان الإسلام عاملاً من عوامل التقدم والارتقاء للأمم  
التي استظلت به أو استمدت منه أعظم عناصر قوتها ونهوضها .  
قال المسيو جول لا بوم :-

« ١٠ ، حوالى ميلاد محمد فى القرن السادس الميلادى كان جو العالم ملبداً بغيوم  
الاضطرابات والفتن فكان شعب ، الويزيغو ، الآريين فى أسبانيا وفرنسا  
يصاولون الملك « كلوفيس » وأولاده الكاثوليكين فكانوا من أجل ذلك  
يطلبون مساعدة امبراطور مملكة الرومان الشرقية المدعو « جوستينيان » ثم  
اجبروا الى الدخول معه فى حرب جديدة تخلصا من سلطة القواد الذين جاءوهم  
بتلك المساعدة . فقد كانوا يزعمون أن لهم حق الفاتحين لا مجرد ولاء  
المساعدين المأجورين .

« أما فى فرنسا نفسها فكان أولاد كلوفيس هذا متخادرين متسافكين .  
كانت الحروب التى شبت بين الملكة الويزيغوتية ( برنهو ) والملكة الفرنكية



( فريد يچوند ) هبى للتاريخ أشد الصحائف اثاره للأسي والكمند .

• أما فى انجلترا فسكان الانجلاو ينازعون الساكسونيين الأرض التى احتلوها واستعبدوا فيها ذرية ( كيميريس ) وهم أقدم المغيريد على تلك الجزيرة التى تتطلع اليوم للوقوف فى مقدمة الأمم علها وصناعة وقوة . وهى التى كانت فى ذلك العهد بحالا للقوة الوحشية السائدة فى تلك الغياهب الخالكة .

• أما فى ايطاليا فسكان اسم الرومان . وهو ذاك الاسم الشاىخ قد فقد قيمته القديمة وكانت رومية وهى الشظية الأخيرة أو رأس ذلك التمثال الكبير المتشم ( يعنى مملكة الرومان ) فى حالة تمللها من استحالة أمرها الى مركز دينى بسيط ترانج وتضطرب كلما ألم بها طائف من ذكر عظمتها القديمة أيام كانت مركزاً دينياً أصلياً . فكانت تهىء نفسها لأن تكون مركز البابوية وهى تلك السلطة الزمنية كما اقتضت سياسة « شرماني » أن يجعلها كذلك بعد قرنين من الزمان ولسكنها مع ذلك لم يسعها الا حمل نير « الهير ولبين » و « الاستروغوتين » وبراطرة المملكة الرومانية واللومبارديين الذين تداولوا السلطة عليها تداولاً .

• أما المملكة اليونانية فكانت قد نسيت مجدها القديم فصارت تابعة لمملكة الرومانيين الشرقية . مثلها منها كمثل الزينة ذات الضوضاء . وكان شرق أوربا مقاماً جنوبها من أول مصاب نهر الرين من جهة الشرق فسكان الاسكندينا فيون والنور فيجيون والدانبا ركيون يتزاحمون فى الطريق الذى سلكه الغويتون والهوينون الذين احتلوا تراقيا ومقدونيا ولومبارديا وإيطاليا سواء بالقوة أو بالخدعة .

• فى ذلك الوقت بدأ ظهور الأتراك من أعماق آسيا الصغرى وهى تلك الأمة التى قصرت فيما بعد مملكة اليونان على أسوار القسطنطينية .

التصوير البديع الذى جادت به قريحة المسيور بنان لبيان عن مركز الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول من التاريخ المسيحى لا علاقة له بالتصوير الممكن عمله لتجلية حال أوربا فى القرن السادس . تلك كانت مفاصد قيصرية مختمرة أما هذه فوخشية حربية تلعب بالارواح وتمرغ فى الأوحال .

« أما آسيا فلم تكن أهدأ بالآ من أوروبا في شيء فملكه تيبث والهند التي اقتبست منها الأمم السائدة في أوروبا الآن قرائحها وأفكارها العامة ولغاتها . والصين التي تعد مسألتها أغرب المسائل السياسية والفلسفية وبالاختصار أغرب المسائل الاجتماعية كانت هذه الممالك كلها متمزقة الاحشاء بالحروب الداخلية والخارجية المتضاعفة بالمنازعات الدينية .

« أما السطح الشمالي من الهضبة الآسيوية العالية التي هي في حوزة روسيا الآن فكانت غير معروفة على الإطلاق ،

« أما مملكة الفرس التي كانت أحوالها مرتبطة بأحوال الغرب وبخاصة من لدن تجريدة الاسكندر المقدوني فكانت مشتبكة في حرب مع اليونان الرومانيين في القسطنطينية الذين كانوا أصحاب السلطة على آسيا الغربية ،

« أما في أفريقيا فكان دخلاء اليونان الرومانيين أنفسهم وهم أخلاط من جنود وتجار وحكام بمجموعون من آفاق مختلفة دائبين على امتصاص دم مهر وعاملين على جعل مصر العلية ذات المجد القديم كالجثة المصبرة عادمة الحس والحراك . وكان هذا شأنهم أيضا في الأقاليم الخصبه وقتئذ الواقعة في الجهات الشمالية من أفريقيا التي انتزعوها من أيدي الفنداليين ،

« الخلاصة كان جو العالم الأرضي متلبداً بسحب الاضطرابات الوحشية في كل مكان . وكان اعتماد الناس على وسائل الشرا أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير وكان أجمع الرؤساء للثقة والطاعة أشدهم صيحة في إصلاء نيران الحروب والمعارك ولم يكن يأخذ بعواطف القلوب ولا يؤثر علمها تأثيراً حاداً وإن كان وقتها الا شيء واحد هو الغنيمه وسلب الأمم والشعوب والمدائن والأعيان ورجال الحروب وفقراء الحرائين بسطاء والمتساوين ولولا شعاع ضئيل من الحكمة كان يتأق في بعض صوامع الكهنة ، وبعض الجرائم الفاسفة التي كانت بمنزل عن أعاصير تلك المشاغب وانتقلت من روح إلى روح أخرى ؛ وساطة بعض أصحاب الجرأة من رسل الرقي في المستقبل لكانت البربرية أسرع في خطاها مقودة بغطرسة زعماء الههجية واستحالت الى وحشية شحنة

مع هذا كله كان هنالك ركن من أركان الأرض لم تصبه لفحة من هذه الحركة . ولكن لم يكن ذلك لحكمة أهله ورجاحة عقولهم وإنما كان بسبب موقعهم الجغرافي البعيد عن مضطرب الأمم التي كان يقسال أنها متمدنية .

ذلك الركن هو شبه جزيرة العرب التي ما كانت تسمع إنفجار أعاصير تلك الفتن الهائلة في أوربا إلا من بعد ما كان يصلها ذلك اللغظ إلاغاية في الضعف والضعف . وكانت تجهل وجرده الهند والصين فلم تك تتعدى علاقاتها مع آسيا حدود بلاد الفرس ولم تعرف لديها الفرس إلا من أخبار الانتصارات والهزائم التي كان من ورائها رد بعض الوديان الغربية القريبة من روسيا إلى تبعية امبراطرة القسطنطينية تبعية إسمية أو رفع نير تلك التبعية الإسمية عنها . على أن ذلك الوادي الأخير كان يهم بلاد العرب جداً لأن أبنائها كانوا يذهبون إليه للتجارة ، وكان لها فيه أبناء استعمروا الشاطئ الغربي من نهر الفرات وصعدوا يسيراً يسيراً إلى بحر قزوين وبما يشبه المسابير الدينية أنها بقيت منفصلة عن مصر التي أغار على جنوبها العرب الرعاة ولم ينجلوا عنها تماماً إلا بعد أن انجلى عنها بعض إخوانهم المتأخرين وهم الاسرائيليون تحت قيادة موسى حينما استرد المصريون السلطة وعاملوهم معاملة البهائم ،

أما المملكة الوحيدة التي كان بينها وبين العرب صلة وعلاقة فهي بلاد الحبشة . أما الجهة الشمالية من أفريقيا التي أغاروا عليها مرتين والتي كانت بجانبهم نقطة النزاع بين الرومانيين والقرطاجنيين وبين يونان القسطنطينية والفننداليين . فكانوا لا يحلمون بوجودها ،

ثم قال المسيو ( كوسان دوبرسو ) قال في كتابه تاريخ العرب :-

إن المتحضرين من عرب البحرين والعراق كانوا خاضعين للفارسيين أما المبتدون منهم فكانوا في الواقع أحراراً لا سلطنة لأحد عليهم وكان عرب سورية دائنين للرومان . أما قبائل العرب الوسطى والحجاز الذين ساد عليهم التبابعة وهم ملوك بني حمير سيادة وقتية فكانت تعتبر أنها تحت سيادة ملوك الفرس ولكنها في الواقع كانت متمتعة بالاستقلال الكامل ،

ثم تابع المسيو جول لا بوم القول فقال : ( ولم يكن العرب أحسن استعداداً من غيرهم لقبول أي دين من الأديان قال المسيو (دوزي) في كتابه تاريخ عرب أسبانيا : « كان يوجد على عهد محمد في بلاد العرب ثلاث ديانات : الموسوية . والعيسرية . والوثنية . فكان اليهود من بين أتباع هذه الأديان أشد تمسكاً بدينهم وأكثرهم حقداً على مخالفى ملتهم . نعم يندر أن تصادف اضطهادات دينية في تاريخ العرب الأقدمين وما وجد منه فنسب إلى اليهود وحدهم . أما النصرانية فلم يكن لها أتباع كثيرون . وكان المتمذهبون بها لا يعرفونها إلا معرفة سطحية . وكانت هذه الديانة تحتوي على كثير من الخوارق والأسرار بحيث يعز أن تسرد على شعب حى كثير الاستهزاء . أما الوثنيين الذين كانوا هم السواد الأعظم من الأمة فكان لكل قبيلة بل وأسرة منهم آلهة خاصة والذين كانوا يصدقون بوجود الله تعالى ويعتبرون تلك الآلهة شفعاء فقد كانوا يحترمون كهانهم وأصنامهم بعض الاحترام ولكنهم مع ذلك كانوا يقتلون الكهان إذا لم يتحقق أخبارهم بالمغيبات أولو عولوا على فضحهم عند لأصنام قربوا لها ظبية بعد أن ندروا لها نعجة وكانوا يسبون أصنامهم إذا لم تنلهم مطالبهم ولم تسعفهم بآمالهم »

وقال المسيو (كوسان دوبرسو) قال : « من العرب من كانوا يعبدون الكواكب وبخاصة الشمس فكانت تدين للقمر والدبران وبنو لخم وجرهم كانوا يسجدون للبشرى وكان الأطفال من بنى عقدة يدينون لعطارد وبنو طيء أهلوا سهيلا وكان بنو قيس عيلان يتوجهون للشعري اليمانية وكان عليهم بنا وراء الطبيعة على نسبة آرائهم الدينية »

وقال المسيو كوسان المذكور أيضاً « كان من العرب من يعتقد بفساء الانسان إذا خلعت المنون من هذا العالم . ومنهم من كان يعتقد بالانشور في حياة بعد هذه الحياة . فكان هؤلاء الآخرون إذا مات أحد أقرباهم يذبجون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعاً معتقدين أن الروح لما تنفصل من الجسد تشكل بصورة طير اسمه الهامة أو الصدى وهو نوع من البوم لا

شرب زرفرف بجانب قبر الميت نائمة ساجدة تأتيه بأخبار أولاده . فإذا كان  
الفقيد قتيلاً تصيح صدهاء قائلة ( اسقوني ) . ولا تزال تردد هذه الكلمة حتى ينتقم  
له أهله من قاتله بسفك دمه ،

قال المسيو لا بوم بعد إرادته هاتين العبارتين عن الأستاذين المذكورين  
وكانت طباع العرب وأخلاقهم لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لا  
يكادون يحوزون العقبة الأولى من عقبات الإجتماع . لو لم تكن الأسرة عندهم  
بل والقبيلة تهتم إهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها ولو لم يكن إدراكهم للقوانين  
وسعة لغتهم داعياً إلى الإلتفات بنوع خاص ،

ثم قال :- قال المؤلف المحقق الذي اقتبسنا منه أكثر هذه التفصيلات المتقدمة  
سكان العرب مغرمين بشرب الخمر ويوجد من الشعر ما يدل على أنهم كانوا  
يفخرون ويعجبون به وبلعب الميسر وكان من عوائدهم أن الرجل له أن يتزوج  
ما تسمح له به وسائله المعيشية . وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه . وكانت  
الأرملة تعتبر من ضمن ميراث زوجها . ومن هنا نشأت تلك الإرتباطات  
الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب وقد حرم ذلك الإسلام وعده زواجاً  
مفقوتاً . وكان لديهم عادة أفظع من كل ما مر وأشد معارضة للطبيعة وهي وأد  
الأهل لبناتهم أى دفنهم أحياء ،

هذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن بينهم أى جرثومة خلقية صالحة  
يمكن تقويمها وتهذيبها فقد كانوا يحبسون الحرية حباً جما ويمارسون فعائل  
السكرم وبذل القرى ،

الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا  
مبعثرين هنا وهناك من جزيرة العرب كانوا قليلى العدد جداً ولا يظهر أنهم كلفوا  
أنفسهم الدعوة إلى مللهم فاليهود الذين كانوا متشبعين بالآثرة على مثال الصينيين  
واليابانيين والمصريين لا يرى منهم إلى اليوم خاصة التأثير على غيرهم إلا بالخصوع  
لقوانين الأمة التى يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية ولئن شوهد أنهم  
أدخلوا إلى ملتهم بعض العرب فلم يك ذلك إلا نتيجة بسيطة لاشتراكهم فى

الأساطير التاريخية وهو إشتراك يدل على قرابة قريبة بين الأمتين تلك القرابة يستدل عليها أيضا بتساويهم في حب الكسب وتآزيمهم في الاستعداد لعدم الأنفة من سلوك أى طريق من الخيل والمسكر لنيل كسب أو حطام ولا ينتظر أن يكون من نتيجة الاجتماع بهذه الاعتبارات أدنى ترق أدنى أما المسيحيون فكانوا يغدون شيئا فشيئا إلى بلاد العرب هربا من الاضطهادات الدينية التي كانت في المملكة الرومانية . ولكن لم يكن في حالهم نور يلفت البصر تألقه وفي حالة مسيحي الحبشة اليوم نموذج لذلك . فإنه لا يمكن أن يتحلى الانسان بمدرجات العقائد السامية من دين بمجرد النسليم بنص تلك العقائد .

د في عهد هذه الأحوال الخالكة . وفي وسط هذا الجليل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله في ٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ م ، انتهى

وهكذا يرجع الباحث إلى التاريخ . وإلى مراحل التطور البشرى فيجد شهادة صادقة على معجزة هذا الدين وعبقريته وما كان يحمله من بذور التقدم وعناصر الحيوية والتحضر والارتقاء .

بل هكذا يرجع الباحث إلى المنطق وإلى العقل فيجد أن هذا الدين كان من ألزم اللوازم للإنسانية بعد ما بلغته من وعى وإدراك . وأنه في مبادئه وقواعده وتشاريحه كان يخاطب العقل والمنطق . وكان يحتفل بحياة الانسان فيقرر له النظم ، ويرسم له القواعد ويخطر به في حياته التي يحياها إلى أفق سامية من بحالى الرقى والتحضر .

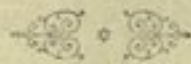
هذا الدين الذى آمن بالانسان وما كمن فيه من خير وامتيار فكان يخاطبه بالعقل والمنطق . ولم يجعل بينه وبين خالقه واسطة أو حاجزاً أو حائلاً . هذا الدين عندما يقف أمامه الفكر الحر . وعندما يحاول إدراك مغزاه الباحث التزيه وما كان يهدف له من مبادئ ويرمى إلى تحقيقه من مثل عليا لا يتمالك نفسه من أن يقرر في غير تحفظ بأن هذا الدين كان مكملًا فى الحقيقة لما سبقه من أديان سماوية وأن نزوله على بنى البشر كان من دلائل العبقريّة والاعجاز للدعوات الالهية .

فالديانة اليهودية لم تحتفل بالإنسانية في مجمرها ولم تنشئ التعاون أو العدل بين بنيها وغيرهم من الناس وإنما جعلت قومها هم شعب الله المختار لهم إمتيازات لا حق لغيرهم في التطلع إليها .

أما الديانة المسيحية فلم تحتفل إلا بالناحية الروحية في الانسان وكان من أخص خصائصها هـذا النظام الكهنوتي الذي استخدم هذا لاستخدام المسف البغيض فلم يعترف بالفرد ولا بالجماعة ولم يؤمن بالعقل ولا بالانسان من حيث هو كأن ممتاز .

أما الاسلام فلن نفسره بأكثر مما قاله مستشرق انجليزي يدين بالمسيحية قال (الاسلام مدنية كاملة لو وجدنا مقابلا له قلنا العالم المسيحي ولم نقل المسيحية) أو مما قاله شاعر الالماني بعد أن ألم بمبادئ الاسلام قال ( إذا كان هذا هو الاسلام أفلسنا كلنا ندين بالاسلام )

هذا الدين الذي اعترف بما سبقه من أديان سماوية وجاء جامعاً شاملاً لما سبقه ترقبه الانسانية ويتفق مع مقدار ما بلغته من نضج وإدراك من الانصاف والعدل أن تعترف بأنها كانت في أشد الحاجة إلى مبادئه ومادعائها إليه من رفعة وسمو وامتياز



## الاسلام بين الديانات

من الامور السهلة اليسيرة على الكاتب الذي يبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان أن يقف عند هذه المسكاة دون لف ودوران . ودون تأويلات وتخريجات ودون أن يحمل نفسه ويحمل قراءه معه مشقة الجدل وعسر الاستقصاءات لأن مكانة الاسلام بين الديانات المنزلة والديانات غير المنزلة ظاهرة ساطعة غاية في الوضوح والجلال .

وإذا كان علماء مقارنة الأديان يقررون أن الأديان جميعها يجمعها رباط واحد وتستمد وجودها وحياتها من نبع واحد وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيثار ورحمة للإنسان حتى أن الدوس هكسلي الفيلسوف الأنجليزى المتصوف يقرر في كتابه الفلسفة الدائمة أن الأديان جميعها تهدف إلى تحقيق هذه الرحمة والايثار للناس جميعا لأن الاسلام يقول ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ) والمسيحية تقول (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) واليهودية تقول ( لا توقع ما يؤذيك بالناس ذلك هو لب التوراة وبقية تعليقات ) والبوذية تقول ( لا تفرض على الناس ما يؤلمك ) والكونفوشية تقول ( لا تنزل بالناس ما لا تحب أن ينزلوه بك ) والهندوسية تقول ( لا تحدث بالناس ما قد يسبب لك الألم إذا حدث لك ) انتهى

ولكن ذلك كله لن يحملنا على أن نصدق أن الأديان جميعها صور مكررة في جوهرها ومبادئها ومناهجها ودعواتها لشيء واحد لأن ذلك يقتضينا أن نلغى التاريخ وأن نلغى سنة التطور البشرى بل نلغى عقولنا فلا نستطيع أن نحكمها فيما كانت تستسيغه البشرية وتهضمه في طور من حياتها بعد طور آخر ومن تطور في الوعى والادراك إلى تطور نحو المعرفة والنضوج العقلى .

وأصدق ما نقره في هذا الموضوع أننا لا نستطيع أن نغفل عن مراحل



التطور البشرى إذا أردنا أن ندرس تاريخ تطور الأديان وما تحمله من مبادئ، ونظم وعقائد وآراء لأن هذه الأديان وصفاتها تسير جنباً إلى جنب مع المراحل التي كان يجتازها البشر في طريق تمقلهم وتحضرهم .

واقدر اصطلاحنا نحن هذا الأسلوب العلمى المعتمد على التاريخ في بحثنا عن كيفية تطور العقيدة في الانسان في فصل سابق في هذا الكتاب وهو (هل الدين لازم للبشر) واستنتجنا معتمدين في ذلك على الأساطير وعلى التاريخ: إستنتجنا أن العقيدة كانت تشكل في الانسان وتتميز فيه مع مقدار ما بلغه من وعى ورقى وإدراك . وإذا فلا مفر لنا عندما نبحث عن مكانة الاسلام بين الأديان من أن نتعرض لدراسة البيئات التي أنزلت فيها هذه الديانات وأن نتخلل صفورها وتنعمق إلى أغوارها لنستظهر ما كان يسودها من تقاليد وعادات وأخلاق وما كان يختمر فيها من جراثيم التقدم والرقى ، والتعطش إلى إدراك نواح جديدة من المعرفة الانسان .

وإذا كنا سنتكلم في هذا الفصل عن مكانة الاسلام بين الأديان فليس علينا من حرج في أن نختصر الكلام على الديانة اليهودية والمسيحية فقط وذلك لسببين وجيهين (أولاً) لوفرة البيانات الوضعية وتشعبها وكثرتها كثرة ساحقة وعدم حصرها والامام بها جميعها لضيق أكر أصرها ومعالمها ولأن واحدة من هذه الديانات لم يعترف بها كدين عالمى مثل الأديان الكتابية (ثانياً) لأن الاسلام دين سماوى ومقتضيات البحث تفرض علينا أن نقارنه بأديان سماوية حيث يتوفر التشابه والتكافؤ والعدل في ميزان المقارنة .

وعلى ضوء ذلك سنتعرض أولاً لدراسة الديانة اليهودية ثم الديانة المسيحية ثم نقارنها بعد ذلك بالاسلام .

وأول شيء يذنبني أن نلاحظه عند دراسة الديانة اليهودية أنها أول ديانة كتابية نادى بالتحديد الصحيح . ولكنها كانت مصطبغة بما كان يطغى على ضمير العالم حينذاك من حب للمعصب والسيطرة ومن إشادة عمداً الاثرة والانانية والقوة وحب الانتقام .

وإذا كانت الديانة اليهودية تنتمي إلى إبراهيم عليه السلام ومن بعده اسحاق ويعقوب ويوسف ومن دعوة هؤلاء جميعا عبادة الله الواحد الأحد فإن ذلك لم يعصم اليهود من أن تتغلب عليهم نزعة عبادة الأوثان فعبدوا عجل الذهب في صحراء سيناء بعد أن استقدمهم يوسف إلى مصر وتكفل الوطنيون المصريون ضدهم واضطهدوهم حتى خرج بهم موسى عليه السلام إلى أرض سيناء وأرسله الله إليهم وأزل عليه ألواح الوصايا العشر التي تعتبر زبدة التوراة .

والظاهرة العجيبة التي يراها الباحث في الديانة اليهودية أنها ديانة محلية قاصرة على بني إسرائيل وخدمهم باعتبارهم كما يزعمون (شعب الله المختار) وأنها يسودها وتتغلب عليها روح الحرب والبطش وسفك الدماء حتى وصفوا إليهم بما كان ينطبع في نفوسهم ويتحكم في عقولهم وأخلاقهم ونظرهم للحياة من أنه غيور شديد المقت سريع الغضب متعطش إلى سفك الدماء .

وهذا يثبت لنا بوضوح ما ذهبنا إليه من أن للديانات تفسر على ضوء ما بلغته الأمة من وعى وتطور وإدراك .

وغاية ما نقوله في موضع دراسة الديانة اليهودية وفي البيئته التي بعثت فيها أن تشريعها ونظمها وتعاليمها التي دعت إلى الأخذ بها والعمل بمقتضاها لم تكن عامة للإنسانية جميعاً ليراعى فيها تعدد البيئات والجنسيات وسنة التطور والوعى العام وإنما كانت هذه التشريعات والتعاليم والنظم خاصة ببني إسرائيل وخدمهم وهي صريحة في ذلك ككل الصراحة متعصبة من أجل ذلك كل التعصب .

والذي نلاحظه أيضاً أنها كانت بمثابة ارهاص لغيرها من الديانات الآتية لمعرفة التوحيد الصحيح وأنها كانت بمثابة فلسفة تقريرية تلون اتباعها بلون جديد وتوجههم نحو طريق مرسوم يحتاج إلى تكملة وإلى امتداد واتصال ولذلك ظل بنو إسرائيل ينتظرون ديانة أخرى تكمل ما بدءوه وتوضح ما آمنوا به . بل لذلك نرى أن هذه الديانة لم تنطبع في نفوسهم بطابعها الصحيح وإنما هم

قد عبدوا الأوثان بعد دعوة أنبيائهم لهم بالتوحيد الصحيح ولم يخلصوا من عبادتها إلا حين بعث الله فيهم موسى عليه السلام وان كانت عبادتهم لله الواحد الأحد لم تستقم على وجهها الصحيح الذي دعاهم إليه موسى عليه السلام لأنهم وصفوا الله بأوصاف ليست من دعوة نبيهم في شيء ولا تتفق مع وحدانيته سبحانه وتعالى فلقد وصفوه بما كان يتفق وإدراكهم ونظرتهم للحياة وما طبع في نفوسهم من حب للحرب والصراع والغيرة والانانية .

والذي هو جدير بالملاحظة بعد ذلك أن بني إسرائيل بعد أن استولت عليهم فكرة دخول أرض الميعاد والسيطرة على العالم لم يلبثوا أن دخلوا أرض الميعاد حتى نازع بعضهم بعضاً السلطان وحتى كاد بعضهم لبعض وقام بينهم صراع نبه إليهم المواطنين من الأمم الأخرى الذين يعمرون هذه الأرض فاتحدوا ضدهم وقامت بينهم حرب شديدة حتى استطاع طيطس في النهاية أن يغلبهم على أمرهم وأن ينتقم منهم انتقاماً مرأقاسياً فعمل على تشتيتهم في جميع أنحاء الأرض ومنذ ذلك الوقت لم تقم لهم دولة أبداً .  
وقد جاء في مقدمة ابن خلدون ما يلي :-

د بقى بنو إسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليها نحو أربعائة سنة لا يعترفون بشيء من أمر الملك إنما همهم إقامة دينهم فقط وكان القسام به بينهم يسمى الكوهن كأنه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والقربان ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هارون صلوات الله عليه لأن موسى لم يعقب ثم اختاروا لإقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخاً كانوا يتلون أحكامهم العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شعب الأحكام واتصل ذلك فيهم إلى أن استحكت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة لذلك فغلبوا الكنعانيين على الأرض التي أورشليم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات الله عليه فخارتهم أمم الفاسطين والكنعانيين والآرمن وأردن وعمالق ومارب ورتاستهم في ذلك راجعة إلى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحو من أربعائة سنة ولم تكن لهم صولة الملك

وضجر بنو طالوت وغلب الأمم وقتل جالوت ملك الفلسطينيين ثم ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليها واستفحل ملكه وامتد إلى الحجاز ثم أطراف اليمن ثم إلى أطراف بلاد الروم ثم افتزق الأسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه بمقتضى العصبية في الدول كما قدمناه إلى دولتين كانت إحداهما بالجزيرة والموصل للأسباط العشرة الأخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم بخت نصر ملك بابل على ما كان بأيديهم من الملك أولا الأسباط العشرة ثم ثانيا بني يهوذا وبيت المقدس بعد انصال ملكهم نحو ألف سنة وخرّب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات دينهم ونقلهم إلى أصهاران وبلاد العراق إلى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من الفرس إلى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم على الرسم الأول للسكينة فقط والملك للفرس ثم غلب الإسكندر وبنو يونان على الفرس وصار اليهود في مملكته ثم فشل أمر اليونانيين فاعتز اليهود عليهم بالعصبية الطيبة ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم السكينة الذين كانوا فيهم من بني حشمناي وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا إلى بيت المقدس وفيها بنو هيردوس أصهار بني حشمناي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة ثم افتتحوها عنوة وأخشروا في القتل والهدم والتحريق وخرّبوا بيت المقدس وأجلوهم عنها إلى رومة وما وراءها وهرّ الخراب الثاني للمسجد ويسميه اليهود بالجلوة الكبرى فلم يبق لهم بعدها ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في مملكة الروم من بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس عليهم المسمى بالكوهن ،

ولقد تكلم الأستاذ محمد غلاب في كتابه (الفلسفة الشرقية) عن الديانة اليهودية متعرضاً لدراستها مسهباً في شرح أغراضها وما كونه من فلسفة مقارناً ذلك بما سبقها من فلسفات شرقية أخرى وبما أتى بعدها من ديانات سماوية كالدين الإسلامي مثلاً قال الأستاذ غلاب :-

« إن الاستنار الخمسة المنسوبة إلى موسى عليه السلام والتي اصطاح المسيحيون على تسميتها بالعهد القديم وهي : سفر التكوين - وسفر الخروج - وسفر

الليفيين - وسفر العدد - وسفر التثنية .

ولقد أجمع المؤرخون على أن موسى لم يكتب هذه الأسفار وإنما كتبت بعد موته بعدة قرون، لا تعرف بالضبط كما لا يعرف كاتبها الحقيقي وقد ذهب بعضهم إلى أنه بنى فيها حوالى القرن الثامن أو السابع وأنها لم تتم إلا فى القرن الخامس وأن بعضها لهذا قد أصابه التأثير البابلى لأنه كتب بعد المنفى ، ثم تابع الأستاذ غلاب كلامه فقال :-

• إذا تصفحنا الأسفار الموسوية الخمسة لم نجد فيها أثرًا لخلود النفس ولا للحياة الأخرى على النحو الذى نجده مثلاً فى القرآن يصور لنا (أن كل نفس بما كسبت رهينة وأن لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فإن تعمل فى الدنيا مثقال ذرة من خير أو شر تره فى الآخرة مماثلاً لما عملته تماماً وإنما ترى جميع الموتى عند العبرانيين تكسب أشباحهم فى مكان مظلم سحيق يطلق عليه اسم شؤول على نحو الجحيم العام الذى أشرنا إليه حين عرضنا للديانة الكلدانية وأدهى من ذلك أننا إذا تصفحنا الدعاء الذى وجهه الملك (إزيكياس) وهو مريض إلى إلهه وجدناه يقول له فيه (اشفىنى) لأنه ليس شؤول ، هو الذى يمدحك ولا الموتى هم الذين يثنون عليك فإن الذين ينزلون فى الحفرة لا يعتمدون على وفائك وإنما الأحياء هم وحدهم الذى يمدحونك كما أفعل أنا اليوم .

ولا ريب أن هذا مصير ساذج لا يتعلق مع تقدير الفرق بين الأخيار والشريرين ولا مع العدالة الإلهية التى ينبغى أن تثيب الأولين وتعاقب الآخرين على أفعالهم وهو - فوق ذلك - جانب نقص هام فى الفلسفة العبرانية يفقدها ناحية من أخطر نواحيها وينزلها إلى مصاف الفلسفات الأولية الساذجة .

ولقد جاء فى كتاب (الملل والنحل) للشهرستاني وصف لليهود وتحقيق لما كانوا عليه ونحن تثبته فيما بلى (اليهود خلاصة هاد الرجل أى رجوع وتاب وإنما لزمهم هذا الاسم لقرول موسى عليه السلام (إنا هدنا إليك) أى رجعنا وتضرعنا وهم أمة موسى وكتابهم التوراة وهو أول كتاب نزل من السماء أعنى أن ما كان نزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء ما كان يسمى كتاباً بل صحفاً وقد

ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ، ان الله تعالى خاق آدم بيده وخلق جنة عدن بيده وكتب التوراة بيده ، فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب وقد اشتمل ذلك على أسفار فيذكر مبتدأ الخاق في السفر الأول ثم يذكر الأحكام والحدود والأحوال والقصص والمواعظ والاذكار في سفر سفر وأنزل عليه أيضاً الألواح على شبه مختصر ما في التوراة يشتمل على الأقسام العلية والعملية قال عز ذكره ( وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة ) إشارة إلى تمام القسم العلي وتفصيلاً لكل شيء إشارة إلى تمام القسم العملي .

قالوا كان موسى قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه من بعده ليفضى إلى أولاد هارون لأن الأمر كان مشتركاً بينه وبين أخيه هارون إذ قال ( واشركه في أمري ) وكان هو الوصي فلما مات هارون في حياته انتقلت الوصاية إلى يوشع بن نون وديعة فليوملها إلى شبير وشبر ابني هارون قراراً وذلك أن الوصية والامامة بعضها مستقر وبعضها مستودع . واليهود تدعى أن الشريعة لا تكون إلا واحدة وهي ابتدأت بموسى وتمت به فلم يكن قبله شريعة إلا حدود عقلية وأحكام مصلحية ولم يجزوا النسخ أصلاً قالوا فلا يكون بعده شريعة أخرى لأن النسخ في الأوامر بداء ولا يجوز البداء على الله ومسائلهم تدور على جواز النسخ ومنعه وعلى التشبيه ونفيه والقول بالقدر والجبر وتجويز الرجعة وإحالتها أما النسخ فكما ذكرنا وأما التشبيه فلأنهم وجدوا التوراة ملئى من المتشابهات مثل الصورة والمنشأفة والتكلم جهراً والنزول عند طور سيناء انتقالاً والاستواء على العرش استقراراً وجواز الرؤية فرقاً وغير ذلك وأما القول بالقدر فهم مختلفون فيه حسب اختلاف الفريقين في الإسلام فالرأبانيون فيهم كالمعتزلة فينا والقراءون كالمجبرية والمشبهة وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين أحدهما حديث عزيز إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه والثاني حديث هارون عليه السلام إذ مات في القبة وقد نسبوا إلى موسى قتله . . . قالوا حسده لأن اليهود كانت إليه أميل منهم إلى موسى

واختلفوا في حال موته فمنهم من قال مات وسمير جمع ومنهم من قال غاب  
وسير جمع واعلم أن التوراة قد اشتملت بأسرها على دلالات وآيات تدل على  
كون شريعة المصطفى عليه السلام حقاً وكون صاحب الشريعة صادقاً بله ما  
حرفه وغيره وبدلوه إما تحريفاً من حيث الكتابة والصورة وإما تحريفاً من  
حيث التفسير والتأويل وأظهرها ذكره إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل  
ودعاؤه في حقه وفي ذريته وإجابة الرب تعالى إياه ، أنى باركت على اسماعيل  
وأولاده وجعلت فيهم الخير كله وسأظهرهم على الأمم كلها وسأبعث فيهم رسولا  
منهم يتلو عليهم آياتي ،

واليهود يعترفون بهذه القصة إلا أنهم يقولون أجابه بالملك دون النبوة  
والرسالة . وقد ألزمتهم أن الملك الذي سلمتم أهو ملك بعدل وحق أم لا . فإن  
لم يكن بعدل وحق فكيف يمن على إبراهيم بملك في أولاده هو جور وظلم  
وان سلمتم العدل والصدق من حيث الملك فالملك يجب أن يكون صادقاً على الله  
تعالى فيما يدعيه ويقوله وكيف يكون الكاذب على الله تعالى صاحب عدل وحق  
إذ لا ظلم أشد من الكذب على الله تعالى ففي تكذيبه تجويزه وفي التجويز رفع  
المنة بالنعمة وذلك خلف .

ومن العجب أن في التوراة أن الأسباط من بني اسرائيل كانوا يراجعون  
القبائل من بني اسماعيل ويعلمون أن في ذلك الشعب علما لدنيا لم تشتمل التوراة  
عليه وورد في التسوار يخ أن أولاد اسماعيل كانوا يسمون آل الله وأهل الله  
وأولاد اسرائيل آل يعقوب وآل موسى وآل هارون وذلك كسر عظيم .

وقد ورد في التوراة أن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر بساعير وعلن  
بفاران وساعير جبال بيت المقدس الذي كان مظهر عيسى عليه السلام وفاران  
جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم ولما كانت الأسرار  
الإلهية والأنوار الربانية في الوحي والتنزيل والمجيء أشبه بالمبدأ والظهور بالوسط  
والاعلان بالكمال عبرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل بالمجيء على  
ظهور سيناء وعن طلوع الشمس بالظهور على ساعير وعن البلاغ إلى درجة

السكال والاستواء بالاعلان على فاران وفي هذه الكلمة اثبات نبوة المسيح والمصطفي عليه السلام وقد قال المسيح في الانجيل ( ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأقول إذا لطمك أخوك على خدك الأيمن فأدرله خدك الأيسر )

والشريعة الاخيرة ( يعني شريعة الاسلام ) وردت بالأميرين جميعاً أما القصاص ففي قوله تعالى ( كتب عليكم القصاص ) وأما العفو ففي قوله ( وأن تعفوا أقرب للتقوى ) ففي التوراة أحكام السياسة الظاهرة العامة وفي الانجيل أحكام السياسة الباطنة الخاصة وفي القرآن أحكام السياستين جميعاً ، ولكم في القصاص حياة ، إشارة إلى تحقيق السياسة الظاهرة ، خذ العفو وأمر بالمعروف واعرض عن الجاهلين ، إشارة إلى تحقيق السياسة الباطنة الخاصة وقد قال عليه السلام « هو أن تعفو عمن ظلمك وتعطي من حرمك وتصل من قطعك ، انتهى ولعلنا بعد ذلك نكون قد وفقنا إلى أن نعطيك صورة صحيحة عن الديانة اليهودية وعن الظروف التي أحاطت بها وعن البيئة التي نبتت فيها وعمما اكتنفها بعد ذلك من عقائد ومبادئ في هذا القدر الضيق الذي سمح به الموضوع والذي سمحت به عدد صفحات الكتاب وليس يعنيننا شيء بقدر ما يعنيننا أن نعرف مكانة الإسلام من هذه الديانة . وأن نحاول أن نوجد مقارنة صحيحة لما بينهما من تشابه ولما بينهما من فروق واختلافات ولكننا سنرجع هذه المقارنة إلى أن نتحدث عن الديانة المسيحية وأن نلم بالبيئة التي احتضنتها وبالتطورات التي أتت نتيجة لها .

ظهرت المسيحية في أول أمرها ضعيفة مضطهده ضئيلة الشأن وإن كان قد سبق ظهورها وجود فلسفة حية قوية اصطنعها فلاسفة من اليهود تبحت في الروحانيات وتؤمن بحقيقتها ووجودها إلا أن وجود هذه الفلسفة لم تكن من العوامل التي ساعدت على نشر دعوة المسيح الروحانية ولم تحل دون اضطهاده وتشديت أتباعه وذلك لأن المسيح جاء يدعو بني إسرائيل إلى ديانة جديدة تخالف ديانتهم



العبرانية في الجهر والمظهر والروح وإن كانت لم تعمل على بطلانها قال المسيح لليهود ( ما جئت لأبطل التوراة بل جئت لأكملها قال صاحب التوراة النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والجروح قصاص وأنا أقول إذا لطمك أخذك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر ) وقال لهم أيضاً ( أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس أنظروا إلى طيور السماء إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن وأبوك السماوي يقوتها أستم أنتم أحرى بالتمفضل عليها . من منكم إذا أهتم يستطيع أن يزيد على ما قدر ذراعاً واحدة . تأملوا زنايق الحقل كيف تنمر وهي لا تعب ولا تغزل وسليمان في كل مجده لا يلبس كواحدة منها فإن كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله ذلك اللباس أفليس أحرى أن يلبسكم أنتم يا قليلي الايمان )

وعلى هذا النمط من الايثار ومن الروحانية الصافية الخالصة كان المسيح يخاطب بني إسرائيل وكان يحاول أن يلغى من نفوسهم الأثرة والأنانية وحب الذات وهذا التعصب الأعمى حتى في العبادة وحتى في وصفهم للإله لانهم كانوا كما قال الاستاذ العقاد في كتابه الله ( كانت للشعوب آلهة يؤمن الاسرائيليون بوجودها ولكنهم يحرمون عبادتها كتحريم الانتساب إلى دولة أجنبية قرب الشعب أحق بولائه وعبادته من الأرباب الأخرى )  
وكما قال أيضاً :-

« وظلوا إلى ما بعد أيام موسى عليه السلام ينسبون إلى الإله أعمال الانسان وحركانه فذكروا أنه كان يتمشى في الجنة وأنه يصارع ويأكل ويشرب ويغشى مركبات الجبال وأنه دفن حينما مات في موآب »  
وكما قلنا في أول هذا الفصل وفي الفصل الذي قبله من أنه ينبغي لمن يتعرض لدراسة الديانات ومراحل تطورها أن لا يغفل البتة عن مراحل التطور البشري كذلك . لان التطور في الاثنين يسير جنباً لجنب فلا يكادان ينفصلان ولا يختلفان . . . ويصح لنا أن نقول هنا ان هذه الظاهرة في وجود

الدعوة المسيحية محققة من غير شك لأنها جاءت عامة مصححة للدعوة اليهودية عاملة على إيجاد نوع من الارتباط والتعاون الانساني ونكران الذات وحب الالتفاف . فلقد قامت الأخلاق اليهودية والفلسفة العبرية على أسس من الانانية . ومن المصالح الشخصية ومن حب المادة والتكالب عايمها بكافة الوسائل وبشتى السبل وكان العالم في طريقه نحو الرقي بل ~~كان~~ علماء اليهود أنفسهم يحسون بأنهم في حاجة شديدة إلى دعوة أخرى ترشدكم الى طريق الحق والى سوله السبيل .

ونزلت الديانة المسيحية بقوانين أخلاقية جديدة مخالفة كل المخالفة لأخلاق اليهود ونزعاتهم وتفكيرهم فأمن بها أول الأمر أقلية منهم شأن كل دعوة جديدة تخالف ما ألفه الناس من تقاليد وعادات وأخلاق ورثوها عن آباؤهم وأجدادهم وإن كانت تحس في قرارة نفسها بأن الدعوة الجديدة حق وخير وصدق إلا أن الطبيعة البشرية من العسير عليها أن تنفض عن نفسها أثر العادات والتقاليد التي ورثتها عن آباؤها وأجدادها ونشئت عليها من طفولتها وانطبعت في نفوسها وترعرعت وهي ترعاها وتعمل بمقتضاها .

نعم من العسير على الطبيعة البشرية أن تلغى كل طفرة واحدة وفي غمضة عين واتبهاها وبمجرد وصول الدعوة إليها ومخاطبتها لها عن طريق العاطفة أو العقل وعندنا أكبر شاهد على ذلك وهو موقف عمر بن الخطاب من الاسلام في أول الأمر ومخاصمته له خصاماً عنيفاً شديداً وثورته عليه ثورة طاغية كان يخشاها كثير من المسلمين ثم موقفه منه بعد أن فهم الاسلام على حقيقته وآمن به واتبع هداه وكان أكبر سند له وأعظم مجتهد فيه وثاني الخلفاء الراشدين بعد النبي عليه السلام .

ولو تعمقنا في البحث في أصول هذه الديانة المسيحية الهادئة في المظهر والمسالمة في الطبيعة لوجدناها كانت ثورة عنيفة خطيرة هزت الانسانية من أساسها وعملت على تحطيم قواينها التربوية والأخلاقية التي اصطلحت عليها أجيالا بعد أجيال وتهادنت على العمل بها من أزمان غابرة سحيقة في البعد .

والمنصف في الحكم على الأشياء والنفسيات والحوادث لا يتوانى لحظة عن أن يقرر في ثقة وقوة بأن هذه الديانة بمبادئها الروحية الخالصة كانت من ألزم اللوازم للإنسانية في مرحلتها تلك . وكانت تتفق مع طريق تطورها وسيرها نحو الرقي والنهوض لأن المسيحية جاءت وقد سبق مجيئها ، مذاهب عديدة للفلسفة ، وتشريعات قانونية في غاية من الاجتهاد تنظم حقوق الأفراد والجماعات وواجباتهم نحو أنفسهم ونحو الدولة ثم ما بيدهم بعد ذلك من علاقات .

نعم جاءت المسيحية فوجدت العالم لا تنقصه تنظيم وسائله المادية التي برع فيها واجتهد ووجد ما تنقصه بواعث الروحانية التي كان ضاربا بينه وبينها سدا منيعا وحائلا لا يمكن أن يقتحم وإن كان يلوح له أنه في حاجة شديدة ملحة إليها فأنجحت بكل قواها إلى إحياء المبادئ الروحية في الانسان ، وحاوات بكل ما تستطيع من وسائل أن تقيم دعائم الناموس وأسس الدعوة الإلهية على قواعد صحيحة ، وأن تكيف ذلك كله بما كان يتفق وطبيعة الأشياء لأن. التغالي والاسراف في المادية يستتبع حتما التغالي والاسراف في الروحية ليتلاقيا في النهاية مع بعض ويسيرا نحو الغاية جنبا إلى جنب .

وهكذا جاءت الديانة المسيحية لتعالج المشكلة الانسانية من ناحيتها الطبيعية فكانت كما قلت ثورة على قوانينها الأخلاقية وما اصطنعته لنفسها من تقاليد وعادات كلها ترمي إلى تحبيذ شريعة الغابة حيث كل شيء القوي ولا شيء للضعيف حتى أننا نجد القانون الروماني وإن كان من غير شك قد أخذ بيد الانسانية إلى الأمام وقد عمل على وجود شيء من العدالة وتنظيم الحقوسق والواجبات بين الناس بعضهم بعضا إلا أنه كان يحتفظ بحقوق خاصة لطبقة من الناس دون طبقة أخرى وكان يشرع الاستعمار والاستعباد ولم يكن يؤمن بالتساوي بين الدولة الرومانية وغيرها من الأمم الأخرى .

فلما جاءت المسيحية لا تقر هذا الوضع وتؤمن بالتساوي في الحقوسق والواجبات وفي كل شيء آخر حدث بينها وبين هذا القانون اصطدام أدى إلى انكشافه .

والخلاصة التي نخرج بها من دراستنا للديانة المسيحية أنها نشأت في أول  
أمرها ضئيلة نحيلة اعتنقها أفراد معدودون من اليهود ولما توالى عليهم  
الاضطهادات في ديارهم هاجر فريق منهم إلى الإسكندرية حيث اتصلوا بمدرستها  
الشهيرة فتأثروا بها وأخذوا عنها وكونوا لهم فلسفة خاصة وذهب بعضهم الآخر  
إلى روما حيث أخذوا يعملون على نشر الدعوة التي كانت قاصرة على اليهود في  
أول الأمر حتى دعا القديس بولس الرسول غيرهم من الناس إلى دخولها بنفس  
الامتيازات والحقوق التي لليهود وقد اعتنقها من الرومانيين أناس معدودون  
أيضا كانت تتوالى عليهم الاضطهادات المروعة والتعذيب الوحشي كأشجع ما  
يتصور الانسان ولكن ذلك لم يمنع هذه الديانة من الانتشار ولم يفك في عضد  
المؤمنين بها فظلوا على عقيدتهم متمسكين بها داعين غيرهم من الناس إلى الايمان  
بها حتى أضحت الكثرة الساحقة من الرومانيين من المؤمنين بها العاملين لها بما حمل  
الامبراطور اغسطنطين ، إلى أن يعلن المسيحية ديناً رسمياً للدولة وحمل الناس  
على الإعتقاد والإيمان بها بالحديد والنار وبوسائل غاية في الوحشية والقسوة .  
ومن هنا تلونت المسيحية بلون جديد ، وأخذت تنظبع فيها كل ظاهرة  
من ظواهر الاجتماع والتفكير الروماني وحاولت أن تلون أصول القانون  
الروماني بلونها وقد نجحت في ذلك بعض الشيء ولكنها اصطدمت به آخر  
الأمر وقضت عليه قضاء لا تسامح فيه .  
وإذا كانت الديانة اليهودية بل حتى الديانات الوضعية لم تخل من النظام  
والكثرتي ، إلا أن المسيحية قد أخذت بهذا النظام وأسرفت في الأخذ به  
غاية الاسراف حتى أن البابا كان يلعب نفسه بأنه يمثل الله على الأرض وكان  
يئده منح الثواب والعقاب وأعطى لنفسه السلطة على كل شيء لا يختص بالدين  
وحده وإنما يختص بكل الأمور الدنيوية أيضاً وأضحت الديانة المسيحية التي  
كانت مسالمة بطبيعتها رحيمة في نفسها ، أضحت كنظام دكتاتوري قاس لا يعرف  
هراة ولا رحمة ولا رفقا ، وأصبح البابا وحاشده أشبه بالقيصرة في رفهم  
وتكالبهم الشديد على اقتناء القصور والضياع وارتجاع المال من أي سبيل وذلك

لاشباع شهواتهم النهمة الجائعة مخالفين في ذلك قول المسيح عليه السلام ، الحق  
أقول لكم لأنه يعسر أن يدخل غني ملكوت السموات . وأقول لكم أيضا  
إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غني إلى ملكوت الله ،  
وظل الحال على ذلك ولم تستطع المسيحية أن تخفف بعض الشيء من تعنت  
البابا وقسيسيه إلا بعد أن طالب البروتستانت ، بإبطال السلطة على غفران  
الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الآخروية وإبطال عبادة الصور .  
ونحب قبل أن نترك موضوع الديانة المسيحية لننتقل بك إلى دراسة الاسلام  
أن نقرئك ما قاله ، الشهر ستاني ، في كتابه الملل والنحل عنها قال :-  
والنصارى أمة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وهو المبعوث حقا بعد  
موسى عليه السلام المبشر به في التوراة وكانت له آيات ظاهرة وبيئات زاهرة  
مثل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأرص ونفس وجوده وفطرته آية كاملة على  
صدقه وذلك حصوله من غير نطفة سابقة ونطقه من غير تعليم سالف وجميع  
الأنبياء بلاغ وحيمهم أربعون سنة وقد أوحى إليه انطافا في المهد وأوحى إليه  
ابلاغاً عند الثلاثين وكانت مدة دعوته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام  
ولما رفع إلى السماء اختلف الحواريون وغيرهم فيه وإنما اختلفاتهم تعود إلى أمرين  
أحدهما كيفية نزوله واتصاله بأمه وتجدد الكلمة والثاني كيفية صعوده واتصاله  
بالملائكة وتوجد الكلمة أما الأول فقضوا بتجدد الكلمة ولهم في كيفية  
الانجساد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد اشراق النور على  
الجسم المشف ، ومنهم من قال : انطبع فيه انطباع النقش في الشمعة ، ومنهم  
من قال : ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني ، ومنهم من قال : تضرع اللاهوت  
بالباسوت ، ومنهم من قال : ما زجت الكلمة جسداً المسيح بما زجه اللبن الماء  
وأثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة : قالوا الباري تعالى جوهر واحد يعنون به القائم  
بالنفس لا التحيز والحجمية فهو واحد بالجوهرية ثلاثة بالاقنومية ويعنون  
بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم والادب والابن وروح القدس وإنما  
العلم تضرع وتجدد دون سائر الأقانيم وقالوا في الصعود أنه قتل وصلب . قتله

اليهود حسداً وبعياً وانكاراً لنبوته ودرجته ، ولكن القتل ما ورد على الجزء  
اللاهوتي وإنما ورد على الجزء الناسوتي : قالوا وكال شخص الإنسانى فى ثلاثة  
أشياء نبوة وإمامة وملكية ، وغيره من الأنبياء كانوا موصوفين بهذه الخصال  
الثلاث أو ببعضها والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الإبن الوحيد فلا  
نظير له ولا قياس له إلى غيره من الأنبياء وهو الذى به غفر زلة آدم عليه السلام  
وهو الذى يحاسب الخلق . ولهم فى النزول خلاف فمنهم من يقول ينزل قبل يوم  
القيامة . كما قال أهل الاسلام ، ومنهم من يقول لا نزول له إلا يوم الحساب .  
وهو بعد أن قتل وصلب نزل ورأى شخصه شمعون الصفا فكلمه وأوصى  
إليه ثم فارق الدنيا وصعد إلى السماء وكان وصية شمعون الصفا وهو أفضل  
الحواريين علماً وزهداً وأدباً غير أن ( فولوس شوش ) أمره وصير نفسه  
شريكاً له وغير أوضاع عليه وخلطه بكلام الفلاسفة ووسوس خاطره .  
ورأيت رسالة لفولوس ، كتبها إلى اليونانيين : إنكم تظنون أن مكان  
عيسى عليه السلام كما كان سائر الأنبياء وليس كذلك بل إنما مثله مثل  
« ملكيز داك » وهو ملك السلام الذى كان إبراهيم عليه السلام يعطى إليه  
العشور فكان يبارك على إبراهيم ويمسح رأسه ، ومن العجب أنه نقل فى  
الإنجيل أن الرب تعالى قال إنك أنت الوحيد ومن كان وحيداً كيف يمثل  
بواحد من البشر ثم إن أربعة من الحواريين اجتمعوا وجمع كل واحد منهم  
جمعاً للإنجيل وهم « متى . ولوقا . ومارقوس . ويوحنا » وخاتمة إنجيل متى أنه قال  
« إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبى إليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم بإسم الرب  
والابن وروح القدس ، وفتحوا إنجيل يوحنا ، على التقديم الأزلى قد كانت  
الكلمة وهو ذا الكلمة . كانت عند الله والله هو كان الكلمة . وكل  
كان بيده ، انتهى

وكتب ابن خلدون فى مقدمته وصفا للمسيحيين نعتقد أن فى قراءته وفى

الإمام به بعض الفائدة ونحن تثبته لك فيما يلى :-

جاء المسيح صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به « أى اليهود » من

الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من إبراء الآكمة والأبرص وإحياء الموتى واجتمع عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الخواريون من أصحابه وكانوا اثني عشر وبعث منهم رسلا إلى الآفاق داعين إلى ملته وذلك أيام أوغسطس أول ملوك القياصرة وفي مدة هيروودس ملك اليهود الذي انتزع للملك من بني حشمناي أصهاره فحسده اليهود وكذبوه وكان هيرودس ملك القياصرة أوغسطس يغريه به فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الخواريون شيعا ودخل أكثرهم بلاد الروم داعين إلى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم فنزل برومة دار ملك القياصرة ثم كتبوا الإنجيل الذي أنزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ أربع على اختلاف رواياتهم فكتب متى إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن زبدي منهم إلى اللسان اللاتيني وكتب لوقا منهم إنجيله باللاتيني إلى بعض أكابر الروم وكتب يوحنا بن زبدي منهم إنجيله برومة وكتب بطرس إنجيله باللاتيني ونسبه إلى مرقاص تلميذه واختلفت هذه النسخ الأربع من الإنجيل مع أنها ليست كلها وحيا صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الخواريين وكلها مواعظ وقصص والأحكام فيها قليلة جدا واجتمع الخواريين الرسل لذلك العهد برومة ووضعوا قوانين الملة النصرانية وصيروها بيد أقليمنطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بها فن شرعية اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب يوشع وكتاب القضاة وكتاب راعوث وكتاب يهوذا وأسفار الملوك أربعة وسفر بنيامين وكتب المقايين لابن كريون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب أوشير وقصة هامان وكتاب أيوب الصديق ويزامير داود عليه السلام كتب ابنه سليمان عليه السلام خمسة ونبؤات الأنبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن شارخ وزير سليمان ومن شرعية عيسى صلوات الله عليه والمتلقاه من الخواريين نسخ الإنجيل الأربع وكتب القتاليقون سبع رسائل وثامنها الأبريكسيس في قصص الرسل وكتاب بولس أربع عشرة رسالة وكتاب أقليمنطس وفيه الأحكام وكتاب أبو غالمسيس

وفيه رؤيا يوحنا بن زبدي واختلاف شأن القياصرة في الاخذ بهذه الشريعة  
 تارة وتعظيم أهلها ثم تركها أخرى والنسب عليهم بالقتل والبغى إلى أن جاء  
 قسطنطين وأخذ بها واستمر وأعملها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراسيمه  
 يسمونه البطرک وهو رئيس الملة عندهم وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلقاءه  
 إلى ما بعد عنه من أمم النصرانية ويسمونه الأسقف أى نائب البطرک ويسمون  
 الإمام الذى يقيم الصلوات ويفتيهم فى الدين بالقسيس ويسمون المنقطع الذى  
 حبس نفسه فى الخلوة للعبادة بالراهب وأكثر خلواتهم فى الصوامع وكان  
 بطرس الرسول رأس الحواريين وكبير التلاميذ برومه يقيم بها دين النصرانية  
 إلى أن قتله نبرون خامس القياصرة فيمن قتل من البطارقة والأساقفة ثم قام  
 بخلافته فى كرسى رومة آريوس وكان مرقس الانجيلي بالاسكندرية ومصر  
 والمغرب داعياً سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطرك وهو أول البطارقة  
 فيها وجعل معه اثني عشر قسا على أنه إذا مات البطرک يكون واحد من الاثني  
 عشر مكانه ويختار من المؤمنين واحداً مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطارقة  
 إلى القسوس ثم لما وقع الاختلاف بينهم فى قواعد دينهم وعقائده واجتمعوا  
 ببنيقية أيام قسطنطين لتحرير الحق فى الدين واتفق ثلاثمائة وثمانية عشر من  
 أساقفتهم على رأى واحد فى الدين فكتبوه وسموه الامام وصيروه أصلاً  
 يرجعون إليه وكان فيما كتبوه أن البطرک القائم بالدين لا يرجع فى تعيينه إلى  
 اجتهاد الأقسمة كما قرره حنانيا تلميذ مرقس وأبطلوا ذلك الرأى وإنما يقدم عن  
 بلاء واختبار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الأمر كذلك ثم اختلفوا بعد  
 ذلك فى تقرير قواعد الدين وكانت لهم مجتمعات فى تقريره ولم يختلفوا فى هذه  
 القاعدة فبقى الأمر فيها على ذلك واتصل فيهم نيابة الأساقفة عن البطارقة وكان  
 الأساقفة يدعون البطرک يالاب أيضاً تعظيماً له فاشتبه الاسم فى أعصار متطاولة  
 يقال آخرها بطركية هرقل ياسكندرية فأرادوا أن يميزوا البطرک عن الأسقف  
 فى التعظيم فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الإسم أول ظهوره بمصر  
 على زعم جرجيس بن العميد فى تاريخه ثم نقلوه إلى صاحب الكرسي الأعظم



عندهم وهو كرمي بطرس الرسول كما قدمناه فلم يزل سمته عليه حتى الآن ثم  
اختلفت النصارى في دينهم بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف  
وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية كل على صاحبه فاختلفت الحال في العصور  
في ظهور فرقة دون فرقة إلى أن استقرت لهم ثلاث طوائف هي فرقةهم ولا يلتفتون  
إلى غيرها وهم الملكية واليعقوبية والنسطورية ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطرك  
فبطرك رومة اليوم المسمى بالبابا على رأى الملكية ورومة للإفرنجية وملكهم  
قائم بتلك الناحية وبطرك المعاهدين بمصر على رأى اليعقوبية وهو ساكن بين  
ظهرانهم والحريشة بدينون بدينهم ولبطرك مصر فيهم أساقفة ينوبون عنه في  
إقامة دينهم هنالك وأختص اسم البابا ببطرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة  
ببطركهم بهذا الاسم وضبط هذه اللفظة بياضين موحدين من أسفل والنطق بها  
مفخمة والثانية مشددة ومن مذاهب البابا عند الأفرنجية أنه يحضهم على الانقياد  
لملك واحد يرجعون إليه في اختلافهم واجتماعهم تخرجاً من افتراق الكلمة  
ويتجربى به العصبية التي لا فرقها منهم لتكبرن يده عالية على جميعهم ويسمونه

الإمبراطور (أى الأميراطور) انتهى  
هذا الذى قدمناه لك : دراسة خفيفة عن الديانتين اليهودية والمسيحية  
نعترف أننا لم نذهب في دارستها كل الاسهاب وإن كنا قد أبرزنا لك شخصياتها  
والظروف التي أحاطت بها ، والبواعث التي كمننت فيها وما اكتنفها من عوامل  
الانحراف والفسوق عن طريقها الطبيعي ولم يبق إلا أن نأخذ في دراسة  
الديانة الاسلامية .

والاسلام دين عام وتشريع سماوى اعتمد على المنطق وعلى مخاطبة العقل  
وكان في حقيقته عبقرية ولبقاً لأنه لم يقتصر على التشريع فقط لأمة محدودة  
كالديانة اليهودية ، ولم يحفل إلا بالناحية الروحية فقط ولم يخاطب العاطفة  
والقلب والضمير وحدهم كالديانة المسيحية وإنما جمع بين الناحيتين جميعاً وأراد  
أن يتمشى مع المرحلة التي بلغتها الانسانية : فكانت أهم ظاهرة فيه أنه من أول  
أمره جاء ناعياً الانسانية بجماء إليه وإلى الانضواء تحت لوائه . وأنه جاء عاملاً

على التعاون والاتلاف الانساني بطريقة عملية غاية في الروعة والكمال فالتساوي بين الناس جميعا أهم عنصر فيه وأعظم أساس ابتنت عليه مبادئه يقول القرآن الكريم ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) ويقول رسول الاسلام « لا فضل لعرب على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى »

وفي الواقع إن الدين الاسلامي لو قارناه مقارنة دقيقة بالديانتين السابقتين غير غاضين النظر عن مراحل التطور البشري لسكان ذلك كافيا وحده على صدقه وعجزه واحتياج الانسانية إليه فالدين المسيحي قد أوجد نوعا من التعاون الانساني ولكنه كان ضئيلا وغير عملي ؛ ولا يتفق مع الادراك والوعي الانساني لوجود النظام الكهنوتي فيه والدين المسيحي قد جاء منسكرا المادة داعيا إلى الروح عاملا على الزهد والقناعة وعدم الاخذ بأي سبب من الاسباب التي فيها حرص على الدنيا وعمل لها وتنعم بها - وإن كنا قد عللنا ذلك بأنه كان علاجا طبيعيا لما كان يسيطر على طبيعة العالم حينذاك من حب للمادة وتكالب عليها واسراف فيها - غير أن الاسلام جاء منسكرا لهذا النظام الكهنوتي كل الانكار فالقرآن الكريم يخاطب النبي بقوله ( انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء ) والرسول الكريم يخاطب أهله وذويه بقوله ( يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا . ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا ) ثم إن الإسلام لم يدع إلى الزهد والقناعة وانكار الحياة الدنيا كما كان الشأن في المسيحية فقد قال القرآن الكريم ( قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ) ( واتبع فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ) ( ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مغارم كثيرة وسعة ) ( فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ) وقال الرسول عليه السلام « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً »

وعن أنس رضي الله عنه قال :-

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم  
تقالوها ، أي عدوها قليلة ، فقالوا : وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد  
غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبداً .  
وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا  
أتزوج أبداً . فجاء إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين  
قلتم كذا وكذا أما والله إنني لأخشاكم لله وأنتم أكمل له لئكني أصوم وأفطر  
وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني ،

ثم إن الطبيعة التي اتسمت بها الديانة اليهودية كانت الاشادة بمبدأ القوة  
والقسوة والآثرة والأخذ بأساليب ذلك والاسراف والتغالي فيه بينما جاءت  
الديانة المسيحية على عكس ذلك فقد دعت إلى المسالمة والرحمة والنساج والسعي  
للدنيا وإنما للآخرة . وترك الحرق متى كان في الحصرول عليها قوة وشدة رخصاما  
أما الاسلام فقد جاء وسطاً معتدلاً متفقاً مع طبيعة النفوس ، ومع  
طبيعة الأشياء والحوادث فلم يستعمل القوة إلا في المواضع التي تحتاج إلى القوة .  
ولم يكن شديداً صارماً إلا في كل ما هو حق وواجب فقانونه الأخلاقي قائم  
على ما يتفق وسيكولوجية النفوس وسيكولوجية الحوادث . وظروف الزمان  
والمكان . فقد أشاد بمبدأ القوة في الأشياء والحوادث التي تحتاج في علاجها  
إلى شدة وصرامة وقد حجب الرفق والنساج والصفح في الظروف التي توجب  
ذلك وأحياناً خير الانسان بين أن يأخذ بحقه أو يعفو إذا لم يكن في ضياع  
حقه مضره لنفسه أو للمجتمع . بل انه وقف أحياناً بين الانسان وبين أن  
يفرط في ماله حتى ولو كان للصدقة إذا كان غير فائض عليه ومما يحتاجه لنفسه  
أو لأولاده فلقد روى أنه حينما كان سعد بن أبي وقاص مريضاً عاده النبي  
صلى الله عليه وسلم وكان عازماً على الصدقة بثلثي ماله . أو بماله كله تقريباً إلى  
الله فسأله النبي عما ترك لولده فقال سعد هم أغنياء فلم يقبل النبي أن يتصدق بغير

العشر وما زال يراجع حتى رضى صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرّم الزيادة  
فوق ذلك وقال (الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن  
تدهم عائلة يتكفون الناس) *نحوه : أيا بقية له بعد زكاة له بقية*  
وهكذا كما ترى جاء الإسلام بعد أن ظهرت له ضرورة عاجلة في تصحيح العقيدة  
الالهية وفي تكيف الشعوب النامية ، وفيما ينبغي أن يتفق مع التطور الانساني  
والتقدم البشري فأخذ يعمل في غير هوادة على لم شمل الانسانية وتقاربها وتآلفها  
وتعاونها ولم يجعل حوائل أو شروطاً تحول بين انسان - كائناً من كان - وبين  
أن يكون مسلماً إلا أن يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحاً بل لأنه شجع غير  
المسلمين على الدخول فيه وحببه إليهم فجعل لهم نصيباً في الزكاة حيث  
قال الله تعالى : والمؤلفة قلوبهم ، *ذلك سألوا لفساد قلوبهم*  
بينما نرى الديانة اليهودية جاءت خاصة ببنى إسرائيل وهدم المسيحية في  
أول أمرها نزلت لليهود فقط ولم يمكن يسمح بالدخول فيها لغير اليهود حتى  
دعا بولس الرسول غيرهم من كافة الناس للإيضاح تحتها بنفس الحقوق  
والامتيازات التي لهم كما ذكرنا ذلك قبلاً . *لمتساوية في الحقوق*  
والشيء الذي نحب أن يسترعى اهتمامك بعد ذلك وأن تخرج به من موضوع  
هذه المقارنة هو أن الإسلام جاء فوجد العالم تسيطر عليه حالة من القوضى  
والتفكك لا مثيل لها ، وأنه في حاجة إلى موقظ يوقظه بما هو سيادر فيه من  
حيرة وضلال ، ومن وجود نظام الطبقات الذي كان آخذاً بخناق عاملاً على  
تقويض كل القيم الانسانية فيه . *منذ أن رأى ذلك*  
ولقد رأينا أن المسيحية لم تأت بتشريعات سماوية تكون قانوناً للناس  
يسرون على ضرته ؛ وإنما انتهى بها الأمر إلى أن تحارب التشريعات اليونانية  
والرومانية التي ورثتها عن روما بعد سيادة المسيحية عليها وأن تقف في النهاية  
حجر عثرة في سبيل تطورها ونضجها لذلك كان العالم في ميسس الحاجة إلى  
ديانة جديدة تصحح هذا الوضع وتمشي مع التناموس الطبيعي للحياة حيث  
المادبة وحدها غير قادرة على السير وحيث الروحانية بمفردها غير مستطبعة

العيش. وإنما لا بد أن يجتمع الاثنان ويمتزجا ويكيفا بعضهما بعضا لأن هذا نظام  
الكون وقانون حياة الكائنات...  
ولقد نزل الاسلام على محمد بن عبد الله وهو راعي لا يقرأ ولا يكتب فكان  
أعظم دستور للبشرية جمع فأوعى وسماها في فترة قصيرة إلى مكانة ممتازة من  
الرقى والسمو لم تكن تحلم يلوغها في عدة قرون وكون أعظم امبراطورية  
ضخمة لم يعرف التاريخ لها مثيلا في سرعة نموها واتلافها وارتباطها وما  
سادها من عدل ومساواة وما كمن فيها من حيوية وازدهار.  
جاء الاسلام غائما للدعوات الالهية فكان لا بد أن تتوفر في طبيعته  
المرونة التي تتفق والتطور الزمني والرقى البشرى فعول في نشر دعوته وهضمها  
والايمان بها على العقل فكان يخاطبه في كل أمر من أموره ويحكمه في كل شأن من  
شئونه حتى أن الرسول عليه السلام يقول (الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له)  
وأمر بأنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما يتفق مع العقل وفي هذا أكبر  
دليل على تقديره للعقل، وعدم محاصمته للفلسفة أو العلم اللذين هما أثر آثار  
الاجتهاد العقلي. بل إن في هذا لا أكبر دليل على أنه ترك للعقل أن يؤول  
أحكامه وأوامره ونواهيه، وأن يلوغها حسب ما يتفق وطبيعة الأشياء  
وظروف الزمان والمكان.  
قال الأستاذ الامام محمد عبده  
وأجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه أنه إذا تعارض  
العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم  
بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في  
عده، والطريقة الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق  
معناه مع ما أثبتته العقل،  
وفي الواقع اننا لو تعمقنا في البحث في أحكام القرآن وفيما أتى به من أوامر  
ونواهي نجد أنه في كل ذلك كان يرمى إلى تكوين قانون أخلاقي غاية في الرقى  
والكمال. لأن العالم من ناحية الرصيد الخلقى كان مفلسا كل الافلاس، ولم يكن

تنقصة الفلسفة التي برع فيها سقراط وتلميذه افلاطون وارسططاليس، ولم يكن تنقصة نظريات القانون المادى وتنظيم العلاقات وسن الحقوق والواجبات التي اصطنعها علماء القسايزن الرومانى ، وإنما كانت هذه للفلسفة وهذا القانون فى احتياج شديد إلى تطعيم قوى بالنواحى الخلقية فأرسطو الذى وضع كتاب (الأخلاق) كان يبرر الاغارة على الأمم المتبربرة واستعبادها لأن الله لم يخاق الناس سواسية وإنما خلق بعضهم أسياداً (كاليونانيين فى رأى أرسططاليس) وبعضهم الآخر عبيداً كغير اليونانيين من الأمم والشعوب وكان القانون الرومانى أيضاً يشجع نظام الطبقات ويشجع الاستعمار لا للنهوض بالأمم المستعمرة ، وإنما للتسلط عليها واستنزاف اقتصادياتها .

فالعالم إذا كان فى حاجة ملحة إلى نظم وقوانين تسيطر عليها الناحية الخلقية فجاء الدين الإسلامى حاملاً إليه هذه الرسالة مؤدياً له تلك الأهداف فيما رسمه ونادى به القرآن من قواعد ومبادئ وفيما تمثل به الرسول وصحابه من أخلاق وقاموا به من أعمال فالقرآن الكريم يخاطب النبى بقوله ( وإنك لعلى خالق عظيم ) والرسول الكريم يقول ( الناس سواسية كأسنان المشط )

ولو درسنا حياته وتبعنا أعماله كلها فإننا نجد لها صفحة رائعة للخلق النبيل القويم من الوفاء والصدق والحب والإيثار التى تطفح بها كتب السيرة النبوية فلم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه أعطى لنفسه امتيازاً أو سلطة فى أى شىء بل إنه كان يشاور الصحابة فى كل ما يطرأ عليهم من أمور الدنيا حيث يقول له الله ( وشاورهم فى الأمر ) وكثيراً ما كان رأى غيره مخالفاً رأيه فينزل دلى رأيهم فالبساطة والتساوى والإيثار كانت من أظهر صفات النبى عليه السلام .

يقول المفكر الأنجليزى ( بوسورث سميث ) فى كتابه محمد والدين المحمدى ، ترجمة الأستاذ عز الدين فراج

، إن أعجب الأمور فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على اتيان المعجزات فأياً شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات بل إن محمداً نفسه حرص دائماً على أن ينكر قدرته

على اتيانها أى دليل إذا أقوى من ذلك على الاخلاص يمكن أن يسوقه إنسان  
لقد ظل محمد طيلة حياته وليس له لقب يفخر به إلا أنه نبي مرسل من عند الله .  
وإذا كان لاى فرد أن يدعى الحق فى تلقى الوحي من السماء فهو محمد لقد كانت له  
كل السلطات دون أن يكون لديه أدواتها .. كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة  
بروح المودة والولاء وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصداً فلم يكن  
يعوزه الرفق بأعدائه إذا ما دانوا له بالطاعة وقد كان دفاع مكة العتيد الطويل  
المدى ضد دعواته يحمل على البطش بهم بعد فتحها ولكنه أصدر عفواً عاماً  
ملقياً بذكرىات الماضى بما فيها من سخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان  
وعامل أحد الأعداء له بالاكرام والسخاء ولم تسكن السباحة التى أبدأها العبد الله  
ابن أبى وأهل مكة الخارجين عليه بأقل من ذلك ظهوراً وهم الذين ناصبوه  
العداء سنين طويلاً وامتنعوا عن الدخول فى طاعته .

وتحدث الكاتب الأمريكى ( واشنجتون أرفنج ) عن أخلاق النبي فقال :  
لقد احتفظ محمد وهو فى أوج سلطانه ببسالة الخلق التى عرفت عنه فى كل  
أدوار حياته وكان يكره إذا دخل مكاناً أن تؤدى له تحية غير عادية وكان لا  
ملجأ له فى أوقات شدته غير الصلاة والثقة بالله وعندما وقف على سرير ابنه  
إبراهيم ساعة احتضاره كان التسليم لارادة الله واضحاً فى سلوكه بينما كان يعانى  
أقصى ألوان الحزن وكان عزاءه أنه سيلتقى به ثانية يوماً من الأيام فى جنسة  
الخلد وعندما حانت ساعة وفاة محمد كان يردد صلاته ويتحدث عن دعواته  
وكانت كلماته التى جاءت على شفثيه تمنيه من أن يدخل ملكوت الله مع من  
سبقه من الأنبياء .

ولقد ذكر الأستاذ عبد المتعال الصعدي فى كتابه ( القضايا الكبرى فى  
الاسلام ) أن عمر بن الخطاب خطب الناس يوماً فنصحهم ثم قال لهم ( ألا إني  
والله ما أرسلت عمالي إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكن  
أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم فمن فعل به سوى ذلك فأيرفعه إلى فو الذى  
نفسى بيده إذا لأقصنه ا

من الفواشيق عمرو بن العاص فقال: <sup>١</sup> ربه ذلك من ربه <sup>٢</sup> أنا رأيت ربه <sup>٣</sup> لهذا ربه  
 يا أمير المؤمنين؛ أفرأيت إن كان رجل من المسلمين على رعيته فأدب بعض  
 رعيته إنك لمقصه؟ <sup>٤</sup> ربه لسان ربه <sup>٥</sup> ربه ربه <sup>٦</sup> ربه ربه <sup>٧</sup> ربه ربه  
 فقال عمر: أي والذي نفسي عمر بيده. إذن لأقصنه منه، أتى لا أقص  
 منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه. ألا لا تضربوا  
 المسلمين فتمذلوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم. ولا تنزلوهم  
 الغياض فتضيعوهم. <sup>٨</sup> ربه ربه <sup>٩</sup> ربه ربه <sup>١٠</sup> ربه ربه <sup>١١</sup> ربه ربه  
 ثم تحدث الأستاذ الصعدي عن قضية قائد مع جنده فترجم فيها عن روح  
 الإسلام وعدله وبين ما اتصف به من مثل عليا في المساواة هذا الحكم وهذا  
 المثل الذي ضرب به عمر بن الخطاب للناس، والذي لم ير العالم له مثيلا في تاريخ  
 الحضرة البشرية ولن يرى له مثيلا في المدنيات الكبرى التي تزعم الرقي بالانسانية  
 والارتفاع بها إلى مكانة من السمو والامتياز. <sup>١٢</sup> ربه ربه <sup>١٣</sup> ربه ربه <sup>١٤</sup> ربه ربه  
 قال الأستاذ عبد المتعال الصعدي (كان مع أبي موسى الأشعري في بعض  
 الفتوح رجل ذو صوت ونكايه في العدو فغنموا مغنما؛ فأعطاه أبو موسى بعض  
 سهمه فأبى أن يقبله إلا جميعا فغضب منه أبو موسى وجلده عشرين سوطا  
 وحلق شعره. <sup>١٥</sup> ربه ربه <sup>١٦</sup> ربه ربه <sup>١٧</sup> ربه ربه <sup>١٨</sup> ربه ربه  
 فجمع الرجل شعره ثم ترحل إلى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه ثم دخل  
 عليه فأدخل يده فاستخرج شعره. ثم ضرب به صدر عمر، فقال: أما والله  
 لو لا. فقال عمر: صدق، لو لا النار. <sup>١٩</sup> ربه ربه <sup>٢٠</sup> ربه ربه <sup>٢١</sup> ربه ربه  
 ثم ذكر الرجل قصته مع أبي موسى فقال: يا أمير المؤمنين، إني كنت ذا  
 صوت ونكايه في العدو، وقد أعطاني أبو موسى بعض سهمي، فأبيت إلا أن  
 آخذها جميعا فضربني عشرين سوطا، وحلق رأسي وهو يرى إلا يقتصر منه.  
 فقال عمر: لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلي من جميع ما  
 أقام الله على <sup>٢٢</sup> ربه ربه <sup>٢٣</sup> ربه ربه <sup>٢٤</sup> ربه ربه <sup>٢٥</sup> ربه ربه  
 ثم كتب عمر إلى أبي موسى:



سلام عليكم - أما بعد - فإن فلانا أخبرني بما كان منك فإن كنت فعلت ذلك في ملاي من الناس فعزمت عليك لما قعدت له في ملاي من الناس حتى يقتص منك وإن كنت فعلت ذلك في خلاي من الناس فاقعدله في خلاي من الناس حتى يقتص منك ثم قدم الرجل على أبي موسى ، فقال له الناس ، اعف عنه فقال الرجل ، لا والله ، لا أدعه لأحد من الناس .  
فلما قعد أبو موسى ايقص الرجل منه ؛ رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال اللهم قد عفوت عنه ) انتهى

ثم شيء آخر من عدالة الاسلام أحب أن أعرضه عليك وهو - أن جبلة ابن الأيهم ملك غسان بعد أن أسلم كان يطوف بالكعبة في موسم الحج فوطيء رجل من فزارة طرف إزاره فأنحل الأزار فرفع جبلة يده وهشم أنف الفزاري فشكاه إلى عمر ولما لم يقبل العفو عنه أراد عمر أن يهشم أنف جبلة تنفيذاً للقانون الاسلامي ( ولكم في القصاص حياة ) فقال جبلة كيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك ؟ فأجاب عمر :

إن الاسلام جمعك وإياه وسأوى بينكما فليست تفضله بشيء إلا بالتقوى فلم يحتمل ذلك جبلة واستنصر به من عشق حجاج بن يوسف فقال له : ولا أحب أن أتركك دون أن أقدم لك شيئاً آخر عن سماحة عمر وتواضعه مع نفسه ، وعمله على ما فيه خير الاسلام وصالح المسلمين . وهذه الأخلاق النبيلة الرفيعة التي أخذها عن محمد ، والتي أكسبها الاسلام إياه .  
فقد نقل الأستاذ العبادي في كتابه ( صور من التاريخ الاسلامي ) عن الطبري ( أنه لما أتى عمر بن الخطاب نزول رستم القادسية كان يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى حين انتصاف النهار ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال فلما لقي البشير سأله من أين فأخبره . قال يا عيد الله احدثني قال : هزم الله العدو ! وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين . فقال الرجل : فيم لا أخبرني رحمتك الله أنك أمير المؤمنين ؟ وجعل عمر

يقول : لا عليك يا أخي !

ثم تابع الأستاذ العبادي كلامه فقال :-

« ويمكن القارىء أن يدرك الدور الذى قام به عمر في تلك الواقعة الفاصلة فهو مدير رحاها وبطلها على الحقيقة . وقد أدرك الفرس ذلك من فرهم . فيروى أن رستم لما ضرسته الحرب بنابها ووطنته بمنسما نادى فقبال بالفارسية ما تعريبه : « أتانى صوت عند الغداة ، وإنما هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ،

أرأيت إذا ما صنعه الاسلام بهؤلاء الناس البدو الرعاة . كيف جعلهم سادة العالم وقادته ، ومثله الأعلى في الأخلاق ، والعدل ، والمساواة وفي كل صفة من صفات التحضر البشرى ، والرقى الانسانى .

أرأيت إذا أن العالم وهو سادر في فقره الأخلاقى ، وفي امتهانه للكرامة البشرية كان في حاجة قصرى إلى رسالة الاسلام الذى جاء بأعظم قانون أخلاقى لم يتخيل أحد من الفلاسفة والمفكرين ما يفرقه في السمو والارتقاع حتى الآن ، وأنه رد للإنسان كرامته وشعره بعزته بتساوى أفراده صغيرهم وكبيرهم في الحقوق والواجبات ، وفي أمور دينهم ودنياهم حتى أن النبى وصحابته كانوا يعاملون مراليهم معهم على قدم المساواة ، بل كانوا يميزونهم عن أنفسهم في أكثرهم الأحيين .

فأسامة بن زيد لم يرغب أن يترك النبى لينذهب مع أبيه إلى مكة لما خيره النبى بالذهاب مع أبيه أو العيش معه فأثر العيش مع النبى وذلك لما لقيه منه من معاملة حسنة ، ومن رعاية تفوق عاطفة الأبوة ومن مساواة له مع نفسه ، ومع صحابته حتى أنه قلده قيادة الجيش الذاهب لمحاربة الشام وفيه من عظماء قريش ، ومن أكبر الصحابة العدد الوفير .

وعمر بن الخطاب لما ذهب ليعقد معاهدة مع أهل الشام استصخب معه رقيقا له فكان يركب هو مرحلة ثم ينزل ويأمر رقيقه بالركوب ويمشى خلفه

ولما وصل إلى دمشق كان الدور في الركوب لعملامه فدخل دمشق على هذه الصورة ولم يرفى ذلك عيبا ولا غضاضة .

وعلى بن أبي طالب رضى الله عنه اشترى ثوبين أحدهما أكثر ثمننا من الآخر فأعطى لرقيقه الأيمن وأخذ لنفسه الآخر فقال له رقيقة (أنت يامولاي أحق بهذا الثوب) فقال له (كلا إنك شاب وأما أنا فقد هرمت) وربما يسألنا سائل: ما بال الاسلام وهذه أخلاقه ومبادئه في المساواة والايثار لم يبلغ الرق، ولم يحرمه بل أقره؟

وجوابنا: أنه لا يعاب على الاسلام عدم إلغائه للرق صراحة وذلك لأنه جاء فوجده، عنصر طبيعيا من مقومات حياة العالم ودعامة قوية من دعائم اقتصادياته، ولأن الديانتين اللتين سبقته وهى اليهودية والمسيحية لم تتعرض لإحداهما للحد منه بله إلغائه صراحة أو تنويرها .

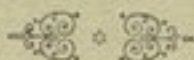
بل إنه جاء فوجد الفلسفة الأخرى، والحضارة الرومانية وهى التى استمد منها علماء أوربا ومفكروها عناصر نهضتهم وتحضرم الخالى قد أقرته ووضعت له قواعد باعتبارها أساسا من أسس الاقتصاد، ومن أسس الاجتماع ولسكننا نجد الاسلام - هذا الدين الذى كما قلنا جاء يقرر الأخلاق ويعمل على النهوض بالكرامة البشرية - يسوى بين العبد وسيده أمام الدين، وفى كثير من الحقوق والواجبات بل إن القرآن قد جعل منزلة الرقيق بالنسبة لنظرة الانسان كمنزلة والديه وذوى قرباه فقال تعالى (وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وما ملكت أيمانكم)

وقال عليه الصلاة والسلام (إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس)

ثم إن الاسلام سعى إلى التخفيف منه، والعمل على زواله شيئا فشيئا بخلق أبواب كثيرة يتلاشى فيها كالتكفير عن سيئة بعق رقية مؤمنة وبمساعدة من يسعى لفك رقبة بإعطائه حصصا وحققا فى الزكاة التى أوجبها على المسلمين وبالاثابة والجزاء الحسن لكل من يعمل على إطلاق حرية عبد رقيق وكماض

على الزواج بالإمام وبمجرد ولادتهن يصبحن أحراراً . . . فهو حقيقة لم يبلغ الرق صراحة ، لأن العقول سواء أكانت عقول السادة أو الرقيق لم تكن تهضم هذه الدعوة ؛ ولأن نفوس الرقيق وهي التي استمرت حياة الرق واستعذبتها وألفتها وأصبحت غريزة فيها ورثتها عن أجيال بعد أجيال ومن قرون تلو قرون . . . هذه النفوس لم تكن قد تهيأت لتذوق حياة تخالف ما ألفته من حياة ، ولم يكن قد توفر عندها التكافؤ للعمل في حرية واستقلال ولذلك نرى الاسلام قد حرم الرق الذي يأتي عن طريق النخاسين بالقنص والتصيد والاختطاف .

والخلاصة التي نستطيع أن نخرج بها من موضوع دراستنا لمسكانة الاسلام بين الديانات أنه الدين الذي جاء متمشياً مع العقل في تطوره ونهضاته ، وأنه الدين الذي جاء يقرر الأخلاق ويعمل للكرامة البشرية التي تلتزمها الحضارات والمدنيات الكبرى .



## الاسلام كتشريع للبشر

تكلمنا في الفصل السابق عن الطبيعة التي لازمت الإسلام . من أنه جاء عاماً للناس جميعاً ، وأنه سائر سنة التطور والتدرج الإنساني ، وأنه لم يكتف بإصدار تشريعات خاصة لأمة وللبيئة التي ترعرع فيها ، وإنما كان في كل ما شرعه مراعيًا للإنسانية في مجموعها ، مدركاً حقيقة نموها ، وسرعة اضطرابها في الرقي والتقدم .

ثم إنه لم يأت ليحيي المبادئ الروحية في نفس الإنسان فقط ؛ وإنما قام هو والدولة جنباً إلى جنب ، بل إنه سخر كل ما دعا إلى القيام به من مختلف العبادات إلى تغذية هذه الدولة وإقامتها على أسس سليمة غاية في القوة والنضوج والمثالية الكاملة ...! وعلى ضوء ذلك سندرس الإسلام كتشريع للبشر وأول شيء نلاحظه : أن مصادر التشريع الاسلامي أربعة :-

( أولاً ) الكتاب وهو القرآن الكريم في كل ما تلاه من أوامر ونواهي سموا فهم ذلك من صريح صيغته ، أو عن طريق الإشارة أو الدلالة ، أو الاقتضاء .

( ثانياً ) السنة وهي كل حديث صحيح قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم يوضح مذهبها . أو يفسر بجملاً . أو يستهدي تفصيلات سكت عنها القرآن بشرط أن تكون هذه الأحاديث مما يتفق وروح القرآن وبما يهضمه العقل الناضج البصير لنخرج بذلك الأحاديث الموضوعية والمدسوسة على رسول الله ( ثالثاً ) الاجماع : وهو اتفاق أغلبية أهل الحل والعقد ، والثقة من مجتهدي المسلمين على رأي من الآراء دينياً كان أو دنيوياً . فيصبح بذلك قانوناً شرعياً ، من الواجب الانصياع له والأخذ به شرعاً .

( رابعاً ) القياس . وهو الحاق فرع بأصل : ويتأثر في الأشياء التي لم يرد فيها نص

فيجب على الانسان أن يحكم عقله مستهدياً روح الكتاب والسنة ، ويقيس ما يعرض له على ضمة الغاية من التشريع ، وعلى ضوء العلة في الأوامر والنواهي هذه هي المصادر الأربعة التي تعتبر منبعاً للتشريع الاسلامي وقد وجدت على هذا الترتيب المنسلسل ، فالقرآن في المقدمة لأنه الأصل في التشريع قال تعالى ( ما فرطنا في الكتاب من شيء ) ( لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ) ولأنه جاء عاماً جامعاً ملماً بكل التشريعات الالهية التي سبقته فإله يقول ( شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ) ولكنه كان مراعيّاً ظروف كل أمة ، مقدراً سنة التطور ، وعامل البيئة وظروف الزمان والمكان فلقد دعا مرة إلى أشياء الفمل أو الترك محددآ حدودها مفصلاً أغراضها ولقد دعا مرة أخرى إلى أمور مجتمعة ليس فيها شيء من التحديد والتفصيل مثل ، إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان وبعض العبادات الأخرى والمعاملات فلقد ترك تفصيلاتها لأقوال رسول الله وأفعاله أو للبصيرين الأخيرين من المصادر التشريعية وهما الاجماع ، والقياس .

ثم إنه قد ترك أشياء غير غافل عنها كما قلت جاء مرناً مسيراً حاجيات الناس ، واختلافهم في ظروف الحياة ، ومقتضيات القوانين التشريعية في طول من حياتهم بعد طور وفي جيل بعد جيل فلم يشأ أن يقيدهم في دائرة محكمة من القوانين التي لا تسير مصالحهم ولا تنهض بمطالبهم .

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه علم أصول الفقه وتاريخ التشريع الاسلامي من الأمور التي روعيت في التشريع ، التقليل من التقنين وهذا يتجلى في أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم تشرع إلا على قدر الحاجة التي دعت إليها والأقضية والحوادث التي اقتضتها ، ولم تشرع منها أحكام لحل مسائل فرضية أو الفصل في خصومات مجتمعة ، ويتجلى أيضاً بما ورد في القرآن والسنة من النهي عن الاكثار من الأسئلة التي تقتضي تشريعاً فقد قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء أن تبدلكنم أسؤكن ، وإن تسألوا عنها

حين ينزل القرآن تبدل لكم ، ونهى رسول الله عن قيل وقال وكثرة السؤال وإغضاعة المسال فقال ، أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة ، وقال ، إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدد حدوداً فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها ،

والحكمة في هذا أن التشريع إنما هو لدفع حاجات الناس . وتحقيق مصالحهم فينبغي أن يقتصر في كل عصر على تشريع ما اقتضته حاجاته وتحقيق مصالحه حتى لا يحدد اللاحقون من تشريع السابقين عقبات تحول دون تشريع ما يدفع حاجاتهم ، ويحقق مصالحهم ، انتهى

ثم يلي المصدر الأول في الأهمية المصدر الثاني وهو السنة وهي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله بما روى عنه من أحاديث موثوق بصحتها وما قام به من أعمال ، وما حكى فيه من أقضية ، سواء فهم ذلك من صريح الصيغة أو الدلالة أو الاقتضاء .

وتحاشياً من الأحاديث المرصعة يجب أن لا يؤخذ بأى حديث لا يتفق مع روح القرآن وما يرمى إليه من أهداف .

ثم بعد ذلك يأتي الاجماع ، ويكون من الشورى ؛ ومن اتفاق أهل الحل والعقد والثقة من مجتهدي المسلمين وعلمائهم على رأى من الآراء ، وشأن من شرب الدين أو الدنيا بحيث يكرنون مبرئين من المعاييب الأخلاقية والنزعات الشهوانية معسرفين بالصلاح والتقوى والجرأة في الحق وعدم الخضوع لتأثيرات خارجية من سياسية أو غير ذلك من الأمور الدنيوية وقد أشار إلى ذلك القرآن في قوله ، وأمرهم شورى بينهم ، ثم في أمره للنبي عليه السلام بقوله ، وشاورهم في الأمر ، فجعل لصحابته رأياً له قوته وصلاحه ونضوجه لذي يمتد به فلا ما نع عملاً من أن يكرن اتفاق علماء المسلمين وإجماعهم على رأى بشرط أن يكرنوا متصفين بالصفات السالفة . . . أقول لا مانع يمنع من أن يكرن إجماعهم واجب الاطاعة ملزم التنفيذ . . . وهذا ما نستطيع أن نلمس

صورة منه وإن كانت تختلف في المظهر إلى أنها تتفق في الجوهر . وذلك في  
النظم الديمقراطية الحديثة حيث يعرض الرأي في المجالس البرلمانية الممثلة للشعب  
ثم يصبح قانونا واجب التنفيذ إذا ما حصل على أغلبية الأصوات ومن جهة  
أخرى نرى علماء الاجتماع يقررون في صراحة وثقة بأن رأي الجماعة يحترم ويماقب  
من يخالفه ولو تبين بعدئذ أنه خطأ ورأي الفرد لا يعتد به مادام مخالفا لاجماع  
أهل البصر ، والنظر والمعرفة ولو ظهر فيما بعد أنه كان مصيباً  
ثم يأتي بعد ذلك القياس : ويراعى فيه أن يكون متفقاً مع روح الاسلام  
متمشياً مع ما ينشده من إصلاح وما يسعى إلى تحقيقه من أهداف  
كلها عدل ورفق بالإنسان وقد وضعناه في مؤخره المصادر التشريعية الأربعة  
لأنه إذا لم يتحقق رأي الجماعة القادرة على الإجتهد والتي سبق أن سجلنا صفاتها..  
إذا لم يتحقق رأي هذه الجماعة في أمر من الأمور لعدم وجود الضرورة التي  
تقتضى حلاً ، ولعدم إستظهار الحاجة التي تسأل عن دليل وتعتصم بقانون فلا  
مفر للإنسان إذا من أن يجهد فكره ويحكم عقله ولكن أحياناً يتعارض  
الاجماع مع القياس وذلك لظروف التطور ولسنة التغير في النظر إلى الأشياء  
والحكم عليها وتفسير حقيقتها وذلك في جيل بعد جيل وفي طور من أطوار  
الحياة بعد طور آخر وفي هذه الحالة يجب أن يلغى الاجماع فلا يعتد به ولا  
يعمل بمقتضاه لأن حكمة الشارع في كل شيء هي مصلحة الانسان ورفعته وتساميه  
وعدم التضيق عليه في حياته ووسائل معيشته وعدم التزامه شيء ليس فيه  
خير ولا مصلحته ولذلك نرى النبي صلى الله عليه وسلم لما أشار على صحابته  
بتأبير النخل بشكل خاص فلما يصلح النخل بذلك رجع النبي عما أشار به وقال  
لأصحابه ( أتم أعلم بأمور دنياكم )

ولكن ربما يقول لنا قائل إن هذا فيما يختص بالأمور الدنيوية لا الدينية  
وجوابنا على ذلك أن القواعد التي ابنتي عليها الاسلام ، وشرع من أجلها  
الأحكام أن أمور الدنيا والدين متلاصقة بعضها ببعض مكملة بعضها بعضاً  
بل نستطيع أن نقول في ثقة وقوة ، أن الأمور الدينية ما هي الا وسيلة لاصلاح  
الأمور الدنيوية . وإن الاسلام في كل ما دعا إليه كان دائماً مراعيًا صلاح



الانسان وخيره ونفعه لنفسه والمجتمع للذي يعيش فيه ليكون ذلك ثمنا يقدمه  
لخطوته في حياته الآخرة ، وتمتعه فيها بجنات الفردوس والنعيم  
فلاسلام يشذ من هذه الناحية عن كل الديانات، وضعية كانت أو سماوية .  
فصفات الانسان وأعماله ، وما يكتسبه في دنياه هي وحدها التي تقرر مصيره  
الأخروي ، وهي وحدها التي تبرز تقواه وصلاحه أو كفره وفساده لجميع  
العبادات الروحية التي دعا إلى الأخذ بها مثل الصلاة والصوم والزكاة والحج ما  
هي إلا وسائل تؤدي إلى تحقيق غايات هي لب الاسلام وجوهره وحقيقته  
مثل الصدق والوفاء والأمانة والاخلاص ، وتكوين ضمير حي يراقب الله  
في أعماله ، ويعلم أنه مطلع عليه في كل خطوة من خطوات نفسه وهمسة من همسات  
فؤاده ، فيكون بذلك إنسانا عاملا مفيداً لنفسه والمجتمع الذي يعيش فيه  
ولقد دعا النبي في حياته إلى الاجتهاد فيما لم ينزل به تشريع من قبل الله ،  
وفيما لم يذكر بحديث قاله رسول الله ، وذلك فيما رواه البغوي عن معاذ بن  
جبل أن رسول الله صلى الله عليه لما بعثه الى اليمن قال كيف تقضى اذا عرض  
لك قضاء قال أقضى بكتاب الله . قال فإن لم تجد في كتاب الله . قال فبسنة  
رسوله . قال فإن لم تجد في سنة رسوله ، قال اجتهد رأيي ولا آلو ، قال فضرب  
رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضى رسول الله ،  
وإذا ما لاحظنا نحن أن الاسلام لم يأت خاصاً لشعب من الشعوب دون  
شعب آخر ولا لامة من أمم العالم دون بقية الأمم الأخرى ، وإنما أتى عاماً داعياً  
الجنس البشري بأجمعه إلى الانضواء تحت لوائه وإلى العمل به فلم يكن له إذاً  
بد من أن يكون في تشريعه مرناً بعيد النظر مقدراً عامل البيئة واختلافها  
ياختلاف الاجناس البشرية مراعيأ سنة التطور في السكائنات عاملاً على السير  
مها جنباً الى جنب

وإذا ما استوعبنا ماهيته وتعمقنا إلى أسرارها ، وأردنا أن نخرج بصفات  
ذاتية له نجد أنه اشتمل على هذه الصفات التي نجعلها فيما يأتي شارحين أغراضها  
وأهدافها فيما بعد

أولاً : قرب بين الانسان وخالقه فليس فيه شيء البتة من النظام الكهنوتي

الذي اشتملت عليه جميع الأديان السابقة

ثانيا : دعا الى المساواة المطلقة فليس هناك سيد ولا مسود أمام مشرعه  
من حقوق وواجبات

ثالثا : نزل بطريق التدرج . ولم ينزل دفعة واحدة مراعيًا بذلك مصلحة  
الانسان وظروف الزمان والمسكان

رابعا : نزل بطريق الاجمال ليترك مجالا لاجتهاد الانسان ، وليكون  
مرنا متفقا مع طبيعة التدرج والرقى في الانسان

خامسا : جعل العبادات جميعها وسائل لاغايات

سادسا : راعى حرية الفرد مادامت لا تتعارض مع مصلحة المجموع  
سابعا : جوز المحظورات عند الضرورات

ثامنا : قرر أنه إذا تعارض النقل والعقل أخذ بما يتفق والعقل

تاسعا : جعل أحكامه مرنة تخضع في طبيعتها لظروف الزمان والمكان  
وطبيعة الحوادث وحقيقة الواقع ومصالح الناس

عاشرا : حارب الكهنوتية والسلطة الدينية . فلكل إنسان نير البصيرة ناضج  
العقل الحق في طرق باب الاجتهاد ولو كان من عامة الناس

احدى عشر : جعل الأصل في الاشياء الاباحه

اثنى عشر : جوز ترك الفروض والواجبات اذا كان في آدائها ضرر

ثالث عشر : كان في كل ما دعا اليه من ترغيب في الجنة وترهيب من النار  
مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بصفات الانسان الخيرة أو الشريرة وما يكتسبه في دنياه  
من صلاح أو فساد ، ومن خير أو شر

هذه هي أهم الصفات التي تعتبر ذاتية للإسلام لا يشاركه فيها دين آخر  
ولا دعوة أخرى من الدعوات الالهية أو الانسانية ، ونحب أن نلم بها المامة  
خاطفة . محاولين كشف حقيقتها واستيعاب ما هيتهما فأول صفة من هذه  
الصفات التقريب بين الانسان وخالقه فليس هناك واسطة أو حائل بين إنسان  
كائن من كان وبين خالقه فالقرآن الكريم يقول ( وقال ربكم ادعوني أستجب  
لكم ) والله يخاطب رسوله بقوله ( إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله

يهدي من يشاء) . ويقول أيضاً أنباء تعرضه المنافقين (سراء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين) ورسول الله يخاطب عشيرته وذويه بقوله (يا معشر قريش ائتمروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس ابن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً)

وهكذا من يدرس القرآن . ومن يبحث دعوة الاسلام يجد أن هذا الدين أخذ بهذا المبدأ وحمل معتنقيه أتباعه على واستساغته والعمل به حتى أصبح عنصراً قريبا من عناصر إيمانهم الصحيح ، وكان من المقررات الخطيرة في تصحيح عقيدتهم الالهية فالرسول الذي أتى بهذه الرسالة ، والذي أوحى اليه بالتنزيل لم يمكن له شأن إلا أنه بشر كلف أداء واجب فقام به خير قيام . ولم يطمع في أنه أكثر من رسول من قبل الله الى البشر حاملاً لهم الهداية والرشاد حائثاً لهم على السير في طريق الرقي والتقدم ، ولم يمنح نفسه امتيازاً أو حقاً بالنسبة لصحابته وتابعيه من المسلمين ، وإنما كان دائماً يشعر أتباعه والمؤمنين به أنه لا يمتاز عنهم في شيء من الحقوق الدنيوية ، وأنه ليس إلا بشراً مثلهم له ما لهم لو عليه ما عليهم حتى أن زوجته عائشة رضيت الله عنها أتت أن تشكره لما برأها الله من حديث الافك فيما نزل به القرآن في قوله تعالى (ان الذين جاءوا بالافك عصبية منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم) الى قوله تعالى (ولو لا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) فلما نزلت هذه التبرئة لعائشة رضيت الله عنها وهي في بيت أبيها قالت لها أمها قومي فاشكروا رسول الله فردت عليها بقولها لا والله لا أشكر إلا الله الذي برأني . . . ! وفضلاً عن ذلك فإن رسول الله لم يدع قط القدرة على اتيان المنجزات ، وإنما كانت معجزته الكبرى التي تحدى بها الكفار والمنافقين من أساطين البلاغة وانه جاء العرب . . ! كانت هذه المعجزة هي القرآن الكريم بما فيه من روعة ، وما فيه من جلال

وما فيه من أعجاز ليس فقط لفصاحته وبلاغته ، وحسن وقعه في النفوس والقلوب وإنما لذلك ولما حمّله من تشاريع ، وما دعا اليه من مبادئ لم يتخيل أحد من عظماء مفكرى العالم وقادته تشاريع أو مبادئ توازيها ولا نقول تفرقها في الروعة والسمر والكمال بل إن لله نفسه قد تحدى كفار العرب وبين لهم أن القرآن هو المعجزة الكبرى لرسالة محمد عليه السلام قال تعالى ( وإن كنتم صادقين) وفي قوله جل شأنه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً )

وان نستطيع نحن أن نتخيل أخلاقاً ، ولا بساطة تمثل بها صاحب رسالة ومنشى مدين ودولة مثل أخلاقه وبساطته عليه السلام فكل ما كان يعن له من الأمور أو ينهض له من المشاكل كانت الشورى هى سبيله الوحيدة التى يسلكها ليس فيما يختص بأمور دعوته فقط وإنما فيما يختص بأموره الشخصية أيضاً كما حدث فى أمر عائشة لما ظهر حديث الإفك واستشار فى شأنها عمر وعاليا وأسامة بين زيد . فهذه السياسة التى التزمها الرسول فيما بينه وبين صحابته وفيما بينه وبين أتباعه من المسلمين ، وهذه التعاليم التى صاحبت دعوته الإسلامية وهذه الأخلاق التى برزت بروزاً واضحاً فى أقواله ، وأفعاله ، والتى أصبحت من بعده دستوراً قوياً تمسك به معاصروه من صحابته وخلفائه الراشدين هى حقيقة جوهر الإسلام الذى جاء يعترف بالفرد ويرتفع ويعتز به ، والذى جاء يبعث الكرامة البشرية من رقادها وامتهانها ، ويعمل فى سبيل الحرية الفردية التى تعبر من ألزم اللوازم لنهوض الانسان ورقية وتحضره

فالوصل بين الانسان وبين الله فيه محاربة للسكنوتية البغيضة المخزية ، وفيه منع لاحتكار السلطة الدينية التى نشأ عنها الاستبداد والتى نشأ عنها تأخر كثير من الشعوب وانحطاطها وترديها فى هوة سحيقه من الجهل والفقير والمرضى والبؤس الشديد المضى

وليس بعيد ما أدى اليه تعنت الكنيسة وسلطة البابا أو تفرطيته من انكماش المعرفة الانسانية، ومن اضمحلال الحرية الفردية وانزوائها، ومن التعاسة

والشقاء الذي كان يخيم على العالم المسيحي طيلة القرون الوسطى ، ومن القسوة والبشاعة ، والظلم الذي سلب الأفراد والجماعات كل ميزاتهم الانسانية ، وتركهم يترنحون في ظلام الجهل وقسوة الفقر ، ولم يستطيعوا أن ينهضوا ويردوا اعتبارهم الا بعد أن قضا على نفوذ الكنيسة قضاء لا هوادة فيه

وليس ببعيد أيضاً ما جرته الخلافة الاسلامية بعد عصورها الأولى من فن وقلاقل ودرسايس واغتيالات أخذ بها المسلمون في بقاع المعمورة أخذاً وما منحه بعض الخلفاء لا نفسهم من السلطة ليس على الأمور الدنيوية فقط وإنما عن الأمور الدينية أيضاً باعتبارهم كما يزعمون خلفاء الله في الأرض ، وشجعهم على أو تقراطيتهم هذه التي ظهرت بأبشع صورة بعض علماء الدين من النفعيين والرجعيين الذين لا يهمهم الا مليء بطونهم وأشباع شهواتهم فالتمسوا لهم آية من القرآن تدل على وجوب طاعتهم والانصياع لهم في قواه تعالى ( وأطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم ) ولم يفهموا الناس أن طاعة ولي الأمر تسقط متى حاد عن الطريق السوي واتبع طريق الضلال والفساد والظلم والطغيان

هذه هي الصفة الأولى من الصفات الذاتية للإسلام وتليها الصفة الثانية وهي دعوته الى المساواة المطلقة فيما شرعه الله من حقوق وواجبات قال الله تعالى ( يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ) وقال الرسول الكريم ( الناس سواسية كأسنان المشط ) . ( ولا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي الا بالتقوى ) أو بما قاله لأبي ذر الغفاري لما تقاوم أمامه مع عبد زنجي فقال أبو ذر للزنجي يا ابن السرداء فغضب الرسول وقال لأبي ذر ه طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السرداء فضل الا بالتقوى أو بعمل صالح ،

وفي الواقع ان المفكر ليقف خفورا بالاسلام أمام هذه الصفة ، أو أمام هذا المبدأ من المساواة المطلقة التي دعا اليها بكل ما يملك من قوة واقناع حتى قال الرسول عليه السلام ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ) ولم يسكتف بالدعوة والقول فقط ، وإنما حقق هذه المساواة بطريقة عملية

مثل الحج وصلاة الجمعة حيث يقف الغني بجانب الفقير ، وصاحب السلطان  
والجاه بجانب من لا سلطان ولا جاه له .

نعم إن المفكر ليقف أمام هذا المبدأ منح الرأس إجلالا وتقديراً إعجابية  
الإسلام ، وأخذه بيد الانسانية في تقديمها وتحضرها ، وعمله على أن يكون لها  
سنداً قوياً يدرأ عنها شريعة الغسابة التي كانت تتجاذبها ، وقانون الاستعباد  
الذي كان يسيطر عليها .

وإن من الأمور المدهشة ، والبالغ في الروعة والكمال أن صفات  
الإسلام وأركانها متصل بعضها ببعض مكمل بعضها بعضاً بحيث لو عطل أحدها  
كان في ذلك قضاء على الآخر من الصفات والأركان وبالتالي كان في ذلك  
تعطيل لعمل الإسلام .

وهذه الصفة التي نحن بصددتها : وهي المساواة المطلقة بين الناس جميعاً  
قريبهم وضعيفهم وغنيهم وفقيرهم متصلة اتصالاً وثيقاً بالصفة الأولى وهي  
التقريب بين الانسان وبين خالقه لأنه إذا كان الأفراد بالنسبة لله متساوين  
ليس لأحدهم ميزة على الآخر في قربه من الله إلا بعمل صالح يعمله ، والكل  
قادر على أداء هذا العمل الصالح ، فيجب أن يكونوا متساوين أيضاً في نصيبهم  
من الحياة وحظوظهم من الدنيا ؛ وما لهم من حقوق ، وما عليهم من واجبات  
وان الباحث عندما يقرأ تاريخ الحضرة البشرية الذي دون قبل الإسلام ،  
وعندما يبحث في النشايح التي نهض بها أعظم الفلاسفة والمفكرين قبل نزول  
الدعوة الإسلامية ، ويقارن ذلك كله بما أتت به الشريعة الإسلامية من قوانين  
ومبادئ جديدة يجد أن هذا الدين كان مدركاً الناحية السيكولوجية التي تختم  
ضمير السالم وضمير التطور البشري ، وكان من ناحية تمثيه معها ومراعاته لها  
ناجحاً كل النجاح لأن العالم كان في حالة فزع قاسية شديدة من النظام الطبقى الذي  
كان يسيطر عليه آنذاك بخناق ، ولم يجد في النشايح اليونانية والرومانية ما  
ما يحقق له الأغراض والأهداف الحقة في المساواة ، والتي تتفق مع تحضره  
ورقيه لأن أرسطو كما قلنا في غير موضع من هذا الكتاب كان يقر النظام الطبقى ،

بل كان يقر الاستعباد ويرى أن الله خلق نوعين من بنى الانسان أسيادا وهم اليونانيون ، وعبيداً وهم غيرهم من الشعوب ، وعلما القانون الروماني كانوا يجذبون النظام الطبقي أيضا ، ويعملون على وجود قوانين للأشراف والاسياد وقوانين أخرى للرعايا والعبيد .

فلو بحثنا في التشريعات اليونانية والرومانية عن أى أثر للمساواة نجد أنه قد كانت هناك مساواة حقا ، ولكنها مساواة متفككة مع النظام الطبقي ، فما يجوز على طبقة لا يجوز على طبقة أخرى غيرها ، وما يحل لفرد من طبقة لا يحل لغيره من أبناء الطبقات الأخرى ، ومن هنا نعلم أن المساواة المطلقة لم تكن موجودة البتة قبل الاسلام حتى في الديانات السماوية التي سبقتها . لأننا لو وجدنا دعرة لها إلى المساواة ، إما أن نجدها مقيدة ضيقة خاصة بشعب دون شعب وبأمة دون أمة كما هو الشأن في الديانة اليهودية وإما أن نجدها قاصرة على شئون الحياة وحفظ الدنيا فقط ناقصة مبتورة تكاد تكون معدومة في مسائل الدين كما هو الشأن في الديانة المسيحية وما اصطنعت من النظام الكهنوتي...! واننا لو وقفنا وقفة قصيرة عند المساواة التي دعا إليها الاسلام ، والتي تمثل بها النبي وصحابته وخلفاؤه الراشدون في حياتهم نجد أنهم حافظوا على هذه المساواة محافظة دقيقة ونفذوها بكل ما تحمل من معنى وما ترمى إليه من هدف وكتب السيرة ومصنفات التاريخ الاسلامي تحدثنا عن شيء لا ينفد من صور هذه المساواة الرائعة الدقيقة المتغالية في الدقة .

ولقد تحدثنا نحن كثيراً عنها في الفصل السابق ؛ وأتينا بصور عديدة تمثل بها النبي عليه السلام ؛ وتمثل بها خليفته الثاني عمر بن الخطاب فليرجع إليها من يشاء .

بيد أننا نحب أن نعرف أى أثر تركته هذه المساواة ، وأى تأثير اهتز له كيان العالم من جراءها ؟

والشيء الذى لا سبيل لإنكاره أو التقليل من شأنه أن هذه المساواة المطلقة بعثت الأخلاق الانسانية بعد أن كانت منزوية ضئيلة متممة مريضة تكاد تناظ

نفسها الأخير ، وأنها أحييت موات الأنفس ، وحببت الشجاعة والاقدام ،  
والصراحة والصدق ، والاعتزاز بالنفس ، والمحافظة على الكرامة البشرية بعد  
أن كان ذلك كله في حكم الخيال بل في حكم الفناء .

لقد قلنا ان الاسلام نجح نجاحا باهرا في مقدار وعيه ، واحتفاله بالناحية  
السيكلولوجية في المجتمع الانساني ، ونحن نردد هنا هذا القول مرة ومرتين  
وثلاثا ، فلم نعرف أن ديننا من الأديان أو دعوة من الدعوات الانسانية كانت  
تدرك الطريق الذي ستسلكه الانسانية وكانت تحيط بالخطوات التي ستخطوها  
في مستقبل أيامها فتعمل لذلك عملها وتأخذ من أجل ذلك عدتها ، وتهض بما  
يجب أن يسيطر على ضمير الانسانية إذا ما دخلت في دور الرقي والتحضر  
إلا الاسلام .

وهكذا كانت دعوته إلى المساواة المطلقة التي لا سبيل إلى ازدهار الأخلاق  
الانسانية بدونها ، والتي لا سبيل إلى إحياء الكرامة البشرية بغيرها ، والتي لا  
سبيل إلى تهذيب الانسان وتحضره وسموه بدون هذه المساواة حتى أننا نجد جان  
جاك روسو والفيلسوف الفرنسي يقيم دعائم مذهبه الذي خرج به على العالم في  
القرن السابع عشر الميلادي على هذه الكلمات الثلاث ( العدل ، والاخاء ،  
والمساواة ) والذي قامت من أجله الثورة الفرنسية وحطمت الظلم والطغيان  
ونظام الطبقات . . . ١

وليس ذنب الاسلام أنه قد دخلت فيه عناصر سيئة هو برىء منها أبطلت  
عمل هاتين الصفتين اللتين تحدثنا عنهما وهما : التقريب بين المخلوق والخالق  
والمساواة المطلقة مما سنذهب في الحديث عنه فيما يلي من فصول هذا الكتاب .  
وننتقل الآن بالكلام إلى الصفة الثالثة من الصفات الذاتية للإسلام : وهي  
التدرج في كل ما فرضه من قوانين ، وما شرعه من أحكام ، ولأجل أن نفهم  
السر في ذلك يجب أن لا نهمل دراسة النفس الانسانية ، وأنها لا تركز إلا لما  
تهضمه وتستسيغه وتجد فيه خيرا وسعادتها ؛ ويجب أن لا نهمل كذلك أن  
الاسلام وهو دين العقل ، ودين الاقناع بالحسنى كان محافظا كل المحافظة على



هيئته وجلاله فكان حريصاً على أن يكون مطاعاً دائماً في غير تعنت ولا تعسف ،  
وبدون مشقة أو إرهاق .

ومن هنا شرع الفروض ، والأحكام ، والعبادات ، والمعاملات على فترات  
عديدة هي جملة السنوات التي عمرها الرسول بعد تكليفه بالرسالة إلى أن رجع  
إلى الرفيق الأعلى .

والشيء الذي نستطيع أن نعلل به ذلك : هو أن الإسلام في مرونته ولبقائه  
كان سهلاً ليناً رقيقاً في تكليفه لاتباعه ، وكان حريصاً على أن لا يتعارض البتة  
مع العقل ، ولا مع المنطق ، ولا مع مقتضيات الحياة ، فكان لا يكلفهم شيئاً  
ولا يفرض عليهم أمراً إلا بعد أن يصبح ضرورة عاجلة لهم تتكيف به حياتهم ،  
ونظام معيشتهم ، وبعد أن تستسيغهم عقولهم وتمضممه في حرية وبدون ضغط .  
وكان من ناحية أخرى مراعيًا مصلحة الإنسان وحرية الفردية فلم يشأ أن  
يقبده بأشياء لم تنشأ لها بعد حاجة ملحة لأن الأصل عنده الإباحة في كل شيء  
ما دام لم ينزل فيه تشريع يحدد حدوداً أو يرسم قانوناً ، ولأنه كان دائماً عاملاً  
على التضييق في التقنين للأحكام الشرعية فلم يحتفل بكثير من الأشياء القابلة  
للتبدل والتغير بحكم الزمن والتطور ؛ ولم يكن يعنيه إلا الأشياء والحوادث التي  
يكتنفها الحاضر ويقتضيها في حل مسائله وقضاياها ، ومشاكلة . . . ! ولم يسأل  
البتة عما سيحدث في المستقبل فيفرض له فروضاً ، ويرسم له قواعد ويصدر له  
أحكاماً ، وإنما ترك أمر ذلك لظروف الحياة ولطبيعة الزمان والمكان والحوادث  
وسبيل علاجها حتى يترك مجالاً لحرية الإنسان العقلية ، وحتى لا يتسم بالجمود ،  
ويتصادم مع حقيقة الواقع ، وسنة التطور البشري ، واختلاف نظرة الإنسان  
للأشياء والحوادث ، وحكمه عليها في جيل بعد جيل ، وفي زمان بعد زمان

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه (تاريخ التشريع الإسلامي)  
« من الأمور التي روعيت في التشريع الإسلامي التدرج في التشريع  
وهذا التدرج كان في زمن التشريع ، وكان في أنواع الأحكام التي شرعت  
فالتدرج الزمني ظاهر في أن الأحكام التي شرعها الله ورسوله لم تشرع دفعة واحدة

في قانون واحد وإنما شرعت متفرقة في مئتي إثني عشرين عاماً وبضعة  
شهور حسب ما اقتضتها من الأفضية والحوادث ، وكان لكل حكم تاريخ  
لصدوره ، وسبب خاص لتشريعه ، والحكمة في هذا التدرج الزمني أنه يبسر  
معرفة القانون بالتدريج مادة فمادة ، ويبسر فهم أحكامه على أكمل وجه  
بالوقوف على الحادثة والظروف التي اقتضت تشريعها والتدرج في أنواع ما شرع  
من الأحكام ظاهر في أن المسلمين لم يكلفوا في أول عهدهم بالاسلام بما يشق  
عليهم فعله ، أو ما يشق عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدرج وأخذوا بالرفق  
حتى تكون استعدادهم واستأهلوا للتكاليف ففي أول أمرهم لم تفرض عليهم  
الصلاة فرائض في اليوم والليلة ركعات محدودة في كل فريضة ، بل طلبت  
منهم صلاة مطلقة بالغداة والعشي ، ولم تفرض عليهم الصلاة بعددها وركعاتها  
إلا قبل الهجرة بسنة ، ولم تفرض عليهم الزكاة والصيام إلا بعد الهجرة بسنة  
وكان المكلفون به قبل ذلك ما استطاعوا من صدقة وصوم ، ولم تحرم عليهم  
الخمر والميسر وكثير من عقود الزواج والربا والمعاملات التي كانوا يتعاملون بها  
في جاهليتهم إلا بالمدينة ولهذا كان قوله تعالى ( حرمت عليكم الميتة والدم ولحم  
الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة ) من آخر ما أنزل من القرآن بمرفات  
يوم حجة الوداع .

والحكمة في التدرج في أنواع الأحكام : أنه هو العلاج لإصلاح النفوس  
الجاهلة ، والوسيلة لتقبل التكاليف وامثالها من غير ضجر ولا عنق ، انتهى  
والشيء الذي نحب أن تلاحظه ، وأن تذكره دائماً أثناء قراءتك هذا الكتاب  
أن صفات الاسلام وأركانها وقواعده متصل بعضها ببعض كحل بعضها بعضاً  
بمحيط لو عطل بعضها أو أحدها لا يستتبع ذلك حتماً إبطال عمل باقي الصفات  
والأركان والقواعد وليس غرضنا من ذلك إلا أن نرسم لك الاسلام على  
حقيقته قبل تدخل فيه عناصر غريبة عنه سلم بها في حينها ، وسنوضحها لك فيما  
يلي من فصول هذا الكتاب لنظهر لك فلسفة الاسلام الأخلاقية وخطورته  
التشريعية ، ومرونته التي اتسم بها في عصره الأول أيام النبي وأيام خلفائه الراشدين

ولم يبق إلا أن ننتقل إلى الصفة الرابعة من الصفات الذاتية للإسلام ، وهي أنه نزل في كثير من التكاليف والتشاريح بمحلا ليرتك بذلك مجالا لاجتهاد الانسان ، وليشجع حرية البحث والنظر والتفكير في استقلال ، وليكون مرنا متفقا مع طبيعة التدرج والرقى الانساني ، وليتفق في المنهج التكليفي العملي مع روحه ومبدئه الذي دما اليه في غير موضع من القرآن الكريم . وهو أنه أتى مواجها العقل في كل أمر من أموره ، ونضية من قضاياها ، وحكم من أحكامه ، ولم يقلل من قوته أو يكفر بمزاياه ، وإنما اعترف به ، وجعله مناط رسالته والعامل الأول على التصديق بدعوته

قال القرآن الكريم مشيدا بالعقل ، محكما لياها في كل ما يعرض من مشاكل . وما ينهض من أمور ( أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ) ( وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون ) ( أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ) ( ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا ) ( هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب ) ( ان يتبعون إلا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا ) ( قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ) ( وقل رب زدني علما )

والرسول الكريم يقول ، الدين هو العقل ، ولا دين لمن لا عقل له ، ويقول ، خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت ، ويقول أيضا ، فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد ، ويدعو في صراحة وقوة إلى تحكيم العقل في كل ما يعن من الأمور وبالأخص فيما لم ينزل به تشريع ولم يذكر بحديث وذلك فيما رواه البغوي عن معاذ بن جبل أن الرسول لما أرسله إلى اليمن ، قال كيف تقضى إذا عرض لك قضاء قال أقضى بكتاب الله قال فإن لم تجد في كتاب الله قال فبسنة رسوله قال فإن لم تجد في سنة رسول الله قال اجتهد رأي ولا آلو قال فضرب رسول الله على صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول

الله لما برضى رسول الله ،

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه أوصى أبا موسى الأشعري لما ولاه  
الكوفة قائلاً له :-

( ولا يمنعك قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه  
لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى فى  
الباطل الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك نما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف  
الأشبهاء والأمثال وقس الأمور بنظائرها )

هذه هى الدلائل التى لا تقبل شيئاً من الشك فى اعترافها بالعقل واستخدامها  
له فى استظهار وتفسير ما أجمل من العبادات والمعاملات والحكمة فى مشروعاتها  
كالصلاة والصيام والحج والزكاة والحدود ثم الهبة والوصية والميراث والنكاح  
وكافة التشريعات الأخرى .

ونحب بعد ذلك أن نوجه سؤالاين ، لأنفسنا ، ولما يعنون بدراسة  
الإسلام من الوجهة التشريعية وهما :

أولاً : هل التشريع الإسلامى يخضع للبيئة وظروف الزمان والمكان أم  
أن البيئة وظروف الزمان والمكان هى التى تخضع للتشريع .

ثانياً : هل الإسلام يقبل تغيير وسائله ومظاهره فى جيل بعد جيل ،  
وفى زمان بعد زمان ما دام فى ذلك حفظ لجوهره وتحقيق لغاياته ، أم لا يقر  
تغيير هذه الوسائل والمظاهر وإن كانت لم تعد صالحة لتحقيق غاياته ،  
والمحافظة على جوهره .

وجوابنا على السؤال الأول أن التشريع الإسلامى هو الذى يخضع للبيئة  
وظروف الزمان والمكان لأن المقصود من التشريع هو تحقيق مصالح الناس  
والعمل على تمكينهم من التمتع بكل الميزات الإنسانية التى فيها رفاهيتهم وقوتهم  
وسعادتهم ، وعدم التضيق عليهم فى حرياتهم الفردية ، وعدم تكليفهم ما فيه  
مشقة وعسر عليهم .

ولو نظرنا نحن إلى مصالح الناس ، وإلى نظرتهم للحياة وحكمهم عليها نجد

أن هذه المصالح تختلف بالنسبة لهم باختلاف الزمان والمكان ، ونجد من جهة أخرى أن نظرتهم للحياة وحكمهم عليها وعلى الأشياء جميعاً تتميز هي الأخرى مع اختلاف العنصر ومع تغير البيئة . والباحث في التشريع الاسلامي من أول القرن الثاني للهجرة إلى منتصف القرن الرابع يجد أن أئمة الاجتهاد والمشرعين الاسلاميين راعوا طبيعة هذا الاختلاف ، وحكم هذا التميز وما يقتضيه ذلك من اخضاع التشريع الاسلامي للبيئة ولظروف الزمان والمكان فالامام الشافعي رضي الله عنه أنشأ مذهبه من أحدهما قديم وقد أنشأه في العراق والثاني حديث وقد أنشأه في مصر وهما يختلفان عن بعضهما اختلافاً بينا لاشك فيه ولم يأخذ عليه أحد أنه أخطأ أو ضل السبيل ، وإنما عمل هو بما تقتضيه طبيعة الأشياء وطبيعة العادات والتقاليد واختلافها في بيئة عن بيئة وفي أمة عن أمة قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف في كتابه تاريخ التشريع الاسلامي (من الأمور التي روعيت في التشريع مسابقة التشريع لمصالح الناس وبرهان هذا أن الشارع علل كثيراً من أحكامه بمصالح الناس ودل بشواهد عدة على أن المقصود من تشريع الأحكام تحقيق مصالح الناس ، والأحكام تدور مع عللها وجوداً وعدمها ، ولهذا شرع الله بعض الأحكام ثم أبطلها ونسخها لما اقتضت المصلحة تعديلها فقد فرض الاتجاه في الصلاة إلى بيت المقدس ثم نسخه ، وفرض الاتجاه في الصلاة إلى الكعبة ، وفرض عدة المتوفى زوجها حولاً ثم نسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام ؛ والرسول نهي عن ادخار لحوم الأضاحي لأجل الوفود التي كانت بالمدينة أيام العيد ثم أباح ادخارها لما رحلت تلك الوفود ؛ ونهى عن زيارة القبور ثم أباحها فهذا النسخ والتعديل والتعديل في وقت التشريع برهان على أن التشريع الاسلامي ساير مصالح الناس ولهذا المسابقة نفسها راعى الشارع عرف الناس وقت التشريع ما دام لا يهدم أصلاً من أصول الدين فراعى الكفافة في الزواج ، وراعى العصبية في الإرث والولاية وفرض الدية على العاقلة لأن من مصالح الناس أن تراعى عاداتهم وما جرى به عرفهم مادام لا يعارض أصلاً دينياً ولا يجلب ضرراً انتهى )

ثم نجيب عن السؤال الثاني فنقول إن الإسلام يقبل من غير شك تغيير هذه الوسائل والمظاهر ما دام يتأتى من هذا التغيير تحقيق لغاياته في سهولة ويسر وبأوسع طريقة وأدق معنى فالفقر الذي عالجته الإسلام في الزمن الأول بالزكاة وبدعوة القادرين على الاحسان قبل أن تتسع مسائل الحياة وتتعد إلى هذا الحد الذي نراه ، وقبل أن توجد هذه الحضارة المادية وما صحبها من وجود فروع شتى للإنتاج سواء كان ذلك للكاليات أو الضروريات وبالتالي لكثرة المطالب التي لا يمكن أن يقنع بغيرها إنسان اليوم بعكس زميله بالأمس ثم لما اعتبر حالة المجتمع الانساني من انتشار العلم وكثرة الصناعات وتفرعها ووجود أبواب كثيرة لاستغلال العقل ولاستغلال الأيدي العاملة لكل ذلك نعتقد أن محاربة الفقر والقضاء عليه بالوسيلة الأولى غير مجد وغير مؤد إلى الهدف الذي ينشده الإسلام وهو خلق مجتمع غني قوى أفراده متعاونون بعضهم مع بعض ، ثم لتلاشي بعض هذه الأصناف التي كان لها حق معلوم في الزكاة .

والشيء الخليق إذا بتحقيق الغاية من مشروعية الزكاة وهي محاربة الفقر تتأتى في أن الدولة هي المسئولة عن الفرد بجعله مواطناً صالحاً نافعاً فإذا كان الفقر ناشئاً عن بطالة وجب عليها أن تخلق له العمل ، وإذا كان ناشئاً عن عجز من مرض أو شيخوخة وجب عليها أن تعالجه حتى يشفي أو تؤمنه ضد ذلك المرض والشيخوخة إذا كان ميثوساً منها أما إذا كان ناشئاً عن جهل فيجب عليها أن تعي كل جهودها للقضاء على هذا الجهل الذي يعتبر وصمة عار في جبين الإنسانية وفي جبين الوطن ولا غبار عليها في أن تفرض من الضرائب التصاعديّة ما تشاء لأن هذا ضريبة واجبة على كل مواطن يفرضها التكافل الانساني وتوجهها العدالة الاجتماعية ، ولأن واجب الدولة باعتبارها مسئولة مسئولية دقيقة بكل ما تحمل هذه المسئولية من معان عن جميع المواطنين يفرض عليها ذلك فرضاً لا مفر لها من النهوض به .

واننا نجد الإسلام في عصره الأول قبل أن تتعد ظروف الحياة بهذا الشكل الذي نراه وقبل أن توجد كل هذه المظاهر المادية وما نشأ عنها من

كثرة المصالح التي أوجدت علاقات جمّة خطيرة بين الناس بعضهم بعضاً لا غنى لهم عن تنظيمها في شيء من الحق والعدل إذ ما أرادوا أن يعيشوا في سلام ووثام أقبول نجد الاسلام قد أوجب الاشتراك والتكافل بين الغني والفقير والقادر والمعدم في حظوظهم من الحياة فقال تعالى ( وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ) وهذا دليل على أنه كان مقدراً سنة التطور البشري واعياً العرامل التي لن تؤثر في حياة الأفراد فقط ، وإنما سيتأثر بها العالم الانساني أجمعه في كل ما يمتوره من أحداث ، وما يلم به من مشاكل . . . !

وليس رأينا هذا الذي ننادى به لغوا أو بدعا من القول وهو أن الاسلام يقر تغيير وسائله التي عمل بها الرسول وعمل بها صحابته في كثير من المعاملات والحدود لأن العبرة والمعزل على تحقيق الغاية وليس على المحافظة على الوسائل نعم ليس رأينا هذا لغواً ولا بدعا فإننا رأينا الشرع يربط بين كل ركن من أركانه ؛ وبين تحقيق مصلحة وفائدة للإنسان ونجده قد غير وبدل ونسخ أحكاماً وأتى بغيرها لما اقتضت مصلحة الإنسان ذلك كما رأيت فيما ذكرناه لك عن الأستاذ عبد الوهاب خلاف .

ومن المحقق أننا لا نطمح في الوسائل التي عمل بها الإسلام في عهده الأول ، ولا يمكننا نعلم أن الزمن حكمه ولليته تأثيرها ، في اصطناع الوسائل وكيفية العلاج ونظرة يسيرة إلى عصور الخلفاء الراشدين تبين لنا ما أخذ به كل خليفة نفسه من الإجهاد الشخصي ، والعمل في إستنباط الأحكام ورسم الوسائل في حرية واستقلال كما تقتضى ذلك مصالح الناس حتى أن أحد الخلفاء الراشدين وهو عمر بن الخطاب رضی الله عنه لم يعمل على تغيير الوسائل فقط وإنما عطل عمل حد من حدود الاسلام لما اقتضت الضرورة تعطيله ، وانتفت العلة من إقامته وهو جد السرقة في عام المجاعة .

قال الأستاذ خلاف ( ومن استقرأ أحكام الخلفاء الراشدين ، ومن سار على سنتهم تبين أنهم في تشريعهم وقضائهم وتنفيذهم صدروا بين المصالح المرسله ولم يلتزموا أن يقرم شاهد باعتبار المصالح لأن هذا الالتزام فيه حرج ،

وتضييع مصالح الناس فأبو بكر استخلف عمر وجمع صحف القرآن التي كانت مفرقة  
وحارب مانعي الزكاة ؛ ولم يقتص من خالد بن الوليد لما قتل مالك بن نويرة ،  
وعمر لم يستخلف أحداً وترك أمر المسلمين شورى ، وأمضى الطلاق الثلاث  
بلفظ واحد وأسقط سهم المؤلف لفة قلوبهم ، وعطل حد السرقة في عام الجماعة ،  
وأجرى النهر في أرض محمد بن مسلمة جبراً عنه ، ووضع الخراج ودون  
الدواوين وعثمان جدد آذاناً ثانياً يوم الجمعة ، وجمع المسلمين على مصحف  
واحد وأحرق ما يخالفه وورث زوجة من طلق زوجته في مرض موته فراراً  
من أن ترثه ومستند كل منهم فيما صدر عنه مطلق المصلحة )

هذه هي الصفة الرابعة من الصفات الذاتية للإسلام أما الصفة الخامسة  
وهي أنه جعل العبادات جميعها وسائل لا غايات فتجلى في أن الإسلام ليس دين  
رهينة وليس دين غلو في العبادات قال الله تعالى ( وابتغ فيما آتاك الله الدار  
الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ) ( وقال ) فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في  
الأرض وابتغوا من فضل الله ) وعن عائشة رضي الله عنها قالت ( صنع رسول  
الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه ، أي تسامح ولم يتشدد أو يتعمق ،  
فبلغ ناساً من أصحابه فسكرهوه وتنزهوه وتنزهوا عنه فقام خطيباً فقال ( ما بال  
رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فسكرهوه وتنزهوا عنه فوالله لأنا أعلمهم  
بالله وأشدهم له خشية ) . وعنها أيضاً قالت ( ما خير رسول الله صلى الله عليه  
وسلم بين أمرين أحدهما أسر من الآخر إلا اختار أسرها ما لم يكن إثماً فإن  
يسكن اثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه  
إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل ) ثم ما حدث بشأن هذه الوفود التي جاءت  
إلى يد النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال : -  
جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي صلى الله عليه وسلم فلما أخبروا كأنهم  
تقاؤها ، أي عذرها قليلة ، فقالوا وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر  
الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فقال أحدهم أما أنا فبأنى أصلي الليل أبداً وقال  
آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر وقال آخر : أنا اعتزل النساء فلا أتزوج أبداً



جاء اليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما  
والله إنى لأخشاكم لله وأنقاكم له لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد وأتزوج  
النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى ،

هذه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية تدلنا بوضوح لا يقبل الجدل على  
أن غاية الاسلام من إقامة هذه العبادات ليس هو العبادات للعبادات فقط ، وإنما  
هذه العبادات جميعها وسائل لتحقيق غايات لأنه ربط بين جميع العبادات  
المختلفة وبين أعمال الانسان ، ولم يفصل الدنيا عن الآخرة ، وإنما جعل ما يكتسبه  
الإنسان في دنياه من عمل صالح يسكون ثمنا يقدمه لحظوته في حياته الآخرة ...  
بل انه قرر ما هر أخطر من ذلك إذ لم يكتف بربط أعمال الإنسان المادية  
وصفاته الذاتية بكافة العبادات ، وإنما قرر بأنه إذالم تكن النتائج الفعالية للإنسان  
والمرتبة على هذه العبادات مما يتفق مع الدعوة في عمومها من نفع وصلاح ،  
وفائدة للمجتمع فلا خير في هذه العبادات قال القرآن الكريم ( إن الصلاة  
تنهى عن الفحشاء والمنكر ) وقال لرسول عليه السلام ( المسلم من سلم المسلمون  
من لسانه ويده ) فالعبادات إذا ليست الا وسائل لتقويم الأخلاق ، وتربية  
النفوس ، وعلاج الأمراض النفسية والاجتماعية لتكوين مجتمع انساني راق  
مفيد على غاية من الصحة والقدرة والجمال النفسى ، والجمال الخاق ، أفراده ذو ضمائر  
حية ، واحساسات مرهفة

فالصلاة ليست حركات رياضية يقوم بها الإنسان خمس مرات في اليوم  
والليلة ، وإنما غاية من مشروعاتها تجديد الثقة والايان بالله ، وإستشعار  
المبادئ الاسلامية من الأمانة ، والصدق ، والوفاء والايثار - وكل ما هو  
حميد نبيل مما يعتبر جوهر الاسلام الحقيقى ، وأهم أساس ائنت عايه أصوله ،  
وقام عليه ما أوجه من مختلف العبادات : والصيام ليس هو الامتناع عن تناول  
الطعام والشراب من مشرق الشمس إلى غروبها ، وإنما هو يهدف من وراء  
ذلك إلى تهذيب الأخلاق وتربية النفوس ، وتعويد الانسان على التغلب على  
شهوات نفسه والتحكم فى ميوله ليكون انساناً قويا قادراً على السيطرة على

عواطفه و على نفسه الأمانة بالسوء ، والتي كثيراً ما تجلب له في حياته الشقاء والدمار ثم ليستطيع بعد ذلك بقوته وتؤدته ، وصقل نفسه أن يحل ما يعرض له من المشاكل ، وأن يواجه ما يلم به من الأمور في حزم ، وعزم ، وفي صبر وأناة : والزكاة ليست هي أن يؤخذ من مال الغني قدر معلوم طوعاً واختياراً أو قسراً وجبراً ، وإنما هي تنشُد فوق ذلك استشعاره وجوب التضامن الاجتماعي ، وأنه مسئول بطريق غير مباشر عن مواطنيه من الفقراء والمعدمين ومن لم تمنحهم الحياة ما منحته من عزة وقوة ومال ، فالزكاة ليست إلا تأكيداً لتحقيق هذه المثالية التي دعا إليها الإسلام من وجوب التعاون ، والتكافل ، والتضامن بين الناس بعضهم بعضاً حتى أن النبي عليه السلام يقول ( ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه ) ثم يأتي بعد ذلك الحج و نعتقد أن الغاية التي ينشدها من وراء ذلك هو تحقيق المساواة بطريقة عملية غاية في الكمال ثم استشعار الإنسان ما لاقاه الرسول في دعوته من ضنى ، وتعب ، وجهاد ، وعذاب لتستعذب النفوس الألم والتعب في سبيل ما تدعو إليه من مبدأ ، وما تدودعنه من فكرة ولتتعورد على حياة البساطة والتقشف والمشاق التي يحياها ويبلوها الحاج إلى بيت الله ، ثم تهيبه مكان ووقت لاجتماع المسلمين من كافة بقاع المعمورة للتشاور فيما يلم بهم من أحداث ، وما يطرأ عليهم من أمور

هذه ، هي الحكمة والغاية كما نفهما من مشروعية العبادات وهي كما ترى وسيلة لتحقيق أشياء فعلية مادية للإنسان يقوم بها أخلاقه ويصلح بها حياته والصفة السادسة : هي أن الإسلام راعي حرية الفرد مادامت لا تتعارض مع مصلحة المجموع وذلك لأنه لم يرسم للإنسان خططا ولا طرقا يسير فيها ولا يحيد عنها البتة ، وإنما قرر أن يعمل الإنسان ما يعتقد ، وأن يسكون حر التفكير مستقل الرأي في كل ما يطرأ له من أشياء ، وما يلم به من أمور ، وأن يجتهد دون أن يتأثر بأي عامل خارجي يضيق عليه ، ويحد من حريته ثم لا حرج عليه بعد ذلك إن أخطأ في الرأي أو الاجتهاد ( فللمجتهد أجران إن أصاب وواحد إن أخطأ )

هذه الحرية هي فيما يختص بحياة الانسان العقلية والفكرية أما فيما يختص بحريته الاجتماعية والاقتصادية فلقد راعاها الاسلام كل المراعاة فأمن بالحقوق الفردية للإنسان واعترف بشخصيته وحافظ على كيانه من أن يتلاشى في المجموع فما تشريعه الاجتهاد لكل فرد قادر عليه ، وما عدم تحديده للملكية المطلقة التي يمتلكها الانسان بجهده وعمله وكسبه الشريف الاعتراف منه بالفرد وما يرجي منه من نفع وخير وإصلاح لبيئته والمجتمع الذي يعيش فيه ولذلك نراه قد أحاط هذه الحرية الفردية بالنسبة للمجتمع وبالنسبة للدولة بشيء من التحفظات التي تجعل لهذه الحرية ثمنًا يجب أن يؤدي، وواجبات من الواجب عليه أن ينهض بها، ففضلاً عن أنه أوجب الزكاة فقد أوجب أيضاً التكافل والتضامن بين الناس بعضهم بعضاً فالرسول يقول ( ليس منا من بات شبعان وجاره جائع ) تأمل هذه الجملة ليس منا . . . ! أي معنى خطير تؤدي إليه

فهذه الحرية يجب أن تقيد بعض الشيء ، وأن تقف عند حدها إذا تعارضت مع مصلحة المجتمع ، وتنافرت مع تكافله وتضامنه وقوته وازدهاره ولو قارنا نحن هذه الحرية الفردية التي لا يحدها شيء مادامت تتفق ومصلحة المجتمع وهذه الحرية عندما تنكش وتصبح لا شيء إذا اقتضت الضرورة ذلك المصلحة العامة

أقول لو قارنا هذه الحرية الفردية المترنة بما اصطنعته المذاهب الاجتماعية والاقتصادية المعاصرة نجد أن الاسلام قد فاقها جميعاً في إتفاه مع سيكولوجية النفس ، وسيكولوجية الضمائر .

فبعض هذه المذاهب قد جحد بالحرية الفردية ، وجعل الانسان يتلاشى في المجموع ، ريدوب في الدولة فليس له كيانه الخاص ، ولاحياته الاستقلالية، وإنما هو بن للدولة فهي مسؤولة عنه متكفلة به فواجب عليه ازاء ذلك أن يفنى وجوده في وجودها ، وأن لا يعمل لنفسه ولمنفعته الذاتية بل كل عمله لها، فالحرية الفردية عبث لا طائل تحته مساوئها أكثر من محاسنها بل إنها ليس لها محاسن البتة لأنها تخلق المشاحنات والتناؤد ، والتقاطع بين أبناء الدولة بعضهم بعضاً

فلا شيء غير الدولة ، ولا عمل الا ما تتطلبه مصلحة الجميع فمن يعمل ما يحسنه  
أو ما يطلب منه القيام به وفي مقدوره أداءه يستطيع الأكل والعيش ومن رغب  
عن العمل وآثر البطالة لا غذاء ولا عيش له

هذه هي نظرية المذهب الأول وهو المذهب الشيوعي الذي أخذته روسيا  
عن كارل ماركس وآمنت به على يد لينين

أما المذهب الآخر وهو مذهب الرأسمالية فتحمل عليه الآن امريكا  
وبريطانيا قبل أن يحكمها حزب العمال ، وهذا المذهب يمنح الانسان حريته الفردية  
بأوسع معانيها وأبعد أشواطها ليس فيما يختص بحريته العقلية والفكرية وما يركن  
إليه من مبادئ ، ويؤمن به من عقائد فقط ، وإنما فيما يختص بعلاقته بالمجتمع ،  
وبعلاقته بالاقتصاد العام للدولة بدعوى أن الفرد في حريته هذه التي لا ترسم  
خطاها الدولة ، ولا تقيدتها الحكومة بأى قيد يكون مدفوعا بعامل التنافس ،  
ويكون مدفوعا بغريزة حب الكسب ، وغريزة حب التفوق والامتياز ، واستعباد  
الجهد والعمل على توفير انتاج كثير لا ينتفع به وحده ، وإنما يشاركه في فائدته  
مواطنوه ولو من طريق غير مباشر

فالمنفعة الذاتية هي وحدها التي تعمل عملها في نفسه ، وعقله وعواطفه  
فيدفعه ذلك إلى أن يبحث عن طرق كثيرة مجدية يبذل فيها نشاطه وجهوده  
ليكون رموس أموال ضخمة يستثمرها فيما يعود عليه بالمنفعة بطريق مباشر ،  
وفيما يعود على وطنه ومواطنيه بطريق غير مباشر

هذه هي نظرية كل من الدولتين المتنافرتين ( روسيا في المشرق والولايات  
المتحدة في المغرب ) في طريقة فهمهما للحرية الفردية ؛ ومدى نفعها أو شرها  
على الانسان ، ومدى جدواها على الدولة والمجتمع أو ضررها عليهما .

ونحب أن نقارن هاتين النظريتين بما صوره الاسلام ودعا إليه لنذكر مدى  
نجاحه في فهمه كما قلنا لسبب كروجه النفوس ولسبب كروجه ضمير المجتمع لتكوين  
مجتمع إنساني يؤمن بالعدالة ، ويتبع المثل العليا للإنسان ونحب من القارىء  
أن لا يلتفت البتة إلى حالة المسلمين اليوم وأن لا يفسر الاسلام على ضوء

ما عم عليه من تأخر وضعه لأننا ندرس الاسلام في ذاته وحقائقه لا المسلمين اليوم  
في حالتهم المؤسسة المفزعة

إن تلاشى الحرية الفردية ، واعدامها من نفس الانسان وعقله ونظراته  
للحياة ضرر من غير شك لأن ذلك يفقده أعظم ميزة فيه وهي ميزة الاختيار  
لأن شعوره بأنه مسير لا مخير يقضى على ملكة الابتكار عنده ، ويسلبه كل  
صفة من صفات الصبر ، ونجشم المصاعب والمخاطر ، واستعذاب الألم في  
سبيل العمل وما يرجو تحقيقه لنفسه من ميزات يمتاز بها عن غيره بدافع  
المنافسة ، وبدافع حب الذات

كما أن هذه الحرية الفردية التي لا يحدها حد ، ولا يقف أمامها شيء تخاف  
نوعاً من الطبقة الرأسمالية الاستغلالية التي لا تعترف بحقوق المجتمع وواجب  
الدولة فتؤديه من نفسها ، وتكون مسؤولة مسؤولة ضمنية عن أفراد الأمة المتعطئين  
أو العاجزين عن العمل ، ووجود هذه الطبقة خطر من غير شك على الدولة  
يقضى على وحدتها ، وسم زعماها يسرى في سرايينها لأنها تشجع الجهل والبطالة  
ولا تحارب الفقر والمرض

إذا ما هو موقف الاسلام بين هاتين النظريتين ؟

إن موقف الاسلام يجمع بين هاتين النظريتين في شيء من التعقل ، والتدبير  
والروية ، وفي شيء من الانسجام والاستقامة ، والمعرفة الصحيحة لأخلاق الانسان  
لقد دعا الاسلام إلى الحرية المطلقة ما لم يكن ذلك على حساب المجموع  
فالانسان حر في أن يعمل ما يشاء ، ويمتلك ما يريد بشرط أن يكون من وراء  
ذلك نفع وفائدة للمجتمع عن طريق المشاركة ، وعن طريق تبادل المنفعة لأن  
المجتمع أو الدولة هي المجال الطبيعي الذي استثمر فيه نشاطه ، وكون منه  
نتاجه ، وارتجع رءوس الأموال المنقولة والغير منقولة ، فالاسلام لا يقر  
البتة الرأسمالية الجشعة التي لا تؤمن بمبدأ التكافل ، والتضامن بين أبناء الدولة  
بعضهم بعضاً .

قال القرآن الكريم (والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل

الله فبشرهم بعذاب أليم) وقال (ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده  
يحسب أن ماله أخله) وقال أيضا (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)  
ثم إن الاسلام نهى عن أن يتلاشى الفرد في المجمع لأن ذلك فيه مخالفة  
للنظام الطبيعي في الحياة ، ولأن ذلك يقتل في الفرد روح المغامرة ، وحب  
النشاط والجهد بدافع المنفعة الذاتية ، ولأن فيه كذلك ظلما يصيب الفرد  
العامل النشيط المفيد ذا المواهب بالنسبة للفرد الخامل الكسلان المعدم  
المواهب وليس الظلم منصبا عليه فقط ، وإنما يشمل ذويه أيضا . . . فكما  
أنهم يرثون منه طباعه الجسدية وأخلاقه النفسية ، وصفاته العقلية فالواجب يقضى  
حتمًا أن يرثوا عنه ما يكونه من مادة ، وما يمتلكه من مال

ولقد رأينا النبي صلى الله عليه وسلم لم يرض أن يتنازل إنسان عن ماله ولو  
للصدقة كما في حديث سعد بن أبي وقاص حينما كان مريضا وعاده النبي صلى الله  
عليه وسلم وكان عازما على الصدقة بثلثي ماله أو بماله كله ، فسأته النبي عما ترك  
لولده ، فقال هم أغنياء فلم يقبل النبي أن يتصدق بغير العشر ، وما زال يراجع حتى  
رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرمة الزيادة فوق ذلك وقال  
(الثلث والثلث كثير إنك إن تذر ورتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة  
يتكففون الناس )

هذه هي نظرية الاسلام : حرية مطلقة مع خضوع تام لنظام التعاون ،  
ولقانون التكافل والتضامن ؛ ووجوب التأمين الاجتماعي الذي يساهم فيه أبناء  
الوطن جميعا

وننتقل بعد ذلك إلى الصفة السابعة من الصفات الذاتية للاسلام وهي أنه  
جوز المحظورات عند الضرورات ، ولم يستثن من ذلك أي شيء ، حتى أول  
ركن من أركانه ، وأهم قاعدة من قواعده وهي التوحيد بالله فقد شملها هذا  
التجويز أيضا قال تعالى ( إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ) - ثم الصلاة  
والصوم والحج والزكاة ، وكل ركن فعلي من أركان الاسلام قد جوز الاسلام  
تركه متى كان في آدائه أي ضرر أو إيذاء للإنسان وفي هذا أكبر دليل على أن

الاسلام ليس دين رهينة ولا دين غاو في العبادات ، وأنه كما قلنا لا ينشد من وراء أوامره التعبدية إلا اصلاح حال الانسان نفسياً وخلقياً ومعاشياً فقد حرص دائماً على أن يحافظ على كرامته ، وأن يشعره بوجوده ، وأن يكون معه مهلاً لنا ما لم يكن في ذلك إيذاء له أو للمجتمع الذي يعيش فيه ومالم يكن من وراء ذلك أخطاء يرتكبها أو اضرار تصيبه في نفسه أو عقله أو حياته المعيشية ، فكان دائماً يجوز الرخصة للانسان في كل ما يشق عليه فعله ، وفي كل ما يضره تركه

عن عائشة رضی الله عنها قالت : صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً فترخص فيه فبلغ ناساً من أصحابه ففكروه وتزهوه ، وتزهوا عنه فقام خطيباً فقال : ما بال رجال بلغهم عنى أمر ترخصت فيه فكروه وتزهوا عنه ؛ فوالله لآنا أعلمهم بالله ، وأشدهم له خشية ،  
وعنها أيضاً قالت :

( ماخير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين أحدهما أيسر من الآخر إلا اختار أيسرهما مالم يكن اثماً ، فإن يكن اثماً كان أبعد الناس عنه ، وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله عز وجل )  
أما الصفة الثامنة من صفات الاسلام الذاتية ، فقد قرر أنه إذا تعارض النقل والعقل أخذ بما يتفق والعقل فتظهر ظهوراً واضحاً في أن دعوة الاسلام قائمة على مراجعة العقل ، ومعتمدة على الاتفاق معه في كل ما جاءت به من التشرييع والأحكام والدليل على ذلك أنها لم تؤيد نفسها ، وتبرهن على حقيقتها بالمعجزات الخارقة للعادة ، وإنما كانت في طبيعتها سهلة لينة مستساغة وإذا كانت هذه الدعوة بما فيها من تشارييع وأحكام ، قد أقامت دعائمها وأسست أصولها على اقتناع العقل الناضج البصير ، وإيمانه بها فإنها تخضع من غير شك لحكم العقل فيما يتعارض مع النقل في الأحكام والتشرييع ، وكافة القوانين الأخرى التي أتت بها  
قال الأستاذ الامام محمد عبده ( أجمع أهل الملة الاسلامية إلا قليلاً ممن

لا ينظر إليه أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى في النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض إلا مرأى الله في علمه ، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قواعدهم اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل )

ثم ان الخلفاء الراشدين في أيام خلافتهم قد حكموا العقل في كثير من الأمور ولم يرعوا حرفة النقل فأبو بكر رضى الله عنه استخلف من بعده عمر بن الخطاب وحث المسلمين على اتباعه لما وجدته فيه من ميزات لا تتوفر عند غيره من الصحابة ، ثم انه لم يقتص من خالد بن الوليد لما قتل مالك بن نويرة ، وعمر ترك أمر المسلمين شورى من بعده ، وامضى الطلاق الثلاث بلفظ واحد ، واسقط من الزكاة سهم المؤلفه قلوبهم ، وعطل حد السرقة في عام المجاعة ، وأجرى النهر في أرض محمد بن مسلمة جبراً عنه وعثمان لم يقتص من عبيد الله بن عمر بن الخطاب لما قتل الهرمزان وجفينة وابنة أب لؤلؤة مع أن النص صريح في أن يسرى عليه القصاص ؛ وفعل غير ذلك أشياء خطيرة لجمع الناس على مصحف واحد ، وأحرق ما يخالفه وورث زوجة من طاق زوجته في مرض موته فراراً من أن ترثه وترك الحرية لصحابته في انتقاء الأموال واستكثار الضياع ، وامتلاك المجوهرات ، والحياة المترفة التي انغمسوا فيها ؛ ولم يرفى ذلك غضاضة ، ولا حيدة عن الدين .

والصفة التاسعة وهي أنه جعل احكامه مرنة تخضع في طبيعتها لظروف الزمان والمكان وطبيعة الحوادث وحقيقة الواقع ومصالح الناس فاستطيع أن نستشفها وندرکها من روح الاسلام التشريعية ، ومن أنه ربط حكمة التشريع بمصلحة الناس ؛ وتنظيم حياتهم ، وما يعود عليهم من نفع وخير ؛ وما يمكن أن تعالج به أمراضهم الخلقية والنفسية في طور من حياتهم بعد طور ، وفي جيل بعد جيل

وليس أدل على أن احكام الاسلام التشريعية من قضايا وحدود تخضع لظروف الزمان والمكان ، ولطبيعة الحوادث ، وحقيقة الواقع . . . ليس



أدل على ذلك من أن الله شرع بعض الأحكام ثم نسخها وشرع غيرها فلقد فرض الاتجاه في الصلاة أولاً إلى بيت المقدس ثم نسخه وفرض الاتجاه إلى الكعبة لما اقتضت مصالح الناس وظروفهم ذلك ، ثم فرض عدة المتوفى زوجها حولا ونسخه وفرضها أربعة أشهر وعشرة أيام وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عطل حد السرقة في عام المجاعة ، لأن الغاية من إقامة هذا الحد لم تعد مجدية مع وجود هذه المجاعة ، ومن هنا نرى أن الاسلام لا يسأل الا عن أيسر طريق لتحقيق مبادئه العامة وغاياته المطلوبة وهي خلق مجتمع قوى نظيف أفراده ذى ضمائر حية ، واخلاق سامية ، وصفات نبيلة

فهذه الأحكام التي فرضها ، والحدود التي أقامها ما هي إلا وسائل لتحقيق غايات ولا مانع البتة من تغيير هذه الوسائل متى كان في ذلك محافظة على الجوهر وتقريب لتحقيق الغاية من فرض الأحكام وإقامة الحدود فقطع يد السارق ورجم الزاني ، وجلد شارب الخمر ، والقصاص من القاتل العمد بإعدامه . . كل هذه الأحكام والحدود رائعة جداً ومجدية للغاية إلا إذا انتفت البواعث والضرورات التي تبعد بينها وبين الغاية من مشر وعيها

فالسارق لا تقطع يده إلا إذا توفرت في السرقة نية الغدر والاعتماد على الغير والعبث بنظام المجتمع ، وإلا إذا شاعت في المجتمع روح الفوضى والاستهتار ، وكثرت حوادث السرقة كثرة فاضحة فيكون علاج ذلك القسوة والصرامة لمن يرتكب جرم السرقة ، وليست إقامة الحد على السارق انتقام منه لذاته بقدر ما هو عظة وعبرة ، وراذع للغير من أن تسول له نفسه فعل ذلك ، ثم يجب قبل ذلك أن تتوفر لكل انسان الحياة الكريمة التي يجب أن يجيهاها ، وان يستشعر أن المجتمع مضمأن معه في حياته ، وأن الدولة مسؤولة عنه مسؤولة أكيدة ، فهي التي تعالجه إذا مرض . . وتوجد له العمل إذا تعطل ، وتؤمونه ضد الجوع إذا لم يجد ما يقتات به

إذا تحقق كل ذلك ، وانتفت المبررات والضرورات للسرقة كان في إقامة هذا الحد على السارق علاجاً حاسماً قوياً في استئصال شاقة هذا المرض الخطير

الذى لو ترك لفضى على كيان المجتمع ، ولبدد شمل الأمة ، وجعلها في حالة انهيار يفضى بها إلى طريق الفناء .

وليس في هذا الحد الذى شرعه الاسلام قسوة ، ولا وحشية كما يزعم خصوم الاسلام ذلك . لأنه قبل أن يرسم هذه الحدود شرع فروضاً أخرى من الواجب العمل بها ، والا نصياغ لها ، فالزكاة وهى نوع من التكافل بين الغنى والفقير والقوى والضعيف ، والقادر والعاجز فرضت على المسلمين قبل نزول هذه الحدود ، ثم المسؤولية التى حملها الشارع ولى الأمر ، وجعل لها معنى من التضامن ، والتعاون فى الحياة ومن الواجبات الإنسانية المتبادله ( كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ) وجدت أيضاً مع وجود الدعوة لأنها هى الروح التى استلمها الاسلام فى تشريعه ، وفى مبادئه وصفاته التى ظهر بها للناس ، وفى هذه المؤاخاة التى سنها رسول الله بين المسلمين بعضهم بعضاً حتى أصبح الايثار خلقاً من اخلاقهم ( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) ، فوجود السارق أو السارقة بعد ذلك هو من الخشاشات السامة ، ومن الأمراض الخطيرة المعديّة التى يجب أن تستأصل شأفتها ؛ وأن يقضى عليها قضاء لا هوادة فيه فليضح بالفرد لتقطع يده ولتشوه خلقته ما دام فى ذلك محافظة على حقوق المجتمع وأمنه ، وما دام فى ذلك عظة وعبرة ماثلة لمن تسول لهم انفسهم السرقة حتى يرعوا ، وحتى يتعدوا عن هذا الطريق الخطر المشين

وليس أدل على أن الاسلام لم يكن يراعى ويحرص فى كل ما أمر به من حدود وشرعه من فروض الاستقامة الانسان ومصلحة المجموع أنه فى كل ما أوجبه من عقاب على كل من يرتكب جرماً لم يكن يريد الانتقام من الانسان حبا فى الانتقام ، بل لم يكن يريد الانتقام جزاء وفاقاً على ما أقدم عليه من المعاصى والسيئات فقط ، وانما كان فوق ذلك يريد المحافظة على حقوق الغير ، ويعمل على إبادة هذا الوباء من الأمة بالقضاء عليه فى قسوة وصرامة ، ولذلك نرى عقاب السارق الذى تتكرر منه السرقة مرات ، ولا يردعه ما لقي من عقاب لأن السرقة أصبحت طبعاً وغريزة فيه . . . نرى عقاب مثل هذا السارق

( أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض )

فتساوى النقي بالقطع فيه أبلغ الدلالة على أن الاسلام لم يكن يريد إلا علاج هذا الوباء الخطر بما يصلح له من كافة الطرق الموصلة الى سرعة العلاج ليبراً منه المجتمع . ولا يتحمل مساوته أى فرد من الناس

وهكذا نجد الاسلام فى كل فروضه ، وتشريعياته لايسأل إلا عن الغاية وأقرب السبل لتحقيقها . ولا يلتزم وسائله الأولى أبداً فلو تأتى علاج السرقة والقضاء على الزنا وشرب الخمر ومكافحة القتل بغير هذه الروادع والحدود التى فرضها لما مانع الاسلام فى ذلك البتة ولاقره فى شىء من القوة والحماص

والصفة العاشرة من هذه الصفات . أن الاسلام حارب الكهنوتية والسلطنة الدينية فلكل إنسان نير البصيرة ناضج العقل الحق فى طرق باب الاجتهاد ولو كان من عامة الناس . وهذه الصفة تقتضينا أن نراجع ماقررناه فى غير موضع من هذا الكتاب وهوربطنا بين العقيدة وتطورها فى الانسان ، وبين تطوره هو فى قوة مداركه وسير تحضره . . . ! فليس هناك شك فى أن الايمان بالفرد والاعتراف بذاتيته وحريةه ، هما من الدلالات القوية على تحضره وقوة إدراكه ، ووزنه الصحيح للامور . والاسلام جاء بعد أن سبقته ديانتان سماويتان ، وديانات أخرى لاحصر لها ، ولكنها جميعها لم تبرأ من النظام الكهنوتى . ومن قيام السلطات الدينية التى كانت حائلا شديداً منيعاً بين الانسان وبين حريةه الفكرية وإرادته العقلية . التى قيدت الانسان ليس فى حياته الاجتماعية فقط ، وإنما فى همساته وخفقاته ونجواه مع نفسه ، وليس ذلك إلا إيمان منها بقصور الانسان ، وعجزه ، وعدم اعترافها بحريته وتقديرها لذاتيته ولكن الاسلام جاء والانسان حائر مضطرب يحاول أن يستنقذ نفسه من حياته هذه ، وأن يثب الى الدخول فى طور آخر من أطواره فهد له هذا الطريق . وأخذ بيده نحوه فأمن بذاتيته ، وأخذ يخاطبه فى كل مادعا إليه من مبادئ العقل والمنطق دون ضغط أو تعسف

يقول القرآن الكريم ( لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ) .  
ويقول ( وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر )

هذا الإيمان بالعقل ، والمحافظة على حريته هما من الصفات البارزة في  
الاسلام ، هذا الدين الذي كان بمثابة ثورة فكرية عالمية أخذ العالم ينظر اليها  
دهشا معجبا مؤمنا

لقد أوجب الإسلام الشورى فقال تعالى ( وشاورهم في الأمر ) . وقال  
أيضاً ( وأمرهم شورى بينهم ) فقطع بذلك كل سبيل على قيام الكهنوتية أو  
على وجود شيء من هذه السلطات الدينية حتى أن بعض الصحابة كان يخاف  
الرسول في أمر من الأمور فينزل القرآن مخالفاً للنبي متفقاً مع رأي الصحابي  
كما حدث في أمر أسرى بدر عندما استشار النبي صحابته فأشار عليه عمر بضرب  
رقابهم فقال ( يا رسول الله . هم أعداء الله . كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ،  
اضرب رقابهم هم رموس الكفر وأئمة الضلالة يوطئ الله بهم الإسلام . ويذل  
بهم أهل الشرك ) . وأشار أبو بكر وجمهور المسلمين بقبول الفداء لقبول النبي  
الفداء وأطلق سراح الأسرى فنزلت هذه الآية القرآنية ، ما كان لني أن يكون  
له أسرى حتى يشحن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله  
عزيز حكيم ، فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لو نزل  
بنا عذاب مانجا إلا عمر )

ولقي عمر (١) بن الخطاب رضي الله عنه وهو خليفة رجلا له قضية فسأله :  
ما صنعت ؟ قال : قضى على وزيد بكذا . قال عمر : لو كنت أنا لقضيت بكذا !  
قال الرجل : فما يمنعك والأمر إليك ؟ وأجابه عمر : لو كنت أردك الى كتاب  
الله أو الى سنة نبيه صلى الله عليه وسلم لفاعت ، لكنني أردك الى رأيي ، والرأي  
مشترك . ولهذا لم ينقض ما قضى به على وزيد . . . ! وأبدى عمر يوماً رأياً فقال

قائل : هذا ما رأى الله ورأى عمر فانتهره عمر بقوله : بنسما قلت ا هذا ما رأى  
عمر ، إن كان صوابا فمن الله ، وإن يكن خطأ فمن عمر . وأمسك هنيهة  
ثم قال : السنة ما سنه الله ورسوله . لا تجعلوا خطأ الرأى سنة للأمم .

وهذا عمر أيضا وهو خليفة للمسلمين يساوم رجلا من رعيته في شراء  
فرس ثم يركبه ليجر به فيعطب فيرده الى صاحبه فيأبى . فيقول له لإجعل بيني  
وبينك حكما فيرضى الرجل بقضاء شريح العراقي . فتحاكما اليه . فقال شريح بعد  
أن سمع حجة كل منهما : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت ا  
قال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ا وأقام شريحا على قضاء الكوفة إكباراً  
لنزاهته وعدله ، فبقى عليه ستين عاما

وهكذا عندما ننظر الى أى ناحية من نواحي الإسلام تبرز لنا هذه  
الصفات القوية الرائعة التى انفرد بها وحده وهى السماحة والافتناع بالحجة  
والمنطق والاعتراف برأى الغير والانصياع له متى كان صوابا دون نظر إلى  
منزله ومكانته . . . هذه الصفات هى التى اتسم بها الاسلام فى عهده الأولى  
حتى أباح الاجتهاد لكل إنسان قادر عليه دون نظر الى أى اعتبار آخر  
من الاعتبارات

والصفة الحادية عشرة : أنه جعل الأصل فى الأشياء الإباحة . ونظرة  
يسيرة فى تاريخ التشريع الاسلامى ، وفى الأغراض التى كان يسعى من وراء  
ذلك إلى تحقيقها ؛ وفى النظام الذى رسمه لأتباعه ولما يدينون به . وفى هذه  
القوانين التربوية والأخلاقية التى أقامها وحمل أتباعه عليها حملا . . . نظرة  
يسيرة فى كل هذا تبين لنا هذا اليسر وهذه السهولة التى كانت من أخص خصائصه  
ومن صفاته البارزة الحميدة : يقول القرآن الكريم ( ما يريد الله ليجعل عليكم  
من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ) . ويقول  
أيضا . ( يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العسدة ولتكتبوا  
الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون ) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إدراوا الحدود بالشبهات » . وفي الحديث الذي يروى عنه صلى الله عليه وسلم عندما طلب منه أحد المسلمين أن يقيم عليه الحد لأنه أتى بعملية الزنا فأعجب النبي بروحه ومن اعترافه على نفسه وأخذته الشفقة عليه فأخذ يحاول أن يدرأ عنه الحد بالشبهة فقال له لعلك قبلت . فأصر الرجل على أنه زنا . فقال له له لك عانقت . فأصر كذلك على زناه . فقال له لعلك فأخذت فلم يزد الرجل إلا إصرارا . فلم يسع النبي إلا أن يقيم عليه الحد وهو كاره

هذه الروح السمحة الكريمة ، السهلة اليسيرة . هي التي نلسمها دائما اذا ما عالجنا دراسة التشريع الاسلامي ، واستظهرنا صفاته الذاتية ، وما كان يعرض له من المسائل ويتواكب أمامه من المشكلات . فالتيسير والتخفيف وعدم فرض قوانين وأحكام لمسائل فرضية ، أو لمشاكل محتمة الوقوع هي التي التزمها الاسلام في تشريعه ، واستوحاها النبي وصحابته في أحكامهم وتضامهم وكان من أثر ذلك كله أن جعل الأصل في كل شيء الإباحة لأن ما لا قانون له فهو مباح يقول القرآن الكريم ( يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبدل لكم ) . ويقول رسول الله « أعظم المسلمين في المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألة » . ويقول أيضا : « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » .

والصفة الثانية عشرة أنه جوز ترك الفروض والواجبات إذا كان في أدائها ضرر على الانسان ، فالصلاة والصيام والحج والزكاة وكل فرض آخر من فروض الاسلام ليست إلا وسائل لتحقيق غايات الاسلام ومثله العليا وهي خلق إنسان وتكوين مجتمع قوى نظيف عادل مفيد صالح لنفسه وللحياة التي يحياها يعيش في تقهـدم وحضارة رفيعة زاهية بوحى من بصيرته النيرة وأخلاقه العظيمة . فلا حرج على من يترك فرضاً من هذه الفروض وهو

منظر لتركه لأن الإسلام وهو الدين الذي أتم الله به الديانات كلها أتى متفقاً مع مقدار ما بلغه الإنسان من رقي وما اكتسبه من وعي ونضوج وتطور فإعراي كما شد ما تكون المراعاة في كل ما فرضه من فرائض ، وما أقامه من حدود ومساواة الإنسان وفائدته وسعادته ، فإذا كان هناك ما يؤلمه فعله أو ما يشق عليه عمله أو تركه من الفروض والمحظورات يجوز له أن لا يرعى في ذلك إلا مصلحته . ولا إثم عليه في إهماله للواجبات أو عدم تركه للمحظورات

يقول الله في كتابه الكريم (وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه) ويقول (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه) ويقول في آية أخرى (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) . ويقول أيضاً : ( وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ) .

لم يبق أمامنا إلا الصفة الأخيرة من صفات الإسلام الذاتية وهي أنه في كل ما دعا إليه من ترغيب في الجنة ، وترهيب من النار ، كان في كل ذلك مرتباً ارتباطاً وثيقاً بصفات الإنسان الخيرة أو الشريرة ؛ وما يكتسبه في دنياه من صلاح أو فساد ومن خير أو شر ؛ وشرح هذه الصفة واستيعابها يقتضي أن نسهب بعض الشيء لأنها تحمل معاني خطيرة تتصل بالعالم البشري وما اصطنعه من قيم أخلاقية ، وما اعتبره من مبادئ حضارية

فما لاشك فيه أن الإسلام في أول عهده ، وقبل أن تدخله عناصر هوربية منها ، حارب بكل قواه الغلو في العبادات ، ولم يقبل الرسول ولا صحابته أن يقف مسلم ليله ونهاره على العبادات فقط ، وإنما كان يعتبر ذلك من الأمور المكروهة التي لا يرضاها الله ولا رسوله ، فكان أبغض شيء إلى النبي أن يترك الإنسان أمور دنياه ظهراً ليعمل لآخرته بالتسبيح والتهجد والصلاة فقط فالإسلام بعيد كل البعد عن الرهينة ، والإسلام هو الذي قرر في قوة وصرامة أن ما يجازي به الإنسان في آخرته من الجزاء الحسن هو ثمن يقدمه في دنياه

من فعل صالح وعمل مفيد منتج لنفسه ولأسرته وابني مواطنيه فالله يقول :  
( فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ) ويقول  
أيضا ( وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء  
الأوفى ) . ورسول الله يقرر عندما سأله نخبة من المسلمين عن رجل يصوم  
النهار كله ويتهدد الليل كله . ولما سأله من يعوله قالوا كلنا نعوله يا رسول الله  
فقال عليه السلام : كلكم خير منه ،

هكذا ترى معي أن الاسلام لم يربط الجزاء والعقاب في الآخرة إلا بما في  
خلق الانسان ونفسيته من خير أو شر ، وما يؤديه في دنياه من أعمال حميدة  
أو يرتكبه من أفعال شائنة . حتى ان النبي عليه السلام يذهب الى عشيرته وأهله  
فينادهم بقوله ( يا معشر قريش اشترُوا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا .  
يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئا . يا عباس بن عبد المطلب لا أغني  
عنك من الله شيئا . يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من  
الله شيئا ) .

وفي أسرى بدر عندما قبل فداء الأسرى ولم ياخذ برأى عمر في قتلهم  
جاء مركز بن حفص بفداء سهيل بن عمر ، وكان سهيل هذا خطيبا ذرب اللسان  
قارص الكلم طالما آذى النبي وآذى أصحابه بلسانه فأسرع عمر الى النبي يقول له  
دعني أخلع ثنيتيه فيدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا في موطن أبدا فلم يقبل  
النبي ذلك وقال : لا أمثل به فيمثل الله بي ولو كنت نبيا ،

أنظر معي جيدا الى هذه القواعد الأخلاقية التي رسمها الاسلام وغرسها  
رسول الله في نفوس صحابته فخدمت بذور حضارة رفيعة رانعة قد استوعبت  
الكامل الانساني من كل نواحيه

قارن معي بين هذه الحضارة الإسلامية التي أوجدها الإسلام في قوانينه  
الأخلاقية وتشريعاته الواقعية التي تتمثل فيها البساطة والسهولة والمرونة وبين  
هذه الحضارة المعاصرة التي اصطنعها الغرب بعد ثورات وضئى ودماء ودموع .



والتي تكثرت فيها دائماً عوامل الاستفزاز والانقضاض والحروب ، والتي أوجدت معها ما أوجدت من عقد نفسية ، ومن أزمات مادية لاسـبيل الى استنقاذ الانسانية منها .

أنظر ممي الى هذه الحضارة الاسلامية التي ربطت أعمال الإنسان في دنياه بما يناله في آخرته ، والتي جعلت محور ترغيبه في الجنة وترهيبه من النار هو ما تكف نفسه بنفسه من صفات حميدة ، وما تتخلق به من مثل عليا ، وما يبذل من عمل صالح مفيد لبني جنسه . ثم خبرني أي دراسة للنفس الانسانية أعمق من ذلك ؟ وأي أمل في اطمان الانسانية وخلودها الى الدعة والأمان أقرب من هذا الأمل . . . وأي باب يسهل ولوجه نون مشقة أو عسر لتحقيق السعادة والسلام للبشر أقرب من هذا الباب

إن أحداً لا يستطيع أن يملك نفسه من الإعجاب عندما يجد الإسلام وهو الدين الروحي السامى قد احتفل بحياة الانسان وأعماله وجعلها ثمرة لما يقوم به من العبادات ، فالأعمال الصالحة المفيدة نتيجة للعبادات الصحيحة المنتجة . والانسان الخير النبيل المترفع عن الدنيا هو الذي أثر فيه الدين ولمس قلبه واصطبغ بعقله بالإيمان الصحيح فالله يقول : ( إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ) . فهذه الفلسفة الجديدة التي أوجدها الإسلام قد جعلت من أتباعه رجالاً أحراراً غير متأثرين بأى شيء بقدرين الحق ، ويؤمنون برأى الغير متى كان صادراً عن عقل ناضج سليم ، وهم ينظرون إلى الكون وخالقه ، وإلى مشاكل الناس وأقضيتهم بعين مجردة وعقل حر جري .

هذه الفلسفة التي اصطنعها الإسلام في النظر إلى الله وإلى الكون ، وإلى العبادات والديانات وماهاياتها وغاياتها ، وما تسعى من وراء ذلك لتحقيقه هي التي كانت تتفق وما أدركه الانسان من وعى وما بلغه من تطور ، وما وصل إليه من نضوج .

هذه هي أهم الصفات الذاتية للإسلام نحدثنا عنها بقدر ما أسعفتنا الظروف

وبقدر ما قدرنا صفحات هذا الكتاب ، فلم نحمل معانيها أكثر مما تحتمل ولم نسرف فيها في التأويل ولم نشط في التفسير ، وإنما كنا دائماً مراعيين الحق والمنطق مصاحبين للعقل في كل قضية تعرض لنا . أو مشكل يطرأ أمامنا ، أو مبهم يأخذ علينا سيلنا .

وأظن بعد أن انتهيت من هذا السرد أن القارئ الكريم ربما تلجلج في صدره سؤال يشفق منه وهو إذا كان هذا هو الإسلام وتلك صفاته ، فلماذا نجد المسلمين وعلماءهم على النقيض من ذلك في كل شيء . . . لقد سألتني هذا السؤال زميل جامعي مثقف بعد أن ألم إمامة خاطفة ببعض فصول هذا الكتاب ذلك ما سنعالجه في الفصل التالي من الكتاب .

## لماذا تأخر المسلمون...؟

عند ما يستعرض الكاتب الآراء التي كتبها الباحثون عن تأخر المسلمين وأن يلم باستنتاجاتهم في البواعث والعوامل التي أدت إلى ضعفهم وانحطاطهم يجد أن هذه الآراء والاستنتاجات تنقسم إلى قسمين متضادين متصادمين أحدهما وهو صادر من علماء مسلمين يعزو سبب تأخر الإسلام والمسلمين إلى انصرافهم عن دينهم وتركهم فروضه وتشريعياته وأخذهم بالقوانين الوضعية وإسلام قيادهم لرجال من غير الأمة العربية لم يتغلغل الإسلام في قلوبهم ولم تتأثر به عقولهم ، أما الرأي الآخر وهو صادر من بعض المستشرقين فيعزو سبب تأخر المسلمين إلى طبيعة دينهم وتعاليمه ومبادئه التي إذا كانت تصلح لعصره الأول فليست بصالحة على كل حال لتطور الانسانية ولعوامل الوعي ولطبيعة التقدم في طرر من الحياة بعد طور آخر .

وتقتضينا النزاهة ، وحب الحق ، والحرص على الأسلوب العلمي في هذا البحث الخطير أن نلجس الأسس التي قام عليها كلا الرأيين والدوافع والشواهد التي أوحت لهما بتلك الاستنتاجات .

وأغلب الظن أن علماء الإسلام بنوا آراءهم هذه على أن الإسلام وهو الذي خلق من أمة جاهلة متنافرة غير آخذة بأي سبب من أسباب الحضارة أمة قوية كوزت امبراطورية ضخمة لم يعرف العالم لها مثيلا وذلك في أقل من قرن ونصف قرن من الزمان ، هذا الإسلام الذي جعل من بنيه قادة للامم والشعوب ، والذي أمسك بيده مشعل الحضارة أجيالا عدة ليس هو السبب فيما أصاب المسلمين من ضعف وتأخر وانحطاط ورجعية وتواكل وجمود عن سير مركب الحضارة وإنما الإسلام في جوهره وصفاته برىء كل البراءة فيما أصابه من انتكاس أتى على أيدي أبنائه ممن نبذوه جانبا فحقت عليهم الآية الكريمة وهي قوله عز وجل ( إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم )

أو أتى على أيدي قاداته من أسلموا زمامهم لأيد أجنبية لم تتأثر في قليل أو كثير بروح الاسلام الحققة وتعاليمه الصحيحة وذلك في آخر العصر العباسي الأول وهو بدء الانحلال السافر للظاهر للعيان وعلى رأس هؤلاء العلماء الاستاذ الامام محمد عبده .

وكا رسمنا لأنفسنا منهجنا في الدراسة في موضوعات هذا الكتاب وهو عرضنا أمام القارئ الصور والمقدمات والنتائج التي تتصل بما نعالجه من موضوعات من طرف ثم ما يصاد ذلك كله من الطرف الآخر محتفظين برأينا ندلى به في حينه بعد هذا العرض والسرر فانتنا نحب أن نصطنع هنا هذا الأسلوب فيما يتصل بهذا الموضوع الشائك الدقيق لنخرج برأى مقارب لمنطق الحوادث ولمنطق الأشياء ولطبيعة الحياة لأن غايتنا في هذا البحث العثور على الحقيقة ومعرفة الصواب دون نظر الى أن تكون النتيجة متفقة مع إرضاء شعورنا الديني أو مضادة لإرضاء ذلك الشعور .

وها نحن أولاء ننقل بعض فقرات من كتاب « الإسلام والنصرانية » للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده تصور ما يذهب إليه علماء الاسلام ومفكره في هذا الشأن .

قال الاستاذ الامام :

« كان الاسلام ديننا عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا بعد أن كان يونانيا ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سييلا إلى ما كان يظنه خيرا له ، ظن أن الجيش العربي قد يسكون عونا لخليفة علوى لأن العلويين كانوا ألصق بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأراد أن يتخذ له جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم التي ظن أنه يستعدها بساطانه ويصطنعها بإحسانه فلا تساعد الخارج عليه ولا تعين طالب مكانه من الملك ، وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك ، هنا لك استعجم الاسلام وانقلب عجميا . »

« خايفة عباس أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه ، وبئس ما صنع بأمته ودينه  
أكثر من ذلك الجند الأجنبي وأقام عليه الرؤساء منه فلم تكن إلا عشية أو  
ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء واستبدوا بالسلطان دونهم ،  
وصارت الدولة في قبضتهم ، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام ،  
والقلب الذي هذبه الدين ، بل جاءوا إلى الاسلام بخشونة الجهل يحملون أوية  
الظلم . لبسوا الاسلام على أبدانهم ، ولم ينفذ منه شيء إلى وجدانهم ، وكثير منهم  
كان يحمل لإلهه معه يعبده في خلوته ، ويصلى مع الجماعات لتمسكين سلطته ، ثم  
عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم ومنهم من تولى أمره ، أى عدو  
لهؤلاء أشد من العلم الذى يعرف الناس منزلتهم ، ويكشف لهم قبح سيرهم !!  
فالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم ، أما العلم فلم يحفلوا بأهله ، وقبضوا  
عنه يد المعرنة ، وحملوا كثيرا من أعوانهم أن ينتظموا فى سلك العلماء ، وأن  
يتسربلوا بسرابيله ليعدوا من قبيله ، ثم يضعوا للعامة فى الدين ما يبغض إليهم  
العلم ويبعد بنفوسهم عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى  
وحماية الدين ؛ زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضا ليعلوه ، أو متداعيا  
ليدعموه ، أو يكاد أن ينقضى ليقيموه .

« نظروا إلى ما كانوا عليه من نفخة الوثنية ، وفى عادات من كان حولهم  
من الأمم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ما هو براء منه ، لكنهم  
نجحوا فى اقناع العامة بأن فى ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء  
عون القائم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات  
وسنوا لنا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم ما فرق الجماعة ، وأركس  
الناس فى الضلالة ، وقرروا أن المتأخر ليس له أن يقول بغير ما يقول المتقدم  
وجعلوا ذلك عقيدة حتى يقف الفكر وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى  
أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاختبار والآراء ما يقنع  
العامة بأنه لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمور الجماعة

والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه، وأن ما يظهر من فساد الأعمال، واختلال الأحوال، ليس من صنع الحكام، وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان، وأنه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه، ووجدوا في ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك، وفي الموضوعات، والضعاف ما شد أزرهم في بث هذه الأوهام، وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المصلين، وتعاون ولاية الشرع على مساعدتهم في جميع الأطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مشبطاً للعزائم، وغلا للأيدي عن العمل، والعامل الأقوى في حمل النفوس على هذه الخرافات إنما هو السذاجة وضعف البصيرة في الدين وموافقة الهوى، أمور إذا اجتمعت أهلكت، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ في نفوس الناس من العقائد ما يضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم.

هذه السياسة، سياسة الظلم وأهل الأثرة، هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملاً كان يخترق به أطباق السموات وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجاوات، فكل ما تراه الآن مما تسميه إسلاماً فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج ومن الأقوال قليلاً منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرته وعدوه ديناً، نعوذ بالله منهم وما يفترون على الله ودينه فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاماً، انتهى.

ويرى الدكتور هيكل باشا في كتابه الفاروق عمر الجزء الثاني.

«أن العوامل التي كان لها أثر في قيام الحضارة الإسلامية، وفي عظمة الإمبراطورية في القرون الأولى قد كان لها كذلك عظيم الأثر حين بدأت عوامل الانحلال تدب في كيان الإمبراطورية،

وهو يعنى بهذه العوامل أن رقعة الفتح الاسلامى حينما اتسعت وشملت  
الفرس والروم لم يضمن أهل هذه البلاد التى لها قدمة والنز لها سابقة فى الحضارة  
والرقى بأن يحتضنوا العرب ويظهروهم على ما لهم من تجارب ونظم ، وما كونه  
من تراث فى الفن والفلسفة والآداب ، تأثرت بها الحضارة الاسلامية ، وقامت  
على دعائمها الامبراطورية العربية .

ثم يتابع هيكل باشا كلامه فيقول ، كيف يؤدي تفاعل عوامل بذاتها إلى  
آثار متناقضة فيكون سببا في قيام الامبراطورية وعظمتها ، ثم يكون سببا في  
تدهورها وانحلالها ؟ ؟

الجواب عن هذا السؤال يصدق على الامبراطورية الاسلامية ، وعلى  
غيرها من الامبراطوريات ، فكم هذه العوامل ، ومبلغ تفاعلها ، يختلفان فى  
زمن عنهما فى زمن آخر ، وهذا الاختلاف يؤدي إلى تباين النتائج ذلك أمر  
طبيعى نشهده فى الظواهر الاجتماعية كما نشهده فى الظواهر الطبيعية ، فكما  
يؤدي اختلاف الأنواع والمقادير فى العناصر الكيميائية إلى اختلاف تفاعلها  
وما يترتب على هذا التفاعل من نتائج ، كذلك يؤدي اختلاف الكم والنوع فى  
فى العناصر الاجتماعية إلى مثل هذه النتيجة ، فاذا زادت القوى المعنوية فى  
الجماعة سواء أكانت هذه القوى روحية أم خلقية أم عقلية أدى تفاعلها مع  
القوى المادية إلى سمو الجماعة وعظمتها ، ذلك بأن القوى المعنوية هى التى  
تدفعنا إلى طلب السكالى الإنسانى وإلى الدأب فى سبيله والجماعة مع ذلك لاغنى  
لها عن قواها المادية . ومضاعفة نشاطها . وهذه القوى تزداد نشاطا وإنتاجا  
بدافع من القوى المعنوية فاذا ضعفت معنوياتنا ضعف نشاطنا المادى  
وتضاءل إنتاجنا ، .

هذه هى آراء بعض المفكرين الاسلاميين فى سبب تأخر المسلمين .  
والعوامل التى ساعدت على ذلك .

أما ما يرتكن إليه بعض المستشرقين فى رأيهم المضاد لذلك فيتأخص فى

أن عوامل الانحطاط ودوافع الانحلال . لم تكن طارئة على الاسلام أجنبية عنه دفع إليها . فعا رغما عن إرادته . وقسراً عن طبيعته مما لا حيلة له فيه . بل كانت هذه العوامل والبواعث التي أدت إلى ضعف المسلمين وتأخرهم هي من تعاليم الاسلام ذاته . وإلا فكيف يتفق أن ينتظم هذا التأخر المسلمين جميعاً في كافة المعمورة ويستنتج هؤلاء أسانيدهم من أن الاسلام أعطى ولى الأمر مقاليد المسلمين وجعل كافة شؤونهم وأمورهم ملك يديه فشل بذلك حرية التفكير في الفرد . وأعدم فيه رغبة النهوض والطموح الا فيما يرضى ولى الأمر ويتفق مع عقليته وأهدافه . حتى أن اسم الدين نفسه فيه معنى الاستسلام والانقياد وعلى رأس هؤلاء المستشرق « أجناس جولد تسيهر »

ويرى آخرون أن السبب في تأخر المسلمين وانحلالهم يرجع إلى ما في تعاليم دينهم من إيمان بالجزرية التي فيها دعوة صريحة إلى التواكل والخلود وعدم السعي في الحياة وعلى رأس هؤلاء الكاتب الأمريكي « واشنجتون ايرفنج » الذي يقول ما ترجمه .

( لقد (١) ألهم محمد مذهب الجزرية من وحي الساعة فكان إلهاماً معجز آخذ وته في أنسب أوقاته . فقد حدث توأ بعد غزوة أحد المنكودة التي ذهبت بأرواح عدد غير قليل من أنصاره . ومن بينهم عمه حمزة .. عندئذ وفي ساعة وجوم وهلع تحطمت أثناءها قلوب أصحابه المحيطين به أصدر هذا القانون بينهم أن لا مفر لإنسان من أن يتوفى في ساعة أجله . في فراشه كان أو في ساحة الوغى .

أية عقيدة يمكن أن يصورها صاحبها أدق من هذا التصوير ليدفع بها للغزو طائفة من الجنود الجهلاء الأغرار دفعاً وحشياً . إذ يقنعهم عن يقين بالفناء لمن يبقى والجنة لمن يموت . ولقد جعلت هذه العقيدة جند المسلمين لا يكاد يغلبه غالب . لكنها احتوت كذلك السم الذي يقضى على سلطانه فنذ اللحظة التي كيف فيها خلفاء النبي عن أن يكونوا غزاة فاتحين . ومنذ أعمدوا

(١) راجع ذلك في كتاب حياة محمد لهيكل باشا بنوان ( المستشرقون والمضارفة الاسلامية )



سيوفهم بصنمة نهائية بدأت العقيدة الجبرية تعمل عملها الهدام فقد أرفهف السلم  
أعصاب المسلمين كما أرفهفها المتعاقب المادى الذى أباحه القرآن . والذى يفصل  
فصلا حاسما بين مبادئه ودين المسيح . دين الطهر والإيثار . فصار المسلم ينظر  
إلى ما يصيبه من بأساء على أنها بعض ما قدر الله عليه . وما يجب الإذعان له  
واحتماله ما دام كل جهد . وكل حكمة إنسانية عبثا لانفع له . ولم تكن  
قاعدة ( أعن نفسك يعنك الله ) مما يرى أتباع محمد تنفيذه . بل كان  
عكسها نصيبهم ) .

هذان هما الرأيان اللذان تعرضا للبحث فى هذه المسألة الدقيقة غاية الدقة  
العميقة كأقصى ما يتصور العمق ورأينا أن كلا الرأيين غير صحيح . وان كان  
الرأى الأول يقرب من الحقيقة ويلبسها بهض الشيء . وإليك الدليل :

أن دعوة الاسلام كأى دعوة أخرى عالمية ناجحة لا بد أن تعتمد فى  
مبادئها ونظامها وقوانينها على أركان ثلاث الركن الخلقى والركن الاجتماعى  
والركن الاقتصادى . وأن يكون تشريعها بما فيه من واجبات وهدود مستهدأ  
عناصر وجوده ومواد قوانينه من هذه الأركان الثلاث .

والاسلام بطبيعته كدين من الأديان يستند على دعائمه الأولى وهى  
الدعامة الروحانية إلا أنه لم يغفل البتة هذه الدعائم الثلاث بل ان التقارب  
وطبيعة الدعوة الاسلامية آلفت بينها جميعا فتأثرت الأركان الثلاث وهى  
الركن الخلقى والركن الاجتماعى والركن الاقتصادى بالدعامة الأولى للاسلام  
وهى صفة الروحانية وبالتالى أثرت فيها فأظهرتها للناس بمظهر جديد لم يلدسور  
فيما عرفوه من ديانات . وما آمنوا به من عبادات سابقة للاسلام ومن يراجع  
ما كتبناه فى فصل ( مكانة الاسلام بين الديانات ) يتبين له أن هذا الدين كان  
بمثابة ثورة فكرية على ما تواضع عليه الناس من قبل فى فهم العقيدة الاولية وما  
كونوه لأنفسهم من آراء عن طبيعة الدين ورسالاته . وهدى الآثار المترتبة عليه  
فى حالتى الايمان أو الالحاد .

فالاسلام ولو أنه ينتظم مع هذه الديانات في الإيمان بوجود الله وفي إحياء المبادئ الروحية . وفي الترغيب والترهيب والجزاء والمقاب إلا أنه يختلف عنها جميعا في وسائله وغاياته السكاملة ونظرته للناس وللحياة .

ومن هنا ندرك السر فيما استنتجناه غير مرة في هذا الكتاب وهو الصلة بين الديانات وبين ما بلغه الإنسان من تطور وإدراك .

لقد قلنا إن الديانات عند ما كانت تنزل على نبي البشر كانت تقتضيها ضرورة ملحة . وكانت تستوجبها أزمات عميقة تتطلب حلا وعلاجا . وهي من أجل ذلك لم تكن ترتفع عن مستوى البشرية . أو تتصادم وتتعارض مع قوة وعيها وإدراكها . وإنما كانت متفقة معها فيما بلغت من تطور . كاشفة لها عن آفاق جديدة لتكيف بها حياتها ونهيه لنفسها ما تبغيه من استقرار وصحو واتزان .

والدارس لكل الديانات السماوية العالمية يجد أن ذاتياتها وصفاتها تؤرخ حالات مختلفة . وتسجل صوراً متباينة من تاريخ التطور البشري فالصبغة التي كانت عليها الديانة اليهودية . والغايات التي جاءت لتحقيقها تختلف في مجموعها عما كانت عليه المسيحية . وما تبغى الوصول إليه من غايات . كما تختلف الديانتان الأخرى عن الصبغة التي اصطبغ بها الاسلام . وما كان يفسد تحقيقه من مبادئ ونظم ويسعى إليه من أهداف . لذلك لا يمكن أن يتفق أن تشغل أحد هذه الديانات الثلاث مكان الأخرى لأن ذلك يتنافى ومنطق الطبيعة . وسنة التطور في الكائنات .

وعلى ضوء هذا الاستطراد سنسهب بعض الشيء في شرح وبيان الأسس التي قام عليها الاسلام لنرى إلى أي حد كيف أدى انهيار بعض هذه الأسس إلى توالد الميكروبات والأمراض التي أخذت تعمل عملها في القضاء على ما في جسم الاسلام من قوة وصحة وحيوية حتى تركته أخيراً في مرحلة التأخر والإنحلال .

قلنا إن الاسلام في صميم دعوته قام ليحقق للبشرية مبادئ ثلاثة تتمثل فيما وضعه من قواعد الأخلاق والاجتماع والاقتصاد . ودللنا على أن رسالته الروحية كانت تغذى هذه القواعد الثلاث ، وكانت دائمة دائماً على غرسها في النفوس . فالعبادات التي شرعها الله للمسلمين هي بذاتها إبحامات قوية لتثبيت هذه القواعد في القلوب وتماسكها بالوجدان ، لأن هذه العبادات جميعها ليست إلا مظاهر من مظاهر الاسلام ، وليست إلا وسائل يحقق بها غاياته .

والركن الخلقى ظاهر وواضح في الدعوة الاسلامية : فالقرآن يقول :  
( ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) ويقول أيضا : ( وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ) ويقول : ( ولا تمش في الأرض مرحاً إنك إن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ) ويقول : ( ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ) ويقول : ( واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً ) . ويقول ( خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهل ) ويقول ( واصفح الصفح الجميل ) ثم لم يجد صفة أروع ولا أعظم يمدح بها نبيه غير أن يقول : ( وإنك لعلى خلق عظيم ) .

والنبي عليه السلام يقول : ( لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ) ويقول أيضا : ( مثل المؤمنین فی توادم وتراحمهم كمثل الجسد .. إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحلمى والسهر ) . ويروى أنه عليه السلام وهو في مرض الوفاة خطب المسلمين فقال : ( أيها الناس : من كنت جلدت له ظهرأ فهذا ظهري فليستقدمني ، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقدمه ومن أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ولا يبخس الشحفاء فهي ليست من شأني )

فالإيثار ، والصراحة ، والصدق ، والاعتدال في كل شيء ، والضمير النقي ، والقلب النظيف ، والأمانة التامة ، والبعد عن الموبقات والفساد وكل أنواع الشرور الظاهرة والخفية .. كل ذلك من الصفات البارزة التي رسمها القانون الخلقى في الاسلام . والتي جعلها تتحقق في النفس الانسانية بما دعا إليه من تعاليم وعبادات . فإذا لم تتحقق هذه الصفات في شعار لدولة وكافة شؤونها

وفي سياسة الأمة ونفوس حكامها ورعاياها ، كان في ذلك هدم وقضاء على أهم ركن من أركان الاسلام وهو الركن الخلقى .

والركن الثانى الذى اعتمدت عليه الدعوة الاسلامية هو الركن الاجتماعى ويتبين فيما أمر به القرآن ودعا اليه النبي من المساواة المطلقة بين الناس جميعاً ، وفي قضائه على ما تواضع عليه الناس من النظام الطبقي فى قوة وعنف ، وفي استئصاله كل ما اصطنعه العالم من وسائل التمييز بين الأجناس ورفع بعضهم درجات فوق بعض لا لعرقية ولا لعمل مفيد صالح للمجتمع وللانسان ، وإنما لوشيجة العنصر ، وطبيعة الدم ! فأنكر الاسلام كل ذلك فى غير هوانة فالناس أمام القانون سواء فى الحقوق والواجبات والحدود ، وفي شعور بعضهم نحو بعضهم . فانه يقول فى كتابه الكريم : ( يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) أى أصلحكم وأنفعكم لنفسه ولقومه ولأمتة . وقيل إن السبب فى نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أبا هند امرأة منهم - وهو مولى لهم فقالوا يا رسول الله : نزوج بناتنا من موالينا؟! فنزلت هذه الآية الكريمة . وفى حجة الوداع بخطب رسول الله المسلمين فيقول ( أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أبائكم واحد كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ) .

وحينما سرقت فاطمة المخزومية - وكانت من طبقة ربيعة من العرب - جاء أناس يستشفعون لها حتى لا يقيم الرسول الحد عليها . فغضب عليه السلام غضباً شديداً ثم قال : ( إنما أهلك من كان قبلكم أنهم اذا سرق الشريف تركوه ، واذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها ) . .

بقى الركن الأخير وهو الركن الاقتصادى . . وهو ما شرعه من الزكاة ، وجعل لها قوة الحق المعلوم الذى لا سبيل الى التغاضى عن أدائه طوعاً أو كرهاً . ثم ما سنه من التضامن الاجتماعى ومن مسئولية الدولة نحو الفرد :

فبيد مال المسلمين هو الخزينة العامة للدولة التي أنشئت لتراعى مصالح المسلمين ، فتتولى شئون المعدمين الذين لا مورد ولا عائل لهم ، والذين تقعد بهم الظروف أو تقعد بهم حالتهم الجسمانية عن العمل والكسب . وهو نوع مما سماه العلماء الاجتماعيون حديثا : « التأمين الاجتماعى ضد البطالة وضد العجز والشيخوخة » .

وولى الأمر باعتباره راعيا ، وكل راع مسئول عن رعيته ، فى عنقه تحقيق مصالح الأمة وتوطيد كيانها ، وتجديد حيويتها وشبابها . فالاسلام باعتباره دين ودولة احتفل كل الاحتفال بالناحية الاقتصادية ، وكانت له نظراته الخطيرة فى علاقات الناس المادية بعضهم مع بعض . فهو لم يحرم الملكية المطلقة التى تأتى ثمرة لمجهود شخصى بحت دون استغلال لظروف خاصة ، ودون استغلال للغير بلا مقابل وبوسائل الإكراه والضغط . . وإنما أقرها بشرط أن تنفق مع ما رسمه ودعا اليه من قوانين أخلاقية واجتماعية . . ذلك أن الظاهرة الواضحة فى الاسلام أن أركانه وأسسها التى قام عليها متصل بعضها ببعض اتصالا وثيقا بحيث لو تلاشى أحد هذه الأركان أو الأسس كان فى ذلك القضاء كل القضاء على روح الاسلام ولبه وجوهره .

لم يحرم الاسلام الملكية التى تأتى عن طريق هذه الوسائل الشريفة لأنه فى تكوين عناصره ومبادئ دعوته كان يؤمن بالفرد . وكان يعترف بماله من قوة وحيوية وإرادة . ثم إنه بعد ذلك كله أتى حافزا لعوامل اليقظة والنشاط ، باعنا الحيوية والقوة والأمل فى نفس الانسان لاستغلال خيرات الأرض والانتفاع بظواهر الطبيعة . ولكنه مع ذلك أوجب الضريبة التى تتمثل فى الزكاة . وهذه الزكاة كانت فى العهد النبوى الأول صدقة يترك أمرها لضمير الغنى وعاطفته نحو الفقير والمسكين . ولكن بعد أن كثرت المسلمون وانتشر الاسلام فى الجزيرة العربية ، رفعت من ذلك الدور وجعل له عمال يأخذونها من أصحابها . . وذلك لما ركب فى الغريزة البشرية من حب للأثرة والغلبة والامتياز .

ومن هنا ندرك السر في أن الاسلام كان يحرص من وراء ذلك على عدم خلق الطبقات ، وعلى عدم وجود هذه الفروق الفاحشة بين الجماعة الاسلامية فيمن يملك كثيرا وفيمن لا يملك شيئا . وذلك لأنه لم يوجب هذه الزكاة إلا بعد أن أصبح المسلمون كأمة وكمجتمع له كيانه ومظهره واستقلاله . . . وهي المقومات الخاصة لوجود الدولة .

بقي بعد ذلك أن ننظر في أي مرحلة من مراحل التاريخ الاسلامي اعتدى على هذه الأركان الثلاث لتبسط من وراء ذلك الأسباب الحقيقية التي أدت الى تفكك الامبراطورية الاسلامية وانحلالها .

ويقتضينا الأسلوب العلمي في العرض ، وطبيعة هذا البحث أن نلم لمساءة بسيرة بحالة المسلمين وما كان يكتنف حياتهم ويكمن في نفوسهم من عوامل الانفعال بهذا الدين الجديد وذلك بعد موت النبي مباشرة .

فمما لا شك فيه ، ومما أجمع عليه المؤرخون أن المسلمين ذهلوا لما علموا بوفاة النبي ، وأنه اعتزلتهم حالة من الفزع الشديد والخيرة البالغة ، لأنهم وإن كانوا قد أحسوا أن النبي قد أدى رسالته ، وأن الله قد أكمل لهم دينهم بعد نزول هذه الآية الكريمة : ( اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عنايتكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً ) . إلا أنهم لم يكونوا يظنون أن النبي سيتركهم في هذه الفترة الخطيرة من حياتهم ، وقبل أن يبين له خايفة من بعده يأخذ بيدهم ، ويكون لهم سنداً من هذه الأعاصير التي كانت تنذبذب لهم في الداخل وتحيط بهم من الخارج . . .

ولن نستطيع أن نتصور مقدار الحالة التي كان عليها المسلمون بعد عامهم بهذا النبأ الفاجع دون أن ندرك ما حدث لعمر بن الخطاب من اضطراب وذهول وثورة نفسية . . . فلقد وقف عمر في المسجد يخاطب المسلمين ، ويندد بمن يقول إن النبي قد مات ، ويتوعددهم بعقاب شديد . والمسلمون بعضهم يستمع له وبعضهم يعرض عنه ، إلى أن جاء أبو بكر الصديق - هذا الشيخ المحنك السمح الرزين - فوجد المسلمين في المسجد في صخبهم وضوضائهم ووزعهم الأكبر . . .

فضعد المنبر ، ثم خطب الناس في ثبات وهدوء بقوله : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . ثم تلا قوله تعالى : ( وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفلا مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟! ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين ) ، .

سمع عمر هذه الآية ولم يكن واعياً لها ، فخر إلى الأرض مغشياً عليه لأنه آمن بموت النبي حقيقة . ولكنه لم يستسلم للجزع ، وإنما تحمل المصاب الفداح بما عرف عنه من صبر وقوة وإيمان .

وهدأ اضطراب المسلمين بعض الشيء ، وأخذوا يفكرون في مصيرهم بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى . فاجتمع الانصار في سقيفة بني ساعدة ليتداولون الأمر في أحقيتهم بالخلافة بعد رسول الله لأنهم هم الذين آووا النبي ونصروه وأعزوه بعد أن كرهه قومه وطاردوه وحملوه على الهجرة فراراً من اعتدائهم وظلمهم وتعسفهم . وعلم عمر بذلك ، فأرسل إلى أبي بكر يستدعيه وهو يجيز النبي ليسجيه مضجعه الأخير . ولم يقبل أبو بكر أن يترك جهاز النبي لغيره من أهله إلا بعد إلحاح من عمر شديد ، لأن عمر كان يخشى أن تندلع نار الفتنة بين المسلمين ، وكان يفزع من أن يتطرق إلى وحدتهم أي عامل من عوامل التفرق والاصطدام .

واصطحب عمر وأبو بكر معها أبا عبيدة بن الجراح حيث ذهبوا جميعاً إلى اجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة . وأدلى الانصار بحجتهم في أنهم أولى بالخلافة لإعزازهم النبي ونصرهم له ، واحتضانهم الاسلام بعد أن طارده المشركون وتنكرت له الأغلبية الساحقة من قريش . . . . ورد عليهم أبو بكر بهذا الخطاب الذي يتمثل فيه النبيل والخلق الكريم والحرص مع ذلك على العدل والتسك بالحق . قال : « أيها الانصار . نحن المهاجرون أول الناس اسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ، وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب ، وأمسهم رحماً رسول الله . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ،

فقال تبارك وتعالى : ( والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار  
والذين اتبعوهم بإحسان ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إخواننا في الدين  
وشركاؤنا في النية ، وأنصارنا على العدو . أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له  
أهل ، وأنتم أجدر بالثناء من أهل الارض جميعا . فأما العرب فلن تعرف هذا  
الأمر إلا لهذا الحى من قريش . فمننا الأمراء ومنكم الوزراء ، ثم قدم اليهم  
أبا عبيدة بن الجراح وعمر بن الخطاب ليبايعوا أيها شاءوا . فلم يكن من عمر إلا  
أن طلب من أبي بكر أن يديس يده ليبايعه وهو يقول : ألم يأمرك النبي بأن  
تصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ؟ فأنت خليفته ونحن نبايعك فنبايع خير من  
أحب رسول الله منا جميعا ، وبايعه أبو عبيدة بن الجراح وهو يقول : إنك  
أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين إذ هما في الغار ؛ وخليفة رسول الله على الصلاة  
أفضل دين المسلمين . فمن ذا الذى ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر  
عليك ؟ ، ثم تتابع بعد ذلك المهاجرون والأنصار فبايعوا أبا بكر .

إلى هنا أصبح أبو بكر هو والى المسلمين الشرعى . فلننظر الى أى حد تمسك  
بروح الاسلام وحافظ على تعاليمه ، وماذا كان حظه من الحرص الدقيق على  
هذه الأركان الثلاث التى قلنا إن دعوة الاسلام قامت عليها . ولن نجد شيئا  
يدلنا على تمسك أبى بكر بهذه القواعد الخلقية التى دعا اليها الاسلام ، والتى تمثل  
بها رسول الله فى حياته أقوى من هذا الخطاب الذى استهل به أبو بكر ولايته  
قال : « أيها الناس :

« إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت  
فقررونى . الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى  
أرد عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن  
شاء الله . ألا لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا  
تشييع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله  
فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله ،  
أنظر الى هذه الشخصية الجبارة فى غير عنف ، القوية فى اعتدال ، التى



التزمت هذه التبعات ، وتمسكت بقواعد الأخلاق المسالية التي لم ير العالم وان يرى أروع وأنبل منها . انظر الى تصوير هذه العلاقة بين الوالى ورعيته التي صورها والنزما الخليفة الأول للمسلمين - هل تجد في سموها وعظمتها شيئا مما اصطنعته الحضارة الحديثة من نظام وما تزعم بلوغه من رقى ؟ !

أما الركن الاجتماعى وهو المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات - فنجد أبا بكر من أقوى الحريصين عليه ، المتمسكين به لا فيما بين الرعية بعضهم مع بعض فقط ، وإنما فيما بينه وبين الرعية جميعا . انظر الى هذا الرجل خليفة المسلمين وولى أمرهم وهو يشيع جيش أسامة الذاهب الى الشام لمحاربة الروم ، وأسامة راكب فرسه - وهو شاب لما يكسد يبلغ العشرين - وهذا الشيخ السمح يسير بجانبه رجلا كأي جندي بسيط من جنود المسلمين !! .. فيناديه أسامة : يا خليفة رسول الله ! والله لتركبن أو لأنزلن ، فيرد عليه أبو بكر : والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما على أن أغبر قدمي فى سبيل الله ساعة . . . ثم ماذا بعد ذلك ؟ .. ثم يرجوه - إذا شاء - أن يدع له عمر بن الخطاب ليعينه ويشير عليه فى أمور المسلمين !! فيأذن له أسامة فى ذلك . . !!

ثم يتجلى تمسكه بهذا الركن الاجتماعى أوضح وأعظم فى مساواته بين الناس جميعا فى أعطياتهم من الفء - لا فضل لأحد على أحد . ولما راجعه بعض الصحابة فى ذلك وراودوه على أن يجعل لمن لهم القدمة والسابقة فى الاسلام الحظ الأوفر من العطاء - قال لهم هذه الكلمة الخالدة : « أما ذكرتم من الفضل والسوابق والقدم فما أعرفتى بذلك ؟ وإنما ذلك شئ ثوابه على الله جل ثناؤه . وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة . »

بقى بعد ذلك الركن الاقتصادى . ولسنا فى حاجة لأن نؤكد لك تمسك الصديق به فى غير هوادة ولا تساهل ، وبمعناه الذى شرعه الله وعمل به رسوله فلقد حدث بعد موت النبي مباشرة أن تبلبت الأفكار وتشعبت الفتن فى أنحاء الجزيرة العربية ، وامتنع قوم ممن أسلموا عن أداء الزكاة وإن ظلوا بعد ذلك مسلمين ولم يرتدوا عن دينهم . وجمع أبو بكر الصحابة واستشارهم فى أمرهم

فأشار بعضهم بتركهم ما داموا ينطقون الشهادتين ويؤمنون بالله ورسوله ،  
ويؤدون فروض الاسلام الأخرى . ورأى البعض الآخر أن فروض الاسلام  
متناسكة بعضها ببعض ، فلو عطل أحدها كان في ذلك هدم لبقية الفروض  
الأخرى . ولذلك وجب محاربتهم .

ثم إن هذه الزكاة هي حق بيت المال ، وبيت المال هو المستول الأول عن  
الضعفاء والعجزة والمعدمين ومن لاعائل لهم من فقراء المسلمين . ولذلك نرى  
أبا بكر يوافق على الرأي الأخير ، ويقف من هذه المسألة موقفا رائعا كله  
صرامة وشدة فيقول : « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله  
لقاتلتهم عليه » . ولما راجعه عمر بن الخطاب بقوله : « كيف نقاتل الناس وقد  
قال رسول الله : ( أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، وأن  
محمداً رسول الله . فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها . وحسابه على الله ) ؟  
رد عليه بقوله : « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق  
المال ، وقد قال : إلا بحقها » .

أرأيت إذا كيف تمسك أبو بكر بهذا الركن حتى أعلن الحرب من أجله وجعلها  
مشروعة كمشروعية حرب المرتدين والمشركين . ذلك أنه رأى أن التهاون في  
تعطيل ركن من أركان الاسلام - فضلا عن أن فيه زعزعة من قوة العقيدة في  
النفوس - فإن فيه اهدارا وضياعا لحق من حقوق الفقراء والمعدمين والمحرومين  
من فقراء المسلمين ، مما حدا بعمر أخيرا أن يتحمس لمحاربة مانعي الزكاة ، وأن  
يقول : « والله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه  
الحق » .

هكذا كان تمسك الخليفة الأول بهذه الأركان الثلاث كما رأيت ، فلننظر ماذا  
كان حظ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب من ذلك . . . . . وبقيننا الذي لا يتطرق  
إليه الشك أن السمات التي اتصف بها الاسلام ، والذاتيات التي ميزته عن غيره  
وظهر بها في وضوح وجلاء وقوة : عاملا في سبيل الحق ، مقدسا العدل المطلق  
متسللا الى أعماق النفس البشرية ، دارسا الدوافع الخفية في ضمير الإنسان ، غير

غافل عن تكريهه المادى ، وحيانه الواقعية - نعتقد أن هذه الصفات والسمات والذاتيات التى ذكرنا كأنها كانت متبلورة فى نفس عمر ، مستترة وراء عقله الباطن حتى تهيأت لها الظروف ، ووجدت المناسبات فبرزت لتعمل عملها وتنهض بما يجب أن تنهض به من تقديس للحق ، ومن تمسك بالعدل المطلق على أى صورة من الصور ، وبأى وجه من الوجوه .

ونستطيع أن نلمس شيئا من ذلك فى تصرفات عمر وأخلاقه وإيماءاته النفسية التى كان يخالف بها الرسول وغيره من الصحابة ؛ فينزل الوحي مؤيدا رأيه . . كما حدث فى أمر أسرى بدر ، وكما حدث فى أمر نساء النبي حينما طلب منه عليه السلام أن يحتجب فنزل الوحي مؤيدا له فى ذلك أيضا . وكما حدث فى تحريم الخمر ، حينما طلب من الله أن يبين للمسلمين فيها لأنها تذهب العقل والمال فنزل الوحي بالتحريم فى قوله تعالى : ( يا أيها الذين آمنوا إئتوا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه .. الخ الآية ) .

وفيما روى من أن النبي بعث \* أبا هريرة يبشر بالجنة من شهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه . فلما سمعه عمر رده الى رسول الله ردا عنيقا ، وذهب فى أثره يسأل رسولا الله أحق قد بعثه يبشر الناس هذه البشرى ؟ فلما أجاب رسول الله أن نعم ، قال عمر : « فلا تفعل فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها فخلهم يعملون ، فأخذ رسول الله برأيه وقال : فخلهم .

هذه كلها أشياء تدلنا على نفسية عمر ، ومدى إدراكه للحقائق ، وفهمه الأمور ، ونظرته للناس والأشياء والحياة . والشئ الذى نريد أن نخرج به من تلك الإمامة اليسيرة هو أن الخليفة الثانى عمر فى قوة شخصيته وفى نضوج عقله واجتهاد رأيه قد حافظ على هذه الأركان الثلاث محافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى . وقد أضفى عليها من روحه ونضوج عقله واجتهاد رأيه ما جعل لها قوة الغريزة فى نفوس المسلمين ، وما جعلها سندا وعمادا

لنشأة هذه الامبراطورية وقوتها وحيويتها وقيادتها للعالم . ذلك أن الظاهرة الواضحة في قيام الامبراطوريات وعظمة الأمم وتصورها لقيادة البشرية هي ما ترسمه لنفسها وتستظهر بها على غيرها من قواعد خلقية واجتماعية واقتصادية تنفق مع الحق وتمشى مع العدل المطلق .

وعمر بن الخطاب وهو الذي اتسعت في عهده رقعة الفتوح الإسلامية ، وتزعزعت أمام قوات المسلمين بنايات الامبراطوريتين الفارسية والرومانية ، ودخل العرب بلاداً غريبة عنهم ، لأهلها قدمة وسابقة في الحضارة . . . ومع ذلك نجد جميع المؤرخين من مسلمين ومستشرقين يجمعون على أن أهل هذا البلاد التي كانت خاضعة للفرس والروم كانوا يعجبون من أمر هؤلاء البدو الذين لم يأخذوا بحظ يذكر من الثقافة ، ومع ذلك يتخلقون بأخلاق عالية غاية في السمو والرقى : من حب للعدل ، وتقديس للحق ، وإيمان بالمبدأ ، والتضحية في سبيله والتمسك به ، ومن أن فتحهم للبلاد وغزوهم للأمم لم يكن لاستغلالها وإنما كان لإصلاحها ، ولم يكن لاستعبادها وإنما كان للنهوض بها خلقياً واجتماعياً واقتصادياً . . . حتى أن البلاذري يروي أن عمر بن الخطاب لما ذهب الى الشام لإبرام معاهدة الصلح : . . . وعند مقدمه الجابية من أرض دمشق مر بقوم مجذومين من النصارى ، فأمر أن يعطوا من الصدقات ، وأن يجري عليهم القوت ،

ونظرة فاحصة لبؤود معاهدة الصلح التي أبرمها مع أهل المقدس في كتابه الذي كتبه لهم - والذي سجله الطبري - ما يكفي في الدلالة على كل ذلك :

( بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ، ولسكنائهم وصلبانهم ومقيمها وبريئها وسائر ملتها أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص

فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا ما منهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وصلبهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وعملهم حتى يبلغوا ما منهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع إلى أهله . وإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين - إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية .)

هذه كلها مقدمات لم يكن لنا بد من أن نقدمها لك لتتصور عهد عمر - وهو العهد الذي استقامت فيه المقومات الواضحة ، والأسس الظاهرة لنهوض الامبراطورية الإسلامية وتوجيهها للعالم وقيادتها له . ولسكننا نرجع فنذكر لك بشيء من التوضيح ما أقامه عمر من قواعد الخلق والاجتماع والاقتصاد . لقد خشى بعض المسلمين شدة عمر وغلظته وقسوته - بعد أن أوصى له بالخلافة أبو بكر الصديق - وبعد أن بايعه المسلمون . وكان عمر أحسن في هذه الساعة - بما طبعت عليه نفسه من الرأفة والقسوة معا ، وبما تبلج به خواطر المسلمين - فصعد المنبر بعد أن فرغ المسلمون من مبايعته ثم خاطبهم بهذا الخطاب الذي بين لك نفسيته وأخلاقه وقوة شخصيته ومدى صراحته . . قال :

\* ( بلغني أن الناس هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه . فكيف به وقد صار الأمر إليه ؟ . ومن قال ذلك فقد صدق .

. . . إنني كنت مع رسول الله فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من المين والرحمة ، وكان - كما قال الله - بالمؤمنين رموفا رحيا . ، فكنت بين يديه مديفا مسلولا حتى يغمدني أو يدعي فأمضي . فلم أزل مع رسول

الله حتى توفاء الله وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيراً ، وأنا به أسعد .  
.. ثم ولى امر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعتهم وكرمه وليته  
فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بليته ، فأكون سيفاً مسلواً حتى يغمدني  
أو يدعني فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض  
فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد .

.. ثم إنى وليت أموركم أيها الناس . فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت  
ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين . فأما أهل السلامة  
والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً  
أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى  
يدعن للحق . وإنى بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف  
وأهل السكفاف .

.. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :

.. لكم على أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من  
وجهه . ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه . ولكم على أن  
أزيد أعطياتكم وارزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم . ولكم على أن لا  
أقيكم في المهالك ، وألا أجركم في ثغوركم ، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو  
العيال .

.. فاتقوا الله - عباد الله - وأعينوني على انفسكم بكفها عنى ، وأعينوني  
على نفسى بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، واحضارى النصيحة فيما ولانى  
الله من أمركم . اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم )

هكذا استهل الفاروق عهده بهذه السياسة التي رسمها لنفسه ؛ وبهذا الدستور  
الذي قدمه للمسلمين . والشئ الذي نحب ان نسجله هنا هو أن نجسح الدعوة  
الاسلامية وقوتها وعظمتها وانتشارها بهذه السرعة الهائلة كان يقضى بوجود  
أبي بكر الصديق على رأس المسلمين في المرحلة التي تركهم النبي فيها وآثر الرفيق

الأعلى - فشمخية أبي بكر في تكويرها وفيما طبعت عليه من تمثل لسكل اعمال الرسول ، ومن تفتان شديد مسرف في شخصيته عليه السلام ، ومن تحر دقيق في كل ما يقدم عليه من اعمال حتى يكون ذلك متفقا اتفقا شديداً مع فعل النبي او قوله ، حتى انه يقف ومعه القلة من المسلمين في وجوب محاربة مانعي الزكاة ، ويقول كلمته المشهورة : ( والله لو منعوني عقبالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ) . وحتى أنه يتردد بعض التردد لما أشار عليه عمر بجمع القرآن لأنه لم ير الرسول يفعل ذلك . وحتى انه - والثورات تلعب بذيلها لتهدد الجزيرة العربية - ينفذ جيش أسامة الى الشام ؛ لأن الرسول كان يريد ذلك . !! بالرغم من حاجته الشديدة المسلحة الى وجود هذا الجيش بجانبه لتثبيت دعائم الأمن في ربوع الجزيرة العربية . ! هذه الشمخية بما طبع فيها من كل هذه المميزات والصفات تختلف اختلافا شديداً عن شخصية عمر - عن قسوته وشدته وصرامته على نفسه وعلى غيره من المسلمين ، وعن استقلاله في الرأي واجتهاده في القول .

ويخيل لنا أننا لو وضعنا الفاروق مكان الصديق ، أو لو وضعنا الصديق مكان الفاروق لسكنا كمن وضع الشيء في غير محله . ولترتب على ذلك ما يكون من وضع شيء في غير محله من هذه النتيجة الطبيعية من التقلقل والتصدع الذي يؤدي حتماً الى الانهيار .

فالظروف الأولى في طبيعتها وتكليفها للحوادث التي نشأت عن وفاة النبي كانت توجب للقيادة شخصية كشخصية أبي بكر في رفقها ولينها ومحافظتها محافظة حربية دقيقة على روح الاسلام ، وعلى ما كان يأخذ به رسول الله المسلمين في أمور دينهم وديارهم .

أما الظروف في المرحلة الثانية - وهي التي اتسعت فيها رقعة الفتح الاسلامي وورث العرب الامبراطورية الفارسية والرومانية ، ووجدوا امامهم حياة تختلف عن حياتهم البدوية ، بل وجدوا أنفسهم فجأة وعلى حين غرة وقد تميات

لهم الظروف ، وأصبحت ملك أيديهم الوسائل ليحيوا الحياة التي كان يحياها  
عاهلا الفرس والروم؛ وما فيها من إغراق في الترف، ومن اندفاع شديد مسرف  
نحو الشهوة ، ومن فتنة لهم عن دينهم وما فيه من مثل عليا خلقية واجتماعية  
واقصادية كلفوا بالحرص على تحقيقها في أنفسهم وفي نفوس غيرهم من الناس -  
أقول إن هذه الظروف كانت تقضى وتحم بأن يكون على رأس المسلمين شخصية  
كشخصية عمر في عدله المطلق ، وفي قسوته الشديدة في سبيل الحق ، وفي  
مروته واجتهاده فيما يعن له وللمسلمين من أمور ، وفي إلمامه بكل صغيرة  
وكبيرة من شئون رعاياه حتى ما يكون من أخص خصائصهم ، وفي رقابته  
الشديدة على عماله في كافة الأمصار ومحاسبتهم حسابا عسيرا وعدم التساهل  
معهم في شيء . . .

وتقريرنا لهذا المبدأ ليس اعتباطا منا ؛ وإنما هو شيء ضروري لنجاح أي  
دعوة أو إخفاقها . فطبيعة الدعوة واستعداد الشخص القائم بها أو القائم عليها  
من أقوى العوامل في تقرير مصير هذه الدعوة من القوة أو الضعف ، ومن  
الإخفاق أو النجاح .

هذه هي القواعد الخلقية ، ومدى تمسك عمر بها كما صور ذلك في خطبته ،  
ثم فيما ذكرناه لك في هذه الأشياء التي جاءت في ثنايا الحديث عنه .

أما نظرتة الاجتماعية - وهي التي خالف بها الصديق من عدم المساواة  
المطلقة في الأغطية - فلا يمكن أن نحملها على أن عمر كان يقر نظام الطبقات ،  
ولا يمكن أن نستدل من ذلك على عدم إيمانه بالمساواة المطلقة التي دعا إليها  
الاسلام وعمل بها رسول الله في حياته ، وحافظ عليها خليفته الأول من بعده .

إننا نستطيع أن نستدل على نظرة عمر الى هذه المسألة من رده على ابنه عبد  
الله لما سأله واستفسر منه - كيف يفرض لأسامة بن زيد خمسة آلاف من  
العطاء ويفرض له ألفين ، وقد شهد من الغزوات ما لم يشهد أسامة ؟ قال عمر  
لابنه : ( إن أسامة كان أحب الى رسول الله منك ؛ وأبوه أحب الى رسول  
الله من أيك ) . . .



إذا فنظرة عمر الى هذه المسألة لم تكن إلا في هذه الحدود الضيقة الموقوفة  
وهي القرب من الرسول أو البعد عنه . ولم تكن تشريعاً عاماً يعمل به ويستند  
اليه ، وإنما كانت كما ارتأى هو في العطاء : ( لا أجعل من قاتل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم كمن قاتل معه ) .

فأخلاق عمر وطباعه النفسية وتصوره للناس ولحقائق الحياة تتناهي مع  
ميله لوجود الطبقات . وتنهض دليلاً قوياً على إيمانه بالمساواة المطلقة التي  
لا يحدّها حد ولا يقيدّها قيد .

ونظرة يسيرة الى ما كان يأخذ به نفسه ، ويعالج به شئون المسلمين . . تبين  
لك ما اضطبغت به نفسه من حبّ للمساواة في الحقوق والواجبات وفي كافة  
الشئون الأخرى . فليس موقفه من عمرو بن العاص حينما اشتكى اليه قبلى من  
مصر اعتداء ابن عمرو على ابنه بغريب على من قرأ المبادئ المبسطة في التاريخ  
الاسلامى .

ثم موقفه من جبلة بن الأيهم حينما كان يحج . وبينما هو يطوف بالبيت  
وطيء إزاره رجل من بني فزارة فأنحنى ، فرفع جبلة يده فشم أنف الفزارى .  
فاشتكاه الى عمر . فدعا عمر جبلة وسأله ، فاعترف بما حدث . فقال عمر لجبلة  
( قد أقررت فيما أن ترضى الرجل وإما أن أقيده منك ) . وأنكر جبلة ما  
سمع وقال ( وكيف ذلك وهو سوقة وأنا ملك !؟ ) قال عمر ( إن الاسلام  
جمعك وإياه ، فلست تفضله بشيء إلا بالتقى والعافية ) قال جبلة ( قد ظننت  
يا أمير المؤمنين أن أكون في الاسلام أعز منى في الجاهلية ) قال عمر ( دع  
عنك هذا ، فانك إن لم ترض الرجل أقدمته منك ) قال جبلة ( إذا أنتصر ) قال  
عمر ( اذا تنصرت ضربت عنقك لأنك أسلمت ، فان ارتددت قتلتك )

فلما رأى جبلة الصدق من عمر قال ( أنا ناظر في هذا ليلتي هذه ، ثم اتخذ  
الليل ستاراً له وفر هارباً الى الشام .

وحيثما كان يذكر عمر بلالا - مؤذن الرسول عليه السلام - وعتق أبي بكر له  
يقول : ( أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا )

وليس من يؤمن بتفاوت الطبقات هو الذي يقول :

( والله لئن جاءت الأعمام بالأعمال وجئنا بغير عمل ، فهم أولى بمحمد  
منا يوم القيامة . فان من قصر به عمله لا يسرع به نسبه )

ثم ليس من النظام الطبقي في شيء أن يكون حظ ابن خايقة المسلمين وولى أمرهم  
أقل من حظ شاب مثله - كأسماء بن زيد - في العطاء . ولما يستفسر ابن الخليفة  
والده في ذلك - وقد أبلى في الجهاد ما لم يتوفر لأسماء ، يكون رد هذا الوالد  
عليه : ( لقد كان أسماء أحب الى رسول الله منك ، وأبوه أحب الى رسول  
الله من أيك ) .

فكل هذه السمات والمظاهر والصور التي تترادف وتتراعى من وراء ذلك  
لا تدل إلا على أن ما فعله عمر لم يكن إلا نوعا من التمجيد لذكرى الرسول ،  
ولم يكن إلا صورة صادقة لعاطفة المحبة والإكبار لذاته الكريمة عليه السلام .  
بدلنا على ذلك ما أتواه عمر وما أفصح عنه في أخريات أيامه من أنه سيسوى  
في العطاء بين المسلمين ، وأنه سينهج نهج أبي بكر في ذلك ، ولو أن المنية وافته  
ولم يحقق ما أراد .

أما سياسة الفاروق الاقتصادية ورقابته الشديدة على عماله في كافة الأمصار  
وانفاقه المال في السبيل التي رسمها الاسلام - فلقد ضرب في كل ذلك أروع  
المثل .

اقرأ هذه الفقرة من خطبته التي استهل بها عهده :

( .. ولكم على أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها :

.. لكم على أن لا أجتبي شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا في

حقه . ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم

ولسكنم على ألا أقيمكم في المهالك ، وألا أجمركم في ثغوركم . وإذا غبتم في البعوث  
فأنا أبو العيال ) .

ثم انظر بعد ذلك ماذا كان موقفه في المعاهدة التي أبرمها أبو عبيدة  
ابن الجراح مع أهل دمشق ومن تعديله لبعض بنودها وأحكامها هذا التعديل  
الذي ينبئنا عن قوة عقله ومدى نظرته للأُمور وتصرفه فيها على مبادئ الحق .  
وعلى سنن العدالة الاجتماعية فقد جعل أبو عبيدة بن الجراح (الجزية (١) ديناراً  
وكيلاً معيناً من الخنطة على كل رأس وزيتاً وخلا لقوت المسلمين . هذا خلاف  
الضرائب التي كان الدمشقيون يدفعونها لحكامهم من الروم فقد ظلوا يدفعونها  
لمن قام على حكمهم من المسلمين .

أبلغ أبو عبيدة عهد الصلح عمر بن الخطاب فكتب إليه بتعديله . وذلك بأن  
فرق بين الطبقات في الجزية ، إذ جعل على الأغنياء أربعة دنانير عن كل رأس ،  
وأربعين درهماً على من دونهم ، وقيل بل جعلهم طبقات على قدر غنى الغنى ، وإقلال  
المقل ، وتوسط المتوسط ) .

ثم كان موقفه في منتهى الحزم والقوة . وفي غاية من النضج الاقتصادي  
والوعي الاجتماعي عندما اجتهد برأيه ونظر إلى بعيد . وقدر النتائج على المقدمات  
ولم يقبل أن تقسم الأرض بين الجنود الفاتحين الغازين كما هو الشأن في القيم  
المنقولة . ! ذلك أن المتعارف عليه وما قرره الشرع الحكيم أن ما يجلب من  
الغنيمة كان يرسل خمسة إلى أمير المؤمنين . وتوزع أربعة أخماسه بين الجنود  
المنتصرين عملاً بقوله تعالى ( واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة  
وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) وقد فهم المسلمون  
أن القيم الثابتة مثل القيم المنقولة مما ينطوي تحت هذه الآية الكريمة . وما  
يكون غنيمة يصدق عليها ما يصدق على غيرها من الغنائم ولذلك لما

(١) انظر كتاب الفاروق مرهيكلاً باشا ج ١ أول .

(فتح) المسلمون أرض السواد بالعراق أرادوا قسمتها على هذا النحو يكون  
خمسها لبيت المال ، ويقسم سائرهما بين الجند الذين اشتركوا في فتحها وخالفهم  
عمر رأيهم في قسمة الأرض وقال : فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون  
الأرض بعلوجها قد قسمت وورثت عن الآباء وحيزت ! ما هذا برأى قال  
عبد الرحمن بن عوف : الأرض والعلوج إلا ما أفاء الله عليهم ! أى على  
الفاحين ورد عليه عمر : ما هو إلا كما تقول ، ولست أرى ذلك ، والله ما يفتح  
بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين . فإذا  
قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها فإذا تسد به الثغور وما  
يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق !

لم يسترح الفاتحون إلى قول عمر : فأكثروا عليه وقالوا : أتقف ما أفاء الله  
علينا بأسيا فنا على قوم لم يحضروا ! أما عمر فأصر على رأيه ولم يزد على أنه قال :  
هذا رأى . فلما رأوا إصراره عليه قالوا : فاستشر . فجمع المهاجرين الأولين  
فاختلفوا : بيق عبد الرحمن بن عوف على رأيه أن تقسم لهم حقوقهم ، ورأى  
عثمان وعلى وطلحة رأى عمر ، وأرسل عمر إلى عشرة من كبار الأنصار  
وأشرافهم . خمسة من الأوس . وخمسة من الخزرج . وقال لهم « إني لم أزعجكم  
إلا لنشركوا في أماتي فيما حملت من أموركم فإني واحد كما حدكم وأنتم اليوم  
نقرون بالحق . خالفني من خالفني . ووافقني من وافقني . ولست أريد أن تتبعوا  
هذا الذي هو هواي ، فلكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله لئن كنت نطقت  
بأمر أريده ما أريد به إلا الحق ! » قالوا : « قل نسمع يا أمير المؤمنين ، قال  
عمر : « قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا أني أظلمهم حقوقهم ، وإني  
أعوذ بالله أن أركب ظلما ! لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم ، وأعطيته غيرهم لقد  
شقيت ، لكني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى . وقد غنمنا الله  
أموالهم وأرضهم وعلوهم فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت

الخمس فوجهته على وجهه . وأنا في توجيهه وقد رأيت أن أحبس الأرضين  
بعلوجها . وأضع عليهم فيها الخراج . وفي رقايم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً  
للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . رأيت هذه الثغور لا بد لها من  
رجال يلزمونها ! رأيت هذه المدن العظام ، لا بد لها من أن تشحن بالجيوش ،  
ولا بد من لها إدرار العطاء عليهم ! فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض  
والعلوج ١٩ ،

هذا هو رأى عمر وما فيه من صراحة وقوة واجتهاد . ونظرة بعيدة إلى  
مستقبل الإسلام والمسلمين . وما تكون عليهم حالتهم لو أطاع هؤلاء الجند  
إلى ما يريدون ولذلك لم يلبث هؤلاء الأنصار العشرة أن قالوا : الرأى رأيك  
فنعم ما قلت . وما رأيت ! إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال  
وتجربى عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر إلى مدتهم .

إلى هنا نسكتفي بهذا القدر . ونقف برهة متأملين فيما عرضناه من صور  
تفصح عن روح الإسلام في مراحل الثلاث الأولى وهي عصر النبي وعصر  
الصديق أبي بكر وعصر الفاروق عمر . وقد رأينا كيف نمت روح الإسلام  
فيها جميعاً وكيف ترعرعت ونضجت وكملت في مظهرها وجوهرها . وأصبح  
لها سلطان . كسلطان الغريزة في النفوس . والعقيدة في القلوب . وذلك لم يكن  
إلا بفضل ما أفاض الله به على نبيه من قوة الشخصية . ومن صفة العبقرية ثم  
بفضل ما أتته كل من الخليفين الأولين من طبيعة ومن إيماءات نفسية كانت  
تختلف في كل منهما بعض الشيء . ولسكنها على كل حال كانت تتفق وطبيعة  
المشاكل وعلاجها . وكانت شخصية كل منهما واعية تماماً لسيكولوجية النفوس  
والحوادث . وما يترتب عليها من آثار . فتعمل لها عملها وتحسب من أجلها  
حسابها ، وتأخذ بناصيتها . فتتحكم فيها وتوجهها نحو الصالح العام . ولا تجعل  
لها أدنى سيطرة عليها في أى شأن من الشؤون أو أمر من الأمور .

ولسكننا عندما نترك هذه المراحل الثلاث لنستقبل مرحلة أخرى من مراحل التاريخ الإسلامي نجد أن الإسلام قد ترحلح بعض الشيء عن مكانته . وقد فرط بعض الشيء في جوهره الذي ظل محافظاً عليه محافظة دقيقة بكل ما ترمى إليه هذه الكلمة من معنى فكانت سبيله ووسائله تختلف في معالجة الحوادث والقضاء في الأقضية ، والإجتهد في التشريع ولكن جوهره لم يمس أبداً ، ولم يتساهل أى خليفة من الخلفين السابقين في أن يمس جوهره ويعتدى على أى ركن من أركانه أدنى تساهل .

ولسكن في هذه المرحلة التي تولى فيها زمام الخلافة عثمان بن عفان نجد التوفيق الذي لازم الإسلام في عهد الخلفيتين السابقين قد تخلى عنه في عهد الخليفة الثالث ونجد أن الإسلام فقد في هذه المرحلة أقوى ما كان يعتمد عليه في شخصية قائده من صفات وسمات تتفق مع قوة نهضته وتطوره ومن تكافؤ للتغلب على ما كان يعترض سبيله من صعاب . ويلم به من أحداث ، ونستطيع هنا أن نبرز الدليل على صحة نظريتنا التي اثبتناها في هذا الفصل وهي أن العامل القوى في نشر الدعوة الإسلامية ونموها وقوتها بهذه السرعة التي لم يرو التاريخ لها مثيلاً لم يكن لما في الدعوة من حق وعدل . ومبادئ حضارية فقط ، وإنما كان أيضاً لشخصية مثل الدعوة وقائدها : ومقدار حظه من الوعي لطبيعة الحوادث وعلاجها والتغلب عليها أثر كبير في ذلك .

فطبيعة الصديق أنى بكر كانت تتفق كما قلت وطبيعة الدعوة الإسلامية . بعد أن رفع النبي إلى الرفيق الأعلى ، وذلك لما تنطوى عليه شخصيته من رفق ولين ورحمة ، ومن تمثل شديد قوى . لسكل فعل ، أو قول عن رسول الله عليه السلام ، فكان شعاره في كل شيء ما أثر عنه من قوله ( إنما أنا تبع ولست بمبتدع ) وذلك لأن الدعوة لم تكن قد تأصلت بعد في نفوس كل العرب . ولم تكن الظروف القاسية التي أحاطت بالمسلمين بعد وفاة النبي - ولم كثر عليه السلام بعد إكمال الدعوة بينهم كثير - تقبل أى تغيير ولو كان طفيفاً فيما كان

يأخذ به المسلمين في أمور دينهم ودنياهم ، ولم يكن صالح الدعوة يسمح بأى تزحزح أو تحلل ولو كان يسير عن سمات وطبيعة عصر النبي عليه السلام .

أما في عصر الفاروق . وهو الذى وعى فيه العرب الدعوة الاسلامية على حقيقتها . ووطد الاسلام أركانه ، وتغلب على ما كان يتذبذب أمامه من عوامل الارتداد والنكسة واتسعت الفتوح الاسلامية حتى اخضع العرب لسيطرتهم ما كانت تنتظمه امبراطوريتا فارس والروم من أمم وشعوب تختلفان في الأمزجة والطباع وتنافران في سبل الحياة ، ووجدت مع هذا الفتح عوامل الاغراء للشهوات الدنيا ، وعوامل الفتنة عن الدين . ثم ما كان يتطلبه سرعة هذا الفتح واتساعه وتباينه لاسكل ذلك كانت شخصية عمر وما تتميز به من شدة وقوة وعدل ومضاء واجتهاد هي الشخصية التى نتكافأ وطبيعة الدعوة ومستلزمات هذه الفترة من حياة الاسلام .. ! ولما كنا عندما ننظر إلى ما بعد ذلك نجد فى غير مشقة ولا عسر أن قوة الشخصية . وتكافأها على طبيعة الظروف والأشياء ووعيا للحقائق وترتيبها النتائج على المقدمات لم تكن كما كنا نرجو فى قوة شخصية أبى بكر وعمر . ومن هذه النقطة الأولى وهى ضعف شخصية الخليفة الثالث عثمان بن عفان تبرز أمامنا أشياء فى غاية الخطورة وفى منتهى النكر أمام نظرة الاسلام فما لاشك فيه أن الاسلام حارب العنصرية فى نفوس العرب فى غير هوادة ولا شفقة . وهناك آيات كثيرة من القرآن الكريم ، واحاديث نبوية موثوق بصحتها انكرت العنصرية والتفاخر والتعالى بالآباء والانساب وكان هذا من الأسس الثلاث التى اعتمدت عليها الدعوة الاسلامية . وهو الركن الاجتماعى ، وقد اسهبنا فى شرحه فيما سبق ، ولكن هذا الشبح المخيف بعد أن حورب فى نفوس العرب وقضى عليه قضاء تاما فى عهد النبي وأبى بكر وعمر أصبح يطل بوجهه الكئيب من جديد فى عهد عثمان وتغلبت الطبيعة الجاهلية العاشمة وهى التعصب والتعالى بالعنصرية فى نفوس العرب على طبيعة الاسلام السمحة الصافية ، وكان من أثر ذلك أن فرط

الخليفة الحاكم بعض الشيء في أهم ركن من أركان الاسلام .  
ولسنا ندين لمن يقولون بأن العرب لم يكن لهم مفر من الرجوع إلى هذه  
العصية العنصرية بعد أن ظهر لهم في وضوح لا يقبل الشك هذه المؤامرة  
الفارسية التي كان ضحيتها عمر بن الخطاب . ولكن مهما يكن من شيء فإن هذه  
الحادثة في خطورتها وهي قتل الخليفة لم تكن تبرر أبداً التضحية ولو بعض الشيء  
بأهم ركن من أركان الاسلام . وبأن يترك العرب يتخلقون بأخلاقهم الأولى  
في بداوتهم وجاهليتهم ، وكان من أثر ضعف هذه الشخصية وعدم تكافؤها  
وماورثته من مسائل جسام ، ومن مشاكل متعددة استتبعت اتساع الفتح الاسلامي  
أن أصبحت أسرة عثمان هي كل شيء . وهي المسيطرة على شئون هذه  
الامبراطورية الناشئة .

ولسنا ندين كذلك لمن يبررون هذا المسلك من عثمان بما يشاهدون مثيله  
اليوم في المذاهب السياسية المعاصرة ، وهو أن الحاكم إذا لم يستعن بأقاربه فهو  
يستعين حتماً في إدارة شئون الدولة برجال حزبه ممن يجمعهم وإياه مبدأ واحد  
وهذا إن لم يكن أقوى من القرابة فهو بمثابة أعلى الأقل . ثم إن أقرباء الانسان  
هم أولى الناس بالإتقان على مصالح الدولة وأشدهم حرصاً على التعاون معه في  
تصريف شئونها ، والنهوض بها ، ولكننا ننكر هذا التعليل الواهي في قوة  
وصراحة ، فالاسلام له ذاتيته الخاصة ، وفلسفته الجديدة التي كانت تنتفع بكل  
المواهب الخيرة في الانسان دون نظر إلى خلقته أو مكانته في المجتمع العربي ،  
والاسلام عندما أوجب التعامل والتعاون بين المسلمين ، وأن يحس بعضهم  
ياحساس بعض وعندما سن النبي الأخاء بين المهاجرين والأنصار كان يريد من  
وراء ذلك كله أن يوجد بين المسلمين رباطاً أقوى من رباط الأسرة وأن يجعلهم  
جميعاً كجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر  
فوجود هذه التعليقات هنا لا يتفق وهذا المجتمع الاسلامي الذي رباه النبي  
ونفض به أبو بكر وعمر .



ولسنا نزيد من وراء كل ذلك أن تهتم عثمان في إيمانه أو أخلاقه فإن هذا  
عما لا يمكن أن يرقى إليه الشك . إنما تهتم الفقر والضعف في شخصيته .  
وتهتم نظره القصير الذي مهد سبيل الفتنة الكبرى أن تأخذ طريقها إلى  
الإسلام وإن كان هو لم يفكر في ذلك . ولم يدبر بخلده أي مصير ينتظره  
الإسلام من جراء سياسته هذه الضعيفة المضطربة . ومثل بسيط نسوقه هنا  
يدلنا على مدى ضعفه . وقصر نظره . وعدم إحاطته بكل شئون رعيته  
وتساهله الشديد المسرف مع عملائه على الامصار حتى أصبحوا هم المسيطرون  
وخدمهم على شئون الرعية يتحكمون فيها دون حسيب ولا رقيب وهو أنه عندما  
تولى الخلافة عزل الولاة عن الامصار في عهد عمر وولى مكانهم أقاربه وكان  
والى مصر في عهده أخوه من الرضاعة عبد الله بن أبي سرح . وحينما تبين لعثمان  
أن الجباية قد زادت في مصر عما كانت عليه في عهد عمرو بن العاص بمقدار  
ألف دينار قال لعمرو « إن اللقاح بعدك قد درت اء أجابه عمرو في تهكم  
« لأنكم قد أعجمتم الفصلان اء هذا مثل واحد نسوقه هنا ليدلك على ما كان  
يعتور المجتمع الإسلامي في ذلك الوقت وما كان ينفعل به المسلمون في كافة  
الامصار مما مهد الطريق لانبعاث عوامل الفتنة التي كانت شرأ وبلاء ونكبة  
على المسلمين ذلك أن علي بن أبي طالب يوافق في ذلك أقاربه من البيت الهاشمي  
كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد موت النبي مباشرة ولم يكن إيمان علي  
بذلك قائماً على أساس أن الخلافة تورث . وإنما كان قائماً على أساس أن  
المهاجرين والأنصار عندما اختلفوا في سقيفة بني ساعدة في أمر الخلافة كانت  
حجة المهاجرين في أنهم أولى بالخلافة من الأنصار أنهم أهل النبي وأقرباؤه  
الأدون . فلم إذا لا يكون علياً أولى بالخلافة من هؤلاء المهاجرين أنفسهم  
وهو من البيت الهاشمي أولاً وابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ثانياً . . . ! إلا أن  
علياً وحزبه من المعارضين كانت تتغلب عليهم العاطفة الدينية . وكان يتغلب  
عليهم الإيمان القوي في عهد أبي بكر وعمر فيلغون في أنفسهم ذاتيتهم ويتغاضون

عما يعتبرونه حقاً وواجباً لهم ما دام في ذلك خير الاسلام وعزه ومجده بمثلاً في صلاح ، وقوة ، شخصية خليفة المسلمين ، وولى أمرهم .

أما في عهد عثمان . وقد استشرى فيه الداء . وأصبح تدمر المسلمين واضحاً في كل أنحاء الإمبراطورية ، وذلك لضعفه ولينه وعدم سيطرته على الأمور ، فقد ظهر حزب على وأصبحت معارضته سافرة قوبة فيما يعتبره منسكراً وإثماً في حق الدين . وكان هذا هو أول الشر . وأولى النكبات التي منى بها الاسلام هذا عرض سريع اسهبنا في بعض مواضع فيه لأنه لم يكن لنا يد من هذا الاسباب وذلك لنستظهر رأينا الذي تؤمن به وهو أن السبب الأول . أو السبب الخفي المستتر فيما ادى بالمسلمين إلى التأخر إنما وجد في عهد عثمان بن عفان . وهو تضحيته بركن خطير من أركان الدعوة الاسلامية وهو الركن الاجتماعي وما استتبع ذلك من وجود طبقة اروسقراطية . ومن وجود اناس شرهين لجمع المال . مكثزين له دون أن يسألهم الخليفة من اين لسكهم هذا . . ! ودون أن ينسكروا عليهم حياة الترف والبخس التي كانوا يعيشونها في غير اعتدال بل في إسراف .

وربما يعن للقارىء هنا ان يسأل سؤالاً وهو كيف يتفق ان يكون الباعث في تأخر المسلمين قد نشأ في عهد عثمان . وقد رأينا الإمبراطورية الاسلامية تنمو وتتسع في عهده . وتضخم فتوحاتها في عهد من خلفه من الأمويين . وجوابنا على هذا السؤال يستلزم أن نسأل سؤالاً آخر وهو هل كان انتصار المسلمين على أعدائهم وهل كان اخضاعهم الإمبراطوريتين العظيمتين فارس والروم . لقوة تسليحهم . واستعدادهم المادى ، وفقر خصومهم في كل ذلك . ام كان لروحهم المعنوية ولشعورهم بأنهم على حق . ! نعتقد ان التعليل الأول لا يؤخذ به لأن المتفق عايه ، والذي لم يختلف فيه أى مؤرخ من المؤرخين ان الأمة العربية كانت فقيرة جداً ليس لها أى حظ من المادة . كما أنها لم تتوفر لها من معدات الحرب مثل ما كان لفارس أو الروم ثم إن التعليل الثاني

ليس هو كل شيء . وإنما هناك عامل خطير جداً كان السبب القوي في نصره  
العرب على غيرهم من الأمم والشعوب . وهو أن تلك الأمم والشعوب  
التي اخضعها العرب لسلطانهم . كان قد نفذ رصيدها من الخلق . وكانت قد فقدت  
ما تسعى إليه كل أمة ناهضة من أهداف . وما تتمثله من مثل عليا في الحياة .  
وهكذا نجد أن اتساع رقعة الفتوح الاسلامية لا يرجع الفضل فيها إلى عثمان  
أو خلفاء بني امية . وإنما يرجع إلى أن الاسلام في عهد النبي وابي بكر وعمر  
كان قد قضى على كل ما أمامه من قوة . وكان قد تخطى كل ما وضع في طريقه من  
سدود . وكان قد حطم كل مقاومة جديدة تحد من مضائه ونفاذه حتى جاء عهد  
عثمان وما تبعه من عهود ولم يكن قد وجدت بعد أية مقاومة تستطيع أن تقف  
في طريقه . ثم إنه ليس من السهولة بمكان أن يتأثر الاسلام في يوم وليلة وهو  
هذا الطود الشاخ بما يتسرب إلى جسمه من جراثيم وأدواء . وإنما كانت عوامل  
الصحة والقوة والحياة فيه تتغلب على هذه الجراثيم والأدواء دائماً وإن كانت  
لم تستطع أن تقضى عليها القضاء الأخير . حتى قدر لها أخيراً أن تتجمع وتتكاثر  
وأن تقضى عليه هو قضاء لا هوادة فيه وذلك لما ارتكبه بعض خلفاء  
الأمويين والعباسيين من منكر وإثم في حق الدين مما سنمر به عليك  
مرأ سريعاً .

ذلك أن الأمويين بعد أن استتب لهم الملك بمقتل علي . وبعد أن وطد  
معاوية سلطانه بهذا الخداع السياسي الذي سماه التحكيم . والذي لا يمكن إلا أن  
يفزع منه الضمير الإنساني . ويتقرز منه الخلق القويم . أقول بعد أن استتب  
السلطان لمعاوية بهذه الطريقة الشائنة لم يفرض في سياسته بما اعتمدت عليه  
الدعوة الاسلامية من الركن الاجتماعي فقط . وإنما فرض أيضاً في ركن آخر  
خطير وهو الركن الخلقى ، وما نسجله هنا من شواهد وبيانات موثوق بروايتها  
أصدق دليل على ما نذهب إليه . والشئ الذي لا يمكن أن يختلف فيه اثنان  
هو أن الدولة الأموية كان طابعها البذخ والترف كما كان طابعها بعث العنصرية

العربية في نفوس العرب . . . وليست حياة الترف شراً في ذاتها إذا كان يتمتع بهذه الحياة كل فرد من أفراد الأمة . وإذا لم يكن ذلك فيه عبث بأموال الخزينة العامة - وهو بيت المال في ذلك الحين - وتبديد الأموال في غير السبيل التي وجدت من أجلها . . ! ثم إنه ليس بعث العنصرية في نفوس أمة من الأمم شراً كلها إلا إذا كان في ذلك هضم لحقوق غيرها من الأفراد والجماعات . وما سنثبته هنا يدل لنا على أن العهد الأموي بتمثيله حياة الأورستقراطية العربية . وحياة الترف بعد ما كان العرب زاهدين صادقين عن ملذات الحياة . نعتقد أن ذلك كان شراً محضاً بالنسبة لدعوة الإسلام . وما تحمله من فلسفة جديدة للعالم ومبادئ ومثل عليا للحياة: لأن معاوية وابنه يزيد استطاعا بذلك القضاء على كل معارضة أمامهما، ولم تكن سبيلهما في القضاء على هذه المعارضة شريفة كما استرى ، وإنما كانت أشبه شيء بالرشوة ، وشراء الذم ، وغصب التأيد بما يقدم لأصحابها من ثمن من مال الدولة . . . وهذا فيه إهدار لركن من أركان الإسلام وهو الركن الخلقى ( فلقد (١) كان عطاء الحسن والحسين ابني علي بحسب ديوان عمر خمسة آلاف درهم في السنة جعله معاوية مليوناً من الدراهم أي أنه ضاعفه مائتي مرة . وأعطى مثل ذلك لعبد الله بن عباس لأنه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكذا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . وغيرهم من أبناء الصحابة أهل النفوذ في الإسلام ممن يقيمون بالمدينة .

ويروى أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قدم على يزيد بن معاوية فقال له يزيد كم عطاؤك ؟ قال ألف ألف درهم قال قد أضعفناها لك . قال فذاك أبي وأمي وما قلتها لأحد . قال أضعفناها لك ثانية : فقيل ليزيد أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف درهم ؟ قال : ويحكم أنى أعطيتها أهل المدينة أجمعين فما يده فيه إلا عارية (١) ثم إذا نظرنا من ناحية أخرى . نرى أنه كان في بعث العنصرية

(١) كتاب الموالى في العصر الأموي للأستاذ النجار

في نفوس العرب الشر كل الشر على الدعوة الاسلامية وعلى قوة الامبراطورية  
وتألفها وارتباطها : ففضلا عن أن ذلك فيه إهدار تام لركن هام من أركان  
الدعوة ، فإنه قد فتح باب الصراع المر بين المسلمين حتى أن قيام الدولة العباسية  
على إشلء الدولة الأموية لم يكن إلا بسبب وجود هذه العنصرية وما حاق  
بالموالى من أذى واضطهاد ومنكر لا يقره الدين . والدليل على أن بعث هذه  
العنصرية استعمل في ناحيته السوء ما نذكره هنا بما يدل على نظرة معاوية  
وسياسته ومدى تصورده أو هضمه للدعوة الاسلامية وهو أن الحسن بن علي  
أعنتق جارية له وتزوجها فكتب إليه معاوية يقول (من (١) أمير المؤمنين معاوية  
إلى الحسن بن علي . أما بعد فإنه بلغنى أنك تزجت جاريتهك ، وتركت أكفاهك من  
قريش من نستحسن للولد ونمجد به في الصهر فلا لنفسك نظرت ولا لولدك انتقيت)  
فرد عليه الحسن قائلا ( أما بعد فقد بلغنى كتابك وتعييرك إياى بأنى تزوجت  
مولاتى . وتركت أكفانى من قريش فليس فوق رسول الله منتهى في شرف  
ولا غاية في نسب ، وإنما كانت ملك يمينى خرجت عن يدي بأمر التمسست فيه  
ثواب الله تعالى ثم ارتجمتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . وقد رفع الله  
بالإسلام الخسيسية ووضع عنابه النقيصة . فلا لوم على امرىء مسلم إلا فى أمر  
مأثم ، وإنما اللوم لوم الجاهلية ) وهناك ما هو أشد من ذلك فظاظة وقسوة  
وابتعاداً عن روح الدين وهو ما يروى ( من (٢) أن معاوية دعا الأحنف بن  
قيس وسمرة بن جندب فقال لهما : انى رأيت هذه الخمراء قد كثرت ( يقصد  
بالخمراء الموالى ) وأراها قد قطعت على السلف . وكأنى انظر إلى وثبة منهم على  
العرب والسلطان . فقد رأيت أن أقتل شطراً وأدع آخر لإقامة السوق ، وعمارة  
الطريق فما ترون ؟ فقال الأحنف أرى أن نفسى لا تطيب أخى لأمى وخالى  
ومولائى وقد شاركناهم وشاركونا فى النسب . وأطرق : فقال سمرة بن جندب

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى (٢) نفس المصدر

اجعلها إلى أيها الأمير فأنا أتولى ذلك فيهم وابلغ منه فقال قوما حتى انظر في هذا الأمر قال الأحنف فقمنا عنه وأنا خائف . وأتيت أهلي حزينا فلما كان بالغداة أرسل إلى فعلت أنه أخذ برأى وترك رأى سمرة).

ثم ما يروى أيضا من أن نافع بن جبير بن مطعم ، قدم رجلا من الموالي يصلى به ، فلامه العرب أشد اللوم فقال : إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه .

وكان نافع هذا ، إذا مرت به جنازة قال من هذا ؟ فان قالوا قرشي قال : واقوماه ، وإذا قالوا عربي قال : وابلوتاه ، وإذا قالوا مولى قال : هذا مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء .

ويروى أيضا أن خالد بن صفوان زوج مولى له من مولاة . ثم خطب في هذا الزواج أمام الناس فقال : أما بعد فان الله أعز وأجل من أن يذكر في نكاح هذين السكبين . وقد زوجنا هذه الفاعلة من هذا ابن الفاعلة .

هذه كلها أشياء تصور لنا المجتمع العربي في عهد الأمويين وما اعتوره من تغير شديد عن عهد النبي وخليفته أبي بكر وعمر والشيء الذي نحب أن نسجله هنا ما وجد من الأثر السيء نتيجة لتهاون عثمان أولا ، وما وجد من الاعتداء الصارخ على أركان الاسلام وروحه في عهد الأمويين والعباسيين ثانيا. حتى أسلبه الآخرون إلى دور التأخر والانحلال .

وهناك أمور على جانب هام من الخطورة غفل عنها الأمويون محافظة على كياناتهم ، وتثبيتا لسلطانهم . وكانت بدورها أكبر كارثة مني بها الاسلام .

ذلك أن بغض الأمويين للموالي . واحتقارهم لهم . وعدم الاعتراف بمساواتهم في شيء . فضلا عن أنه قضى على ركن خطير كما قلت من أركان الاسلام . وهو الركن الاجتماعي . فإنه أنشأ في الدين بدعا جديدة ، وأحدث حدثاً يتنافر وطبيعة الاسلام . . . وهو هذه الأحاديث التي كانت تحتلق اختلاقا

وتروى عن النبي عليه السلام . وذلك لتبرير عدم هذه المساواة :  
من ذلك ما يروى من أن النبي عليه السلام قال :

(ألا (١) لا يزوج النساء إلا الأولياء ، ولا يزوجن إلا من الأكفاء) .  
وما نسب إليه من قوله أيضاً ( قريش بعضهم أكفاء لبعض بطن بطن .  
والعرب بعضهم أكفاء لبعض قبيلة بقبيلة ، والموالى بعضهم أكفاء لبعض  
رجل برجل ) .

كان فتح هذا الباب الذى شجعتة السياسة الأموية . وهو تأييد هذه  
الأحاديث الموضوعية والمنسوبة إلى النبي عليه السلام شر أى شر أصيب  
به الاسلام .! ويكفى أن تعلم أن الأحاديث الموضوعية صارت تربو أخيراً عن  
ستماية ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف حديث لدى البخارى  
ونعتقد أنه كان من أثر فتح هذا الباب وتشجيع السياسة الأموية له أن عادت  
إلى نفوس العرب عنجهيتها الجاهلية . وإلى نفوس غيرهم من الأمم الخاضعة لهم  
حقدها الدفين ، حتى أن قيام الدولة العباسية على أشلاء الأمويين لم يكن إلا  
بفضل الموالى وعلى رأسهم أبو مسلم الخرساني الذى انكر نسبه فى سبيل  
مناهضته لدولة الأمويين ، ودعوة أهل خراسان إلى الإنقضاء عليها فاصطنع  
لنفسه نسباً عربياً وزعم أنه من نسل سليط بن عبد الله بن عباس . وإن كان  
لم يعلن ذلك إلا بعد قيام الدولة العباسية .

ثم إن هناك شيئاً على جانب كبير من الخطورة . وهو أن الأمويين كانوا  
يؤمنون فيما بينهم وبين أنفسهم بأن بناء دولتهم قام على أسس تتنافر والخلق  
السكريم . وبأن الحزب العلوى الهاشمى يصممهم بأنهم أخذوا الملك غصباً واحتيالاً  
فلم يكن لهم مفر من أن يعتصموا بشيء يظهرون به أحقيتهم فى الخلافة ، وأنها

---

(١) كتاب الموالى فى العصر الأموى .

من الأمور المسئلة لهم منذ الأزل فأثاروا في زمنهم مشكلة الجبرية، وشجعوها وعملوا لها. حتى برهنوا للناس على أن هذا الملك الذي استولوا عليه كتب لهم منذ الأزل متغاضين عن نتائج ذلك، وعمّا أحدثه في الإسلام من فرقة وعمّقتل في المسلمين من حرية الرأي وقوة الإرادة. ولم تكن هذه الجبرية - أو حكم القضاء والقدر - الذي فهموه مما يتفق ونظرة الإسلام وحقيقته. وإنما كان شيئاً أشبه كثيراً بمذهب الرواقيين اليونانيين، وهو الذي يدعو إلى القعود والإستسلام، وأن العيش ليس بالسعى ولا بالتدبير، وإنما هو بالرزق والتقدير دون أن يكون لعمل الإنسان فضل في ذلك. وأن ما قدر أو كان. كتب على الإنسان منذ الأزل. دون أن يكون له اختيار أو زيادة فيه، وإن كان هذا المذهب لم يستكمل عناصر قوته وانتشاره إلا في العصر العباسي.

وإذا أردنا نحن أن نلم المامة خاطفة بنظرة الإسلام إلى هذه الجبرية. نجد أنه صورها تصويراً يتفق مع العقل والمنطق. ومع ما ينشده للإنسان من سمو وراحة واطمئنان.

والذي أحب أن أكرره هنا قبل أن ألمس هذه المسألة لمسأ خفيفاً هو أن من يريد أن يفهم الإسلام على حقيقته يجب أن يؤمن بأنه لا يتجزأ، وبأنه مكمل بعضه بعضاً في كافة تعاليمه وأوامره ونواهيه ويجب أن يضع نصب عينيه دائماً ما ينشده الإسلام من غايات من وراء ذلك كله.

والإسلام في هذه المسألة كان واعياً تماماً حقيقة النفس الانسانية، وكان خبيراً بما يعتورها من ضعف. وما تنهار به من مؤثرات. فوجد لها من هذه الجبرية حصناً، وعلاجاً يقبها شر الانهيار فالإنسان يسعى ويعمل، فإذا قدر له الفوز فلا يتعالى ولا يستكبر، وليحمد الله، لأنه هو الذي كتب له الفوز وأعانته عليه وإذا أخفق فلا ينهار ولا يتحسر، ولا يضعف ويتلاشى أمام ما يعترضه من حواجز، وينزل عليه من كوارث، لأن الله هو الذي أراد له



ذلك فالحمد لله في الأولى والراحة النفسية في الأخرى .

وإذا علمنا من جهة أخرى أن وجود الانسان ذاته خاضع لأشياء أخرى خارجة عن إرادته . وأنه يكيف حياته بعوامل ليست من اختياره وإن كانت خافية عليه وذلك لظروف البيئة . وحكم الوراثة . وأن الإنسان في أعماله ، بل حتى في مشاعره وإحساساته ، خاضع خضوعاً تاماً لأشياء ليس له أدنى حظ في خلقها أو تفاعلها . وإنما هي مسيطرة عليه راسمة له حياته الوجودية بحكم القوانين الطبيعية . ومستلزمات الجنس والوراثة .

إذا علمنا ذلك كله تبين لنا بوضوح أن هناك قوى خفية أقوى من الانسان ترسم له حياته . وتتحكم في تكيف وجوده .

يقول سينيوزا ( إن الانسان إنما يعتقد أنه حر لأنه يجمل الأسباب التي تدفعه إلى الفعل ) .

ونعود مرة أخرى ، فنأخذ فيما كنا فيه . فنقول أنه كان من أثر تشجيع الأمويين لهذه الجبرية التي رأيت أن الاسلام برىء منها أن أصبح العامة وأشباههم من جمهرة المسالمين يفهمون الدين على غير حقيقته . ويتساهلون فيما يقدم عليه الخليفة من منكر ، وفيما يأتيه من إثم . حتى أننا نجد خليفة من الخلفاء الأمويين . وهو عبد الملك بن مروان يقتل عمراً بن سعيد حينما دعاه لزيارته ، وقد ذهب إليه في نفر من أتباعه يبلغون الأربعة آلاف رجل أحاطوا بقصر عبد الملك بن مروان « فلما قتل عبد الملك عمراً أدرجه في بساط وأدخله تحت السرير ، ودخل عليه حينذاك قيصة بن ذؤيب الخزاعي ، وكان أحد الفقهاء ، ورضيع عبد الملك ، وصاحب خاتمه ومشورته ، فقال له عبد الملك ما رأيك في عمرو بن سعيد ، فأبصر قيصة رجل عمرو تحت السرير فقال له اضرب عنقه يا أمير المؤمنين . فقال له عبد الملك جزاك الله خيراً ، فما علمتكم إلا ناصحاً أميناً موافقاً . قال له : فيما ترى في هؤلاء الذين أحذقوا

بنا ، وأحاطوا بقصرنا ؟ قال قبيصة : اطرح رأسه إليهم ، ثم اطرح عليهم  
الدنانير والدرهم يتشاغلون بها قال : فأمر عبد الملك برأس عمرو أن تطرح  
إليهم من أعلى القصر . فطرح إليهم . وطرح الدنانير ، ونثرت الدرهم ،  
ثم هتف عليهم الهاتف ينادى : ( إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان  
من القضاء السابق ، والأمر النافذ ..!! ) وكان على أمير المؤمنين عهد الله وميثاقه  
أن يحمل راجلكم ، ويكسو عاريكم ، ويغني فقيركم فيبلغكم إلى أكل ما يكون  
من العطاء والرزق ، ويبلغكم إلى المائتين في الديوان فاعترضوا على ديوانكم  
واقبلوا أمره . واسكنوا إلى عهده . يسلم لكم دينكم ودنياكم . قال فصاحوا  
نعم نعم سمعا وطاعة لأمير المؤمنين .

هكذا قد صورنا لك الاسلام في عهد الأمويين ، ووضحنا لك نظرهم  
للعقيدة الدينية ، وأنهم لم يكونوا حريصين على تثبيت قواعد الاسلام الخلقية  
والاجتماعية والاقتصادية قدر ما كانوا حريصين على دعم سلطانهم . وسيادة  
عنصرهم ، وتقوية دولتهم .

بعد ذلك ننتقل بك إلى عصر العباسيين فنستظهر سياستهم لنرى إلى أي حد  
تكون مسئوليتهم فيما ألم بالاسلام من عوامل التأخر ، ودواعي الانتكاس ،  
وأول شيء تتميز به سياسة العباسيين أنهم أنكروا على الأمويين ابتعادهم عن  
الدين ، وتغاضيهم عن تعاليمه في إقامة دولتهم فأخواهم بين الدين والدولة  
بل جعلوا دولتهم قائمة على أسس دينية محضه ، وهذا شيء عظيم جدا خطير  
حقا . لو أنهم أخذوا الدين ضافيا خالصا لما ألم به من خرافات واختلاقات .  
ولكنهم أقاموا دولتهم على أسس رهبانية ينكرها الاسلام ولا تتفق  
وروحه ورسالته .

ولأنجب أن نطيل كثيراً لأن غرضنا من هذا الفصل أن نستكشف  
الباعث الحقيقي الأول فيما أدى بالمسلمين إلى حالة التأخر والانحطاط . وقد

أرىناك هذا الباعث فيما عرضنا لك مما سبق . ولسكننا قبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نسير قليلاً لنعرض لك الأدوار التي مر بها الإسلام في عهد العباسيين حتى اسلموه إلى دور الانحلال

لقد علمت بما قدمناه لك أن الدولة العباسية اعتمدت في قيامها على الفرس وأن هؤلاء الفرس من الموالى بما لهم من استعداد قوى في البحث . وبما لهم من من أفق واسع في دراسة العلوم . قد اتجهوا بكليتهم عندما رأوا الأمويين هاضمين حقوقهم الاجتماعية والسياسية إلى ميدان البحث والعلم فبرزوا في ذلك أي تبرز . وسيطروا على الحركة الفكرية في الأبراطوية العربية . وكان منهم المخلصون للدين . وغير المخلصين : وهؤلاء الآخرون وهم السكثرة الغالبة . قد اصطنعوا في الإسلام عناصر دياناتهم السابقة من مجوسية وغيرها . وشجعهم في التنغالي في ذلك أن الأمويين لم يكونوا ينظرون إلى هذه الاختلافات في الدين نظرة الجذ والصرامة . وإنما كانوا منصرفين إلى تقوية دولتهم بسبيلين آخرين هما العنصرية أولاً . والمال ثانياً . ثم من جهة أخرى نجد أن هناك عاملين خطيرين مهدا السبيل لإضافة هذه الاختلافات إلى الدين . وعدم محاربتها . والقضاء عليها وهي في مهدها . أولهما فتح هذا الباب أولاً بيد الأمويين وهو اختراع تلك الأحاديث المنسوبة إلى النبي عليه السلام لتفضيل العرب على غيرهم من الموالى . فلم يجد الموالى مانعاً من أن يدلواهم أيضاً بدلهم في هذا السبيل . ثانياً انضمام الموالى لحزب آل البيت . وتحالفهم معهم للقضاء على الدولة الأموية كان من الأمور التي استدعت اصطناع أحاديث كثيرة تنفق . وأغراض هذا الحزب : وأفضليته وأحقية في الخلافة . حتى أننا نجد زعماء المعارضة للأمويين كانوا يدعون في ظاهرهم لقيام خليفة من أهل البيت . وفي باطنهم لقيام خليفة من العباسيين لتكون هذه الدولة من صنعهم فيتحكمون فيها . ويوجهون سياستها حسب ما يشاؤون . ولذلك نجد أن الظاهرة الواضحة للدولة العباسية أنها اصطبغت في ظاهرها وباطنها بالعهد

الفارسي القديم . وبما كان يسود عصر الساسانيين من ترف وبذخ وفساد  
ونفاق وأتوقراطية في الحكم .

وإذا كانت الدولة الأموية قد اصطنعت في الإسلام نظام الطبقات . ونظام  
التمييز في الحقوق . وذلك بتفضيلها الجنس العربي على غيره . فقد تغالت الدولة  
العباسية في ذلك أشد المغالاة . وأصبحت الشعوية الفارسية تطل بوجهها على  
الجنس العربي . ولم يكن الخليفة في غالب الأحيان إلا آلة توجه وليس لها من  
الأمر شيء . ونسوق هنا حادثة واحدة تثبت ما نذهب إليه . وهو أن خليفة من  
الخلفاء لم يستطع أن يبرم أمراً أو ينفذ شيئاً إذا كان يتعارض وأغراض السياسة  
الفارسية ( من (١) ذلك أن أبا مسلم الخرساني وجه محمد بن الأشعث بن عبد الرحمن  
أميراً على فارس ، ورأى أبو العباس أن يستعمل عليها عمه عيسى بن علي . فعقد  
له عليها ، وأمره بالمسير إليها . فلما قدم عيسى على محمد بن الأشعث أبي أن يسلم  
إليه ، فقال له عيسى : يا ابن الأشعث . ألسنت في طاعة الإمام أبي العباس ؟  
قال : بلى . غير أن أبا مسلم أمرني ألا أسلم العمل إلى أحد من الناس . قال عيسى  
فإنما أبو مسلم عبد للإمام . وإن الإمام لا يرضى أن يرد أمره . قال محمد . دع  
عنيك هذا . لست أسلم العمل إلا بكتاب أبي مسلم . فانصرف عيسى إلى أبي  
العباس فأخبره بذلك فكظم غيظه . وأمر عمه بالمقام عنده فأقام ) .

وهكذا نرى أن الإسلام من أول عهد الخليفة عثمان بن عفان كانت تتصارع  
في جسمه الحي عوامل القوة والضعف . وكان دائماً بما يخزنه من حيوية زائدة  
يتغلب على عوامل الضعف ويطنغي عليها . ويجعلها تتلاشى فيه حتى مر عهد  
الأمويين . وعوامل الهدم تندافع نحوه وتتكاثر عليه إلى أن أتى عهد العباسيين  
ولم تكن هذه العوامل وحدها هي التي تأخذ عليه سييله . وتعمل عملها فيه .  
وإنما زاد على ذلك أن اصطبح الإسلام بصبغة رهبانية فظهرت الكهنوتية  
الدينية فيه ظهوراً واضحاً . وأصبح الخليفة يعتقد أنه ( ظل الله فوق الأرض )

(١) كتاب الموالى في العصر الأموي

وأنة يستمد سلطته من الله . . تماماً كما كان يزعم البابا في القرون الوسطى .  
 وهانحن أولاء تثبت هنا فقرات من خطاب للخليفة المنصور العباسى تظهرنا  
 على ما كان يسود عصر العباسيين من أوتوقراطية في الحكم ومن فهم للخلافة  
 لا يتفق وروح الإسلام .

قال المنصور العباسى :

( أيها الناس إنما أنا سلطان الله فى أرضه أسوسكم بتوفيقه وتأيدده .  
 وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته . وأعطيه ياذنه . فقد جعلنى الله عليه  
 قفلاً انشاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم . وقسم أرزاقكم وإن شاء أن يقفلنى  
 عليها أقفلنى ) .

وكان من الطبيعى أن يتحقق هنا ما يتحقق لأوربا فى عمود ظلمتها وجهلها  
 وتأخرها نتيجة لهذا النظام الأوتقراطى . وما يصحبه دائماً من قتل للحرية  
 الفردية . والسكرامة الانسانية . ومن محافظة شديدة على الرجعية . ومناهضة كل  
 فكرة تجديدية . ثم من محاربة مسرفة لجميع العلوم . والفنون التى تدعو إلى  
 سنة التطور . والارتقاء .

حتى أننا إذا وجدنا فى هذا العصر العباسى شيئاً من التشجيع للعلماء  
 والشعراء . فإن ذلك لم يكن لوجه الله . ولم يكن حقاً من الواجب على الدولة  
 نحو علماءها ونابعيها أن تمنحه إياهم . وإنما كان منحة يتفضل بها الخليفة على من  
 يذيب نفسه . ويمتهن كرامته تملقاً له . وإشادة بفضله . وكرمه . وهجواً مرأ  
 لخصومه من السياسيين . وكان الخليفة بعد ذلك إذا شاء أعطى . أعطى من  
 غير حساب من مال الدولة . وإذا شاء لم يعط : فلا أحد هناك بمستطيع  
 حساب . . .

نعتقد أننا إلى هنا قد أوفينا هذا الفصل حقه . وقد استظهرنا فيه العوامل

الحقيقية لتأخر المسلمين . مخالفين في ذلك ما أثبتنا لهم آراءهم في مقدمة هذا الفصل من مستشرقين ومفكرين إسلاميين ... ونعتقد أننا لسنا في حاجة لمناقشتهم آراءهم لأن ما عرضناه هنا فيه الرد المقنع لهم جميعاً .

بقي بعد أن عرفنا ، والممنا بما أدى بالمسلمين إلى هذا التأخر أن نعرف السبل والوسائل التي تؤدي بهم إلى النهوض والرقى ، وإلى أن يأخذوا بنصيبتهم في مجال التقدم الحضارى ، وإلى أن يكون لهم دورهم في المحافظة على كيان الإنسانية ، وسعادتها وهنائها . ذلك ما سنعالجه في الفصل الأخير من الكتاب .



## كيف ينهض المسلمون

إن من يحاول أن يكتب في هذا الموضوع ، وأن يلم به من جميع نواحيه لا بد أن يضع نصب عينيه دائماً حقيقتين ثابتتين ، لاسيلا إلى التغاضي عنهما بحال من الأحوال أولاهما . أن العالم الانساني أصبح الآن متصلا ببعضه ببعض اتصالا وثيقا يثأثر كل عضو فيه بما يثأثر به غيره من عوامل الخير والشر ، ومن عوامل الرخاء والضيق ، وأنه لاسيلا إلى أن تعيش أمة الآن في عزلة عن العالم إلا إذا أرادت لنفسها الفناء والانقراض . ثانيهما : أن الأفكار والآراء وكل وسائل المعرفة الإنسانية أصبحت الآن سهلة ميسرة . واضحت من السرعة والقوة في الانتشار بما يستطيع بها أي فرد في أي بقعة من العالم له استعداد في الفهم والإدراك أن يأخذ بنصيبه منها في الوقت الذي يتمتع فيه مواطنها بها ، فسرعة المواصلات من جهة . ووجود اللاسلوكي من جهة أخرى ثم تقدم الصحافة . واختراع السينما كل ذلك قد ربط العالم ببعضه ببعض حتى أصبح هذا الرباط الآن من القوة والشدة بحيث لا تستغنى عنه دولة من الدول كائنات من كانت ، ولا ينصب هذا الاستغناء على الأمور الاقتصادية وحدها ، وإنما على كل المسائل الثقافية ، وما تحمله من أفكار وآراء ونظريات . . . والذي يعيننا من كل هذه المقدمة أننا عندما ننظر الآن إلى أية أمة من الأمم الإسلامية أو غيرها من الأمم الشرقية التي لا تدين بالاسلام . نجد أنها تصطنع حياتها على نمط الحياة الغربية بأسلوب يختلف قوة وضعفاً حسب استعدادها ، وهضمها لهذه الحياة . فما هي الدوافع الحقيقية التي تدفع الشرق إلى ذلك سواء أراد أم لم يرد . ! أهى القوة ؟ أم هي السياسة الاستعمارية الغاشمة التي تتحكم في مصير الشعوب وشؤونها الداخلية والخارجية . نعتقد أنه لا هذا ولا ذلك لأن

التاريخ لم يحدثنا أن قوة من القوى مهما بلغت في شدتها وقسوتها قد قصت على كيان شعب من الشعوب فيما يتخلق به من مثل عليا . ومن مبادئ رقيقة تتفق وطبيعة التطور التاريخي للإنسان . بل كان ما يحدث هو العكس ، فروما المسيحية في قوتها وعظمتها ، ونهوضها قبل أن تحل عليها عصور الجهالة والظلمة قد أخذت عن اليونان تراثهم الفكري فتأثرت به ، وأثرت فيه ، والمسلمون وهم مازلوا بعد في قوتهم ، وعظمتهم وسيطرتهم على قيادة العالم هضموا تراث الفكر اليوناني والثقافة الاغريقية ، وحافظوا عليها ودبغة أمينة في أيديهم . كذلك لم يحدثنا التاريخ أن الاستعمار مهما كانت سطوته ووحشيته ، واستبداده بالشعوب والأمم التي ابتليت به استطاع أن يكيف لها حياتها رغمها ، وأن يغير عقائدها ونظرتها للأمور والأشياء دون أن يكون لأبناء هذه الشعوب والأمم إرادة في ذلك ، وارتياح له وسكون إليه ، وكان عمالا يتفق وطبيعة التطور والرقى في الإنسان والسكانات . نعتقد أن ذلك لم يوجد بعد ، ولن يوجد أبداً .

إذا ما هي البواعث الحقيقية التي حملت الشرق بما فيه من مسلمين وغير مسلمين على أن يترسموا خطى الغرب . ويتأثروا بحسب حطهم من ذلك بحضارته وأساليبه في الحياة . ؟ تقتضينا الإجابة على هذا السؤال أن تثيرنا مسألة أخرى وهي على أي شيء اكتسب الغرب هذه الحضارة وبأية سبيل نهض كل هذا النهوض ، وتقدم كل ذلك التقدم ؟ هل لتعاليم دينه المسيحي شأن في ذلك ؟ هل لأنه يمتاز على غيره من أبناء الجنس البشري بقوة الإدراك ونفوج العقل ؟ نجيب بملء فمنا لا هذا ولا ذلك .

فالشئ المتفق عليه أن هذه الحضارة الغربية استمدت عناصر حياتها وقوتها من التراث اليوناني الوثني ، ومن الثقافة الرومانية القديمة الحالية من كل معنى روماني . فالعقل الأوربي في تحرره وانطلاقه . انتصر بعد كفاح مرير



وصراع شديد بينه وبين الكنيسة . وعندما قدر له النصر جحد بالكنيسة ، وبكل تعاليمها ، وأصبح بينه وبينها شبه عداء تقليدى . حتى وجدنا الكنيسة نفسها تعترف بهزيمتها وتقف مهورة أمام ما انتجه العقل الأوربى بعد أن حطم كل ما وضعته أمامه من قيود وبعد أن تحلل مما كانت تقدمه له من خرافات وأباطيل تحيطها بهالة كبيرة من التقديس لنوحى له بكل ما فيه احتقار للنشاط الدنيوى وكفران بالحياة ، وجحود بالطبيعة .

ثم أنه ليس هناك ما يثبت أن العقل الأوربى فى ذاته مجرداً من كل شيء يمتاز على غيره بشيء من الذكاء أو الإدراك فالحضارات التى تداولتها الإنسانية وتأثرت بها حملها الشرق إلى الغرب أولاً ، وكان له الفضل الأول فى تمهيد الطريق لقافلة الإنسانية لتبلغ غايتها من التطور والرقى .

إذاً فعناصر هذه الحضارة الغربية استمدت من العقل ذاته فى حرته . وفى انطلاقه فى مجراه الطبيعى دون قيود أو سدود تحد من مضائه ، وتقف حجر عثرة فى طريقه . ! فالظاهرة التى يمكن أن يلبسها الدارس للحضارة الأوربية هى الخصومة الشديدة لكل من يحقر العقل أو يكفر بهذه الحياة الدنيا . وبالتالى هى السعى ما أمكن للانتفاع بكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة واستخدامها لأغراض الإنسان فى معيشته . وطرق حياته . ! لقد كان العقل الأوربى فى أول ثورته وهو عنده كائناً بالكنيسة . مسرفاً فى خصوماتها وفى كل ما يمت لها من قريب أو بعيد ولكنه بعد أن أثبت وجوده ، واطمأن على كيانه أصبح يؤمن بالدين . ولكن للأخرة وحدها . دون أن يجعله يتحكم فى حياته ، ويرسم له مجريات أموره .

وهكذا نجد العقل الأوربى الآن حتى وهو فى اعتداله هذا نحو الدين لا يؤمن إلا بالقرى المادية فى الإنسان . ولا يتخلق إلا بالأخلاق الصناعية ، وما تحمته . له من تسخير لقوى الطبيعة . وتغلب على صعاب الحياة ، ولسكننا بينما نجد

قد برع في ذلك ، وزها بهذه الحضارة ، وبما بلغه من هذا التقدم المادى والصناعى . تجده من ناحية أخرى قد تغاضى عما للنفس الإنسانية من مثل عليا ليست من الأخلاق المادية أو الصناعية فى شىء .

أن النفس الأوربية قد اكتسبت من وراء هذه الحضارة شيئاً ، ولكنها بجانب ذلك فقدت شيئاً آخر لا يقل عما اكتسبته روعة ، وقوة ، وضرورة للإنسان

لقد اعتزت الحضارة الغربية بما بلغته من تقدم فى الثقافة ، ومن تحقيق للنضوج العقلى الذى حقق لها بدوره . هذه القوة الصناعية الضخمة . وهذا الانتاج الوفير العظيم فى كل شىء ، والذى غزت به العالم الشرقى . وكانت إلى عهد قريب جداً تتحكم فى مصيره . . ! ولكنها من ناحية أخرى فقدت ما تحرص عليه كل مدنية فاضلة من صفات واعتبارات وقوانين خلقية تهذب النفس البشرية وتسيطر على القوى الغريزية فى الانسان . حتى لا يجمع . ولا يتشكك سواء السبيل . . والذى نلاحظه الآن على الرجل الغربى أنه بقدر ما أصبح غنياً قوياً قادراً فى مظهره الخارجى . وفى قواه الآلية العاملة . فإنه أصبح مريضاً مفلساً فقيراً إلى تربية نفسه الداخلية . ! فنظام الأسرة قد أصبح مفككاً لا تربطه إلا خيوط واهية ، وأعصاب الانسان قد أصبحت ضعيفة تالفة من هذه الحياة الآلية التى يحياها رجل الغرب . وبما يتراكم عليه من انفعالات ومؤثرات لا تجد أمامها شيئاً من المقاومة ، والوقاية للانسان لتلاشى الانبعاثات الروحانية فى نفسه . ولقد كان من أثر طغيان هذه الحياة المادية على جميع احساساته ومشاعره . أن ضحى بكل القيم والآداب التى كانت ضابطة للنفس البشرية فى نزواتها ، وجماعة لها شهواتها ، ومنقذة لها من انحطاطها ، وكان من أثر ذلك أن أصبح عنده من الأثرة والآنانية مالا يتفق وصفات الانسان المهذب كما يعرفه علماء الاجتماع . اثم كان من أثر ذلك أيضاً أن فقد هدوء النفس

وأصبح يعيش في دائرة مفرغة من القلق والاضطراب

يقول الأستاذ ليوبولد فايس (١) في كتابه (الاسلام على مفترق الطرق) الذي نقله الدكتور عمر فروخ إلى العربية من فصل بعنوان «روح الغرب» ، (إن الفضائل الخلقية القديمة التي يؤيدها الدين أخذت تخلى مكانها بالتدرج للفضائل الغربية الجديدة التي تدعو إلى حرية فردية للجسد البشري غير مقيدة أما ضبط النفس : ومراقبة الصلوات الجنسية فإنهما تفقدان من أهميتهما بسرعة وإن الصلوات الوحيدة الممكنة في المستقبل ستكون مستمدة - في أحسن الأحوال - من اعتبارات في درس الجماعات الانسانية والتناسل

وليس من غير المفيد أن نلاحظ أن كلا هذين التبدلين - ذلك الذي يرجع إلى صلوات الأولاد بالوالدين وذلك الذي يرجع إلى الصلوات بين الجنسين - قد سير بهما إلى نهايتهما المنتظرة في الروسية السوفياتية التي لا تمثل من الناحية الثقافية تطوراً مختلفاً في أساسه عما في سائر العالم الغربي . بل على العكس من ذلك ، يبدو لنا أن هذه التجربة الشيوعية ليست شيئاً آخر سوى التناهي . وسوء البدء لتحقيق تلك الميول في المدينة الغربية الحديثة ، تلك التي هي بلا شك لا دينية ، والتي هي في هدفها الأقصى لادينية أيضاً . ويمكن أن يكون ذلك العداء الحار بين الغرب الرأسمالي . وبين البلشفية ، في أساسها راجعاً فقط إلى اختلاف الخطى بين تينك الحركتين المتوازيتين في جوهرهما وفي انطلاقيهما نحو هدفهما الأقصى . وإن تشابههما الباطني سيصبح بلا شك أبرز فأبرز في المستقبل ، ولكن منذ الآن يظهر أن المسيل الأساس في

---

(١) المؤلف نمسوي الأصل اعتنق الاسلام وتسمى باسم محمد أسعد . وقد ترك بلاده للنساء عام ١٩٢٢ لينجول في أفريقية وآسيا باعتباره مراسلاً لبعض الصحف الأوربية وكان من أثر احتكاكه بالمسلمين أن نشأ في نفسه ميل إلى دراسة التعاليم الاسلامية . وتناقض مع كثير من الملمدين الاسلاميين . وكان أن ملكت روعة الاسلام وقوته عليه احساساته ومشاعره حتى أنه لما عاد إلى بلاده عام ١٩٢٦ اعتنق الاسلام ديناً له

الرأسمالية الغربية ، وفي البلشفية كليهما إنما هو التخلي عن شخصية الانسان الروحية ، وفضائله الخلقية المقتضيات المادية . . . ثم يستطرد فيقول . . . إن مدنية من هذا النوع إنما هي سم زعاف لكل ثقافة مبنية على القيم الدينية . وسؤالنا الصحيح عما إذا كان من الممكن أن نكيف أسلوب التفكير والحياة في الاسلام حسب مقتضيات المدنية الغربية . يجب أن يجاب عليه بالنفي . إن أول أهداف الإسلام وأهمها إنما هو الرقي الداخلي . وهكذا تتغلب الاعتبارات الخلقية على اعتبارات الانتفاع الخالص . أما في المدنية الغربية الحديثة فالأمر معكوس تماماً . إن اعتبارات الانتفاع المادي تسود جميع مظاهر النشاط الإنساني أما الاخلاق فتنتفي إلى زاوية مظلمة من الحياة . ثم يحكم لها بوجود نظري خالص من غير أن يكون لها قوة مؤثرة في المجتمع إن الوجود نفسه في مثل هذه الأحوال رياء ، وهكذا نجد أن المفكرين الأوربيين للمعاصرين معذورون بالإضافة إلى أنفسهم ، إذا كانوا في أثناء تكرار النظر إلى المصاير الاجتماعية في المدنية الغربية يتحاشون الإشارة إلى الاخلاق المطلقة . أما الذين هم أقل نبلا منهم - أي أولئك الذين هم أقل وضوحاً في اتجاههم الخلقى - ففكرة الاخلاق المطلقة لاتزال باقية عندهم على أنها عنصر أصم في التفكير ، أشبه بما يضطر الرياضى إلى العمل به من الأعداد الصم التي لاتمثل في نفسها شيئاً محسوساً لكنها ( هذه العناصر ) على كل حال أشياء مرغوب فيها لسد أماكن الفراغ في الخيال ، تلك الأماكن التي اقتضتها قيود البناء للعقل الانساني .

إن مثل هذا الموقف المذبذب من الاخلاق لا يتفق بكل تأكيد مع الاتجاه الدينى ، ومن أجل ذلك كانت أسس المدنية الغربية الحديثة لا توافق الإسلام . على أن هذا يجب أن لا يحول أبداً دون إمكان أخذ المسلمين من "خرب ببعض البواعث في ميدان العلوم المجردة . والعلوم التجريبية ، ولكن

صلاتهم الثقافية يجب أن تبدأ عند هذا الحد ، وتنتهى عنده أيضاً . أما أن يخطو المسلمون إلى أبعد من ذلك ، أو أن يقلدوا المدينة الغربية في روحها ، وأسلوب حياتها ، وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل ، إلا إذا سددت ضربة قاضية إلى الإسلام كدولة إلهية . وكدين عملي ) انتهى .

والمذهب الوجودى الذى أنشأه الفيلسوف الألمانى هيديجر فى العصر الحديث . والذى تأثر به شباب الغرب وخاصة فى فرنسا حيث يجد فى كل يوم أتباعاً وأنصاراً والذى يحمل لواءه الآن الفيلسوف الفرنسى المعاصر سارتر قائم على أساس من الاضطراب النفسانى ، والفوضى الخلقية . وهذا من غير شك أثر من آثار التمرد المادى فى الانسان ، وانتبازه كل فكرة روحانية فهذه الوجودية التى تمخض عنها الآن العقل الأوروبى تدعو إلى أن الانسان فى هذه الحياة لا يشعر بوجوده الحقيقى إلا إذا تخلص من كل قواعد الأخلاق ، والتربية ، والعادات ، والعقائد ، وكفر بكل قانون علمى . أو أسلوب تاريخى لتفسير معنى الحياة . فالإنسان فى هذا الكون هو كل شيء . والصفات الخيرة والمثل العليا ، والتقاليد الحميدة . التى نادتها الديانات ، وسجلها التاريخ الطبيعى للانسان هى قيود حقيرة تُخذ من حرته ، وقوته وسعادته ويمكن كما يقول ذلك ( ديديه أنزيو (١) ) « أن نعتبر شعار الوجودية . والكلمة المعرفة بها تلك الفكرة التى افترض بها ( هيجل ) « دروسه فى فلسفة التاريخ ، إذ يقول « إن الشرقيين لا يعرفون أن العقل حر . أو أن الانسان حر ، من حيث هو إنسان بل هم يعلمون أن واحداً هو الحر . وهذا هو حكم الاستبداد . أما اليونان فيعرفون أن بعض الناس أحرار ، لكن نظام الرق يستمر بينهم . والمسيحية

(١) فى فصل عن الوجودية نشر بمجلة السكاتب العربى . وترجمة إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريد .

تبين شيئا فشيئا أن الانسان ، من حيث هو إنسان حر ... « والناس لا يعرفون جميعا ذلك . والفيلسوف الوجودى يعلمهم أنه بحسب كلمة لشخصية من الشخصيات التى صورها دستوفسكى يمكن القول « إن كل شىء فهو جازئ غير محرم » .

ففكرة المجتمع الانسانى فى نظر الوجودية . وعلاقة الانسان الحديث المتحضر فى الغرب بأى فرد من أسرته أو بين جنسه هى كما عبر عنها ساتر بفكرة اللزوجة ( فكل وجود هو قبل كل شىء أشبه برائحة كريهة تبعث شعور الغثيان وعلى هذا فإن ما يشعر به الانسان حين يستخدم المترول له من هذا الوجه أهمية ميتافيزيقية ، فأنا أحس وسط الزحام إحساساً واضحاً بتلك اللزوجة التى هى خاصة أساسية للانسان ؛ على أن العلاقات التى تربطنى بالآخرين هى من هذا الطراز ، فلا تربطنى بهم صلة روحية . بل الأمر لا يعدو تلامساً يلتزق فيه وجود بوجود ) .

وعلى هذا فالانسان الوجودى يعيش فى هذه الحياة حسب ما توحى إليه غرائزه ، وحرية الفردية . دون أن يقيد نفسه بشىء . أو يخضع لشىء لأنه فوق الحياة جميعاً . فلا خير عنده ولا شر . ولا حق ولا باطل . ولا فضيلة ولا رذيلة ولا يس هناك شىء فى الوجود يمكن أن يستدعى أكثرائه أو يقف حائلاً أمام انطلاقه . وتمتعه بكل ما يقدر عليه ، وما يستطيعه من ملذات وشهوات . فالرجل المذهب المتمسك بأداب اللياقة يحسن الأخلاق . والمحافظ على حصاته . النافر من العلاقات الجنسية غير المشروعة هو رجل مرء قد خدع نفسه . أو ضعيف قد خضع للتقاليد والعادات وهى من العيوب البالغة فى نظر الوجودية . لأنه يجب على الانسان الوجودى ( أن لا يترك نفسه تقح فى حبائل وهم ما . على أو فنى ، أو سياسى ، أو خلقى . هى تريد أن تحيا بنفسها لا أن تترك فكرة ما غير شخصية . أو ضميراً جماعياً يحتل مكانها . ويعيش فيه . هى تسير على قاعدة تفرقة الانسان بين شخصه

أود أنا، وبين الآخرين أودهم، وليس الذي يجب أن يحيا في كل منا هو الـ «هم» أعنى الشيء الذي ليس حقيقتنا، بل هو الـ «أنا»، إن الحياة الحقيقية (تنصرف عن النسليات وهي تعلم نفسها وجوداً محضاً، هي شاعرة بنفسها، ولا تترك حريتها المستمرة).

هذه هي الحضارة الأوربية وما تحمله من عناصر القوة في مجالها الثقافي والاقتصادي والصناعي، وما تحمله من عناصر الضعف في محيطها الروحاني والنفساني والخلقي. والاسلام لا بد له وهو في طريق قوته ونهوضه من أن يهضم هذه الحضارة. ويحتضنها ويبلورها في نفسه، ومن أن يحافظ على شخصيته، وذاتيته الخاصة بعد ذلك كله ليستطيع أن يؤاخي، ويجمع بين هذه الحضارة وبين ما يتوفر له من روحانية واعية وآداب عالية لتهديب نفسه البشرية. والسبيل إلى ذلك صريحة واضحة. وهي أن يتحلل أولاً وقبل كل شيء عما أحاطته به التقاليد البالية، والرجعية المميته من أباطيل وترهات، وأن يأخذ دينه من مصادره الأولى صافياً خالصاً مما نسب إليه من خرافات وأوهام.

لقد تحدثنا في الفصل السابق عن العوامل التي أدت بالمسلمين إلى التأخر والتخلف عن ركب الانسانية في طريقها إلى التقدم والرقى، وعندما يعن الكاتب نظره إلى ذلك ويرتب النتائج على المقدمات. يجد أن هناك شهاً كبيراً بين بواعث تأخر المسلمين. وبواعث تأخر الأوربيين في القرون الوسطى. فالحكم الأوتقراطي الذي جمع في تشابهه. ونتائجه بين الاثنين هو شر ما ابتليت به الانسانية قديماً وحديثاً، وعندما نسجل حوادث التاريخ نجد أن كل أمة أرادت أن تتحلل من هذا الطغيان الأوتقراطي سلكت طريقاً واحداً هو الثورة. وكان الدين الذي يستند عليه الطغاة الأوتقراطيون في حكمهم هو أول هدف تريد تحطيمه الثورة. لقد تحدثنا إليك في المقدمة عن كل هذه الثورات: فأرجع إليها نجد أن التشابه واضح بين في مقدماته. ونتائجه. غير أننا نريد

أن نقول الآن إن هذا الناصر الأوتقراطي بمساوئه ومآسيه قد مضى ولن يعود أبداً . ذلك أن أغلب الأمم الإسلامية تحكّم الآن حكماً دستورياً على مبادئ ديمقراطية . وإن كنا نرجو أن تراعى الحكومات الإسلامية أن الديمقراطية الحضارية ليست هي النظام السياسي وحده أو تحقيق مظاهره لا غير ، وإنما هي أيضاً وقبل كل شيء الديمقراطية الاقتصادية ، والديمقراطية الاجتماعية .

والذي نحب أن نقوله هنا أن المسلمين أو بعضاً منهم يتمسكون بالوسائل الأولى التي كان يصطنعها الإسلام ليحقق من أجلها غاياته . وهذا إذا صدق على دين آخر . فلن يصدق على الإسلام لأنه غنى بما فيه من مرونة تتفق وطبيعة التطور في الحياة ولقد تحدثنا نحن عن ذلك بما فيه الكفاية في فصل ( الإسلام كتشريع للبشر ) بيد أننا نريد أن ننبه هنا مرة أخرى بأنه إذا قدر للإسلام أن يحتل مكانته الماضية ، وأن يكون ذا أثر فعال في التوجيه العالمي ، وأغلب الظن أنه سيصدر على ذلك مستقبلاً . إذا استطاع أن يقضى على كل ماتراكم عليه من خرافات وأباطيل ، ودعاوى تدعوه إلى الرجعية والجمود ، ثم إذا استطاع أن يستوعب كل ما أفاده الغرب من ثقافة . وأن يخطو خطوات واسعة دون تعب أو ملل . ليبلغ ما بلغه من أشواط في النضوج العقلي . والتقدم الصناعي . ولن يتأق له ذلك إلا إذا فتح باب الاجتهاد الذي دعا إليه وعمل به من قديم .

أن الإسلام في عصره الأول أقام بناء دولته على أسس دينية محضه لأنه كان بمثابة ثورة بقضة تريد أن تقضى في سرعته وقوة على عوامل الانحلال الخلقى والغشاوة المظلمة التي كانت تسود الجنس البشرى في ذلك الحين . ولكنه مع ذلك ، وحسب وعيه لحقيقة الحياة ولسنة التطور في الإنسان والسكانات جاء مرناً حكماً مسيراً القانون الطبيعي للحياة ، وعندما يتعمق الباحث في دراسة الدعوة الإسلامية تبين له هذه الروعة في أوامره ، ونواهيها التي كانت تتفق ، وظروف الزمان . والمكان . وطبيعة العلاج للحوادث ، والأشياء



والإنسان جميعاً وقد أسهبنا نحن في شرح كل ذلك في فصل ( الإسلام كتنشيع للبشر ) .

والذي نحب أن نعرضه هنا بعد كل ما تقدم . هو هل ينبغي للمسلمين . وهم على حالتهم هذه أن يرجعوا إلى دينهم في كل شؤونهم الدنيوية . أو بعبارة أخرى هل يقيمون دولتهم على أسس دينية محضة كما كانت في العصر الأول للإسلام ؟ جوابنا على ذلك بالنفي والإيجاب معاً . بالنفي (أولاً) لأن الإسلام وهو الدين الوحيد الذي احتفل بحياة الإنسان الدنيوية . وراعى كل المراعاة حرية وسعادته . وحقه في الحياة الكريمة لا يقبل مظاهر أو صوراً متحركة لاروح فيها بقدر ما يقبل تحقيق غاياته في سهولة ويسر ووضوح . باى نظام من النظم ، ووسيلة من الوسائل (ثانياً) أن المعرفة الانسانية ، والتقدم البشرى حق مشاع لآبناء الإنسانية جميعاً فليس العيب أن ننقل عن أمة محاسنها ، وأن نتسلح ببواعث تقدمها ونهوضها ثم ننافسها في مجال الرقى والمدنية ، وإنما العيب هو أن نظل في مكاننا لا نربح منه . جامدين متمسكين بدواعى الرجعية والجهالة (ثالثاً) ما تسرب إلى علوم الإسلام من مبادئ مهادمة وأشياء أحدثتها الفرق المتعددة . والأحزاب السياسية المتنافسة على الخلافة وأخذها المتأخرون على أنها من التراث الإسلامى وهو منها براء : لا تعطى المسلمين القوة والمضاء في مسابقة ركب الإنسانية . بل هى على العكس تقضى على ما فى الإسلام من مرونة وقابلية تتفق مع التطور ، وتسير جنباً إلى جنب مع نضوج المعرفة البشرية فى الإنسان . ولن نذهب بك بعيداً فالتاريخ شاهد صدق على ما نقول . ونظرة يسيرة لتاريخ المسلمين تبين لك أن الفقه الإسلامى . وقف جامداً لا يتحرك منذ القرن الرابع الهجرى . وأن المسلمين كانوا مستغرقين فى نوم عميق حتى أوائل هذا القرن دون أن يوقظهم موقظ . أو يندرم منذر عما ينحدرون إليه من هاوية سحيقة . ولولا بعض مفكرى الإسلام مثل الاستاذ جمال الدين الافغانى ، والاستاذ الامام محمد عبده لما رأينا بواحث هذه

القوة - وإن لم تزل ضعيفة بعد - تدب شيئا فشيئا في كيان المسلمين .

ثم نجيب بالاجاب وذلك (أولا) عندما يتم للمسلمين القضاء على ما يسود غالبهم الساحقة من جهل وأمية وعندما يبلغون شوطا بعيداً في معرفة العلوم الطبيعية والرياضية وعندما يأخذون بحظهم من جميع الثقافات المختلفة مستوعبين حقيقتها مدركين ما ترمى إليه دون أن تضحل شخصيتهم أو تضعف روحهم من وراء ذلك كله . (ثانياً) عندما يتكون الوعي الديني الحقيقي الذي يتفق وما أنزل الله في كتابه الكريم من فهم للإسلام كرسالة عالمية . وكدين عملي لا يقف أمام المظاهر . وإنما يسعى إلى الحقائق . ولن يتأتى ذلك للمسلمين إلا إذا حرروا عقولهم . ونظروا إلى اعمال أسلافهم بشيء من التحفظ . والنقد . بدل أن ينظروا إلى ماصدر عنهم من أقوال وأعمال نظرة الاكبار . والنقد يس (ثالثاً) إذ استطاع علماء المسلمين وفقهاؤهم أن يتخطوا هذه الدائرة المقفلة التي يعيشون فيها بعيدين عن المجتمع الإسلامي غير مؤثرين فيه بشيء أو فاتحين أمامه مجالاً لفهم الدين الفهم الصحيح . ولإدراك الإدراك البصير . بل بالعكس نراهم مشفقين بل فزعين من كل حركة تجديدية في الدين . ومن كل ثورة حاسمة للقضاء على ما تراكم عليه من أختلاقات وأباطيل . طيلة قرون طويلة خيم فيها الجهل والظلام على العالم الإسلامي

والسؤال الذي يدور بخلدنا الآن هو هل يمتلك المسلمون في الوقت الحاضر العوامل والدوافع التي تدفعهم إلى الرقي . والنهوض ، وهل يكون نهوضهم هذا على أيدي أئمتهم من رجال الدين . أم على أيدي هذه الجماعات الإسلامية المتعددة . وما تبذله من نشاط ديني أم على أيدي عامل خارجي آخر ؟

أننى لن أشفق من الجواب على هذا السؤال لأننى أحب أن أعرف عيوبى قبل أن أعرف محاسنى ولأننى أحب أن أعى وأتنبه إلى ما يعترينى من نقص قبل أن أغتر وأقنع بما يتراعى لى من قوة .

إن من يتعمق في درس حالة الغالبية من الأمم الإسلامية الآن لا يجد عنده الجواب المطمئن على أنها تملك كل الوسائل في هذا الوقت . لتنهض ، وتحتل مكائنها الدولية كأعظم قوة مؤثرة في سياسة العالم ، وموجهة له . وذلك لوجود هذه الأغلال التي يرسف فيها بعض أبناء البلاد العربية التي ما زالت تحكم حتى الآن حكماً أو تقراطياً . ولا تصدق من يزعم لك أن هذا هو حكم الإسلام الصحيح .

إن من السهولة بمكان أن توجد الدوافع الحقيقية لرفعة شأن المجتمع الإسلامي وأخذه بحظ يذكر من الحضارة والمدنية . والقوة والحيوية . لوتدبر أولو الشأن أمرهم في البلاد الإسلامية وقضوا على هذا التفاوت الطبقي الذي يسود العالم الإسلامي في هذا العصر ليحققوا بذلك معنى العدالة الاجتماعية أو الاشتراكية الإسلامية . وليقضوا على المبادئ الهدامة وهي في مهدها . وقبل أن تجد لها تربة صالحة ، ثم إذا فتحوا الباب على مصراعيه لنشر الثقافة والتعليم . ومحاربة الجهل والامية في قوة وعنف . حينئذ يتكون عند المسلمين الوعي الديني لفهم العقيدة الإسلامية على حقيقتها فلا أمل من هؤلاء الذين نسميهم فقهاءنا الدينيين في بعث الإسلام من جديد في قوته . وحيويته . وسموه لأنهم لا يتسلحون بما يوجبه هذا البعث من حرية عقلية . ومن ثقافة عميقة غير تقليدية . ومن نشاط ديني ملحوظ . ثم أخيراً من تضحية بالمنافع المادية في سبيل الرأي والتطلع إلى تحقيق مثل عليا في الحياة .

إن هذه العزلة . وهذا الجمود الذي أصبح شعار علمائنا الدينيين . لا ينذر بأن الإسلام سينهض على أيديهم إلا إذا تخلوا عما يسيطر عليهم من خمول وكسل ودواعي رجعية . وإلا إذا تحرروا مما تحيطهم به التقاليد . والعادات من تقديس للقديم . واشفاق من الجديد . ثم إتي عندما أنظر إلى نشاط الجمعيات الإسلامية . ومدى فهمها لحقيقة الدعوة الإسلامية . وطبيعة الأمور . وسنة

التطور في الإنسان والكائنات . أشفق من هذا المجهود . وهذا الوقت الذي يضيع هباءً منثوراً .

إن المتتبع لحركات هذه الجماعات الاسلامية يجد أنها تهدف إلى تحقيق غرض واحد وهو رجوع المسلمين إلى مبادئ دينهم . وهذا شيء تؤمن به جميعاً ، و نعتقد مخلصين أن العالم كله لا المسلمين وحدهم - وهو الذي أصبح كآسرة واحدة يتأثر بعضها ببعض - سيستنقذ نفسه مما هو غارق فيه من حيرة نفسية . ومن إفلاس في حياته الروحية - فيرجع كأشد ما يكون إيماناً متمسكاً بعقيدته الدينية من جديد ، ويسكن لا يستعير صررة أصلية مما كان عليه الدين في عصوره الأولى ، وبما كان يصطنعه من وسائل لتحقيق مبادئه . وغاياته لأن ذلك لا يتفق وحكم التطور الذي يخضع له الدين . أو تخضع له وسائله . كما تخضع له الأشياء والكائنات جميعاً . ولن يتعب العالم في البحث عن عقيدة تتفق وما بلغه من نضوج في العقل وقوة في الإدراك لأن عقيدة الدين الاسلامي في جوهرها ستأخذ عليه نفسه وعقله . ومداركه جميعاً .

إني لأبتسم في سخرية مريرة عند ما أرى أن من أهداف هذه الجماعات أن ترجع المرأة إلى عهد الحجاب . وأن تظل كما كانت ساذجة قاصرة أشبه ما تكون بعضو أشل في المجتمع الاسلامي بدعوى أن ذلك يحفظ حصانتها . ويمنعها من أن تهوى أو تخدع إلى طريق الفساد . ثم أن تلغى هذه القوانين التشريعية الوضعية ليحل مكانها الفقه الاسلامي . كما أستنتجه . واجتهد فيه فقهاء المسلمين الأولين في العصور الأولى للاسلام بالرغم من جموده . وعدم تطوره كل هذه القرون الطويلة من الزمان .. لا أيها السادة ! إنكم تعيشون في برج من العاج . وإنكم بذلك لا تخدمون الاسلام لتفسيركم له بهذا المعنى الضيق العجيب الذي لا يدل على ما يمتاز به من مرونة ، وأنه أقي لتحقيق غايات لا للتمسك بوسائل ومظاهر وصور لا تغني من الامر شيئاً . وكأنكم بذلك تعيشون في واد .

والعالم كله في وادٍ آخر . وكانكم تقفون بينما يمر ركب الانسانية دون أن  
تعون أو تستيقظون .

إننا نؤمن أن نهوض المسلمين محقق لا ريب فيه سواء كان ذلك قريباً أو  
بعيداً . ولكننا نشك أن يكون نهوضهم هذا على أيدي هذه الجماعات التي  
تعيش في مناقشات بيزنطية لا غير .

وإذا كنا نأمل في هذه الجماعات خيراً للإسلام فهو أن نقترح عليهم أن  
ينشئوا المدارس المتعددة لتثقيف أبناء الشعب، وأن يقيموا المؤسسات الكبيرة لمحاربة  
الفقر والمرض والبطالة ، وأن يوجهوا نشاطهم إلى التبريز والمنافسة الشريفة في  
المجال الاقتصادي والصناعي . ثم يعملون بكل ما في طاقتهم لتحقيق العدالة الاجتماعية .  
لقد كنا نحمد جماعة الإخوان المسلمين اتجاه نشاطها إلى هذه الميادين الثلاث  
ونحن نرجو من صميم قلوبنا بعد أن خرجت من هذه المحنة التي صهرتها صهرأ .  
أن تتجه بكليتها إلى هذه الميادين الثلاث أولاً . لأننا لسنا في حاجة الآن إلى شيء  
قدر حاجتنا إلى تسكين مجتمع إسلامي مثقف . قوى نظيف . عامل مفيد .  
مستقل حر . معتمد على ما تذخر به قلوب أبنائه . ونفوسهم من خصوبة  
وحيوية . حينئذ سنحقق بأن فجر الإسلام قد أزف . وبأن مجد الإسلام .  
ونهوض المسلمين أصبح حقيقة لا جدال فيها ؟

م . ع . ق . ع

أول مارس سنة ١٩٥٠

## فهرست الكتاب

الصفحة

الموضوع

٢١ - ١

لماذا وضعت هذا الكتاب؟

البيئة وأثرها في الثورات الانقلابية - لماذا كانت توجه هذه الثورات دائماً ضد الدين - ثورة اليونان الفكرية القديمة - ثورة الشيوعية ضد القيصيرية في روسيا - ثورة الأتراك على الخلافة العثمانية في تركيا - مدى مسئولية رجال الدين في الشرق والغرب عن ذلك - الصوفية وتفسيرها لمعنى الزهد في الحياة بما لا يتفق ونظرة الدين - لم يوضع هذا الكتاب الا لدفاع عن الدين وإظهار جوهره . وغاياته - إن المادية ليست كما يدعى بعض علماء الدين ورجال الصوفية من أنها لا تتفق مع الروحية في شيء - أن الاسلام . ليس دين رهينة وإنما هو دين عملي - أن كل مادعا إليه من عبادات هو في الواقع تنذبة لحياة الانسان الدنيوية - أن هذا الكتاب وما يدعو إليه من محاربة البدع والاختلافات في الدين هو خير من يقف في طريق هذه المبادئ الهدامة

٤٨ - ٢٢

هل الدين لازم للبشر

مالمعنى الدين - نظرية دارون والرد عليها - حالة الانسان البدائي - كيف نشأت العقيدة الدينية عنده - تطور الديانات - رأى العقاد ورد عليه - العقيدة من مقومات الانسان - لا يمكن لانسان أن يعيش بغير عقيدة - الملحد له عقيدة أيضاً ولكن من زاوية أخرى - أن الدين في ذاته لم يقف في طريق التقدم البشري - رأى ( بلون استيوارت ميل ) - رأى للاستاد الفيلسوف جمال الدين الأفغانى - أن العقل وحده لا يكفي لمعرفة أسرار الكون - رأى لفيلسوف الانجليزى ( الدوس هكسلى ) . استشهاد بما يذهب إليه الأستاذ العقاد في أن العقل لا يكفي لادراك الذات

الصفحة

الموضوع

الالهية - رأى لفيلسوف ( أجوست - بياتيه ) من كتابه  
فلسفة الدين - آراء لغيره من الباحثين الاوربيين - رأى  
للاستاذ أحمد بك أمين - ماذا يتنبأ الباحث للدين - .

٦٩ - ٤٩

حالة الإنسانية قبل الاسلام

لقد كان تطور الديانات متفقاً مع تطور الانسانية في  
الوعي والادراك - ماذا كان عليه البشر قبل نزول الاسلام -  
البيئة العربية - بيئة الفرس والروم باعتبارهما الدولتين المسيطرتين  
على العالم في ذلك الحين - التاريخ القديم لفرس والروم -  
ماذا كان نظامهما السياسي والاجتماعي ، والاقتصادي -  
سلطان المسيحية في ذلك الوقت - التاريخ الاسود لمحاكم التفتيش  
حالة الجزيرة العربية قبل الاسلام ماذا صنع الاسلام بالعرب -  
مقارنة بين مبادئ الاسلام وغيره - الغايات التي جاء ليحققها  
الاسلام - رأى لسيوجول لا بوم في حالة العالم قبيل الرسالة المحمدية

٩٨ - ٧٠

الاسلام بين الديانات

الاديان جميعها يجمعها باطواحد - مراحل التطور البشري  
- تاريخ الاديان المقارن - الذاتية الخاصة للديانة اليهودية  
- هل الديانة اليهودية اول ديانة نزلت بالتوحيد - من  
هم اليهود ، وماهي صفاتهم - كيف ظهرت المسيحية -  
خصائص الديانة المسيحية - مخالفة المسيحية لليهودية - لماذا  
اختصت الديانة المسيحية بالدعوة لروحانية وحدها - كيف  
تلونت المسيحية بلون جديد - تدخل « البروتستانت »  
لأحد من سلطنة رجال الدين المسيحيين - الاسلام دين عام  
- مقارنة الاسلام بالديانة اليهودية والمسيحية - خصائص  
الاسلام باعتباره دعوة عالمية - رأى لبعض المفكرين في  
شخصية النبي عليه السلام - ما في الاسلام من مردونة تنفق  
وتطور الزمن :

١٣٦ - ٩٩

الاسلام كتشريع للبشر

مصادر التشريع الاسلام - أهداف الاسلام - تقريبه  
بين الانسان وخالقه - دعوة إلى المساواة المطلقة - نزل  
بطريق التدرج مراعيًا ظروف الزمان والمكان - نزل بطريق

الصفحة

الموضوع

الاجمال ليترك مجالاً لاجتهاد الانسان - جعل العبادات وسائل  
لاغايات - راعى حرية الفرد مع مصلحة المجموع - جوز  
المطلوبات عند الضرورات - قرر إذا تعارض العقل والنقل  
أخذ بما يتفق والعقل - حارب الكهنوتية والسلطة الدينية -  
جعل الاصل في الاشياء الاباحة - جوز ترك الفروض إذا  
كان في ادائها ضرر .

١٨٠ - ١٣٧

لماذا تأخر المسلمون

أراء بعض المفكرين الاسلاميين في سبب تأخر المسلمين -  
أراء بعض المفكرين الاوربيين في ذلك - ليست آراءهم  
هذه مما أصاب الحق - الاسلام كدعوة عالمية يعتمد على  
أركان ثلاث - كيف تحققت هذه الاركان جميعها في عهد النبي  
محافظة الخليفة الاول على هذه الاركان - شخصية الخليفة الثاني  
مدى أثرها في الاسلام - تأريخ العهد عمر - محافظته على هذه  
الاركان الثلاث - مقارنة بين كل من أبي بكر وعمر وعصرهما  
اجتهاد عمر وقوة شخصيته ونظاره إلى بعيد - كيف نمت روح  
الاسلام في العهدين السابقين - طبيعة عصر الخليفة الثالث -  
تحلى التوفيق الذي لازم الاسلام عنه في هذا العصر - ظهور  
العصية العربية - هل يبرر ذلك مقتل عمر بيد قارسية  
استماعة صمان بأقاربه - ظلم الموالي في الامصار - دفاع عن  
صمان في إيمانه وأخلاقه - الامويون ومقتل علي - كيف  
استنبت الامر لهم - طبيعتهم السياسية - مدى قوة حرمهم  
على الدين - ما اصطنع في عهدهم من مذهب الجبرية - كيف  
ذهبت دولتهم - عصر العباسيين - استعانتهم بالموالي -  
طبيعة دولتهم الكهنوتية - كيف اسلم العباسيون المسلمين إلى  
دور الانحلال .

١٩٥ - ١٨١

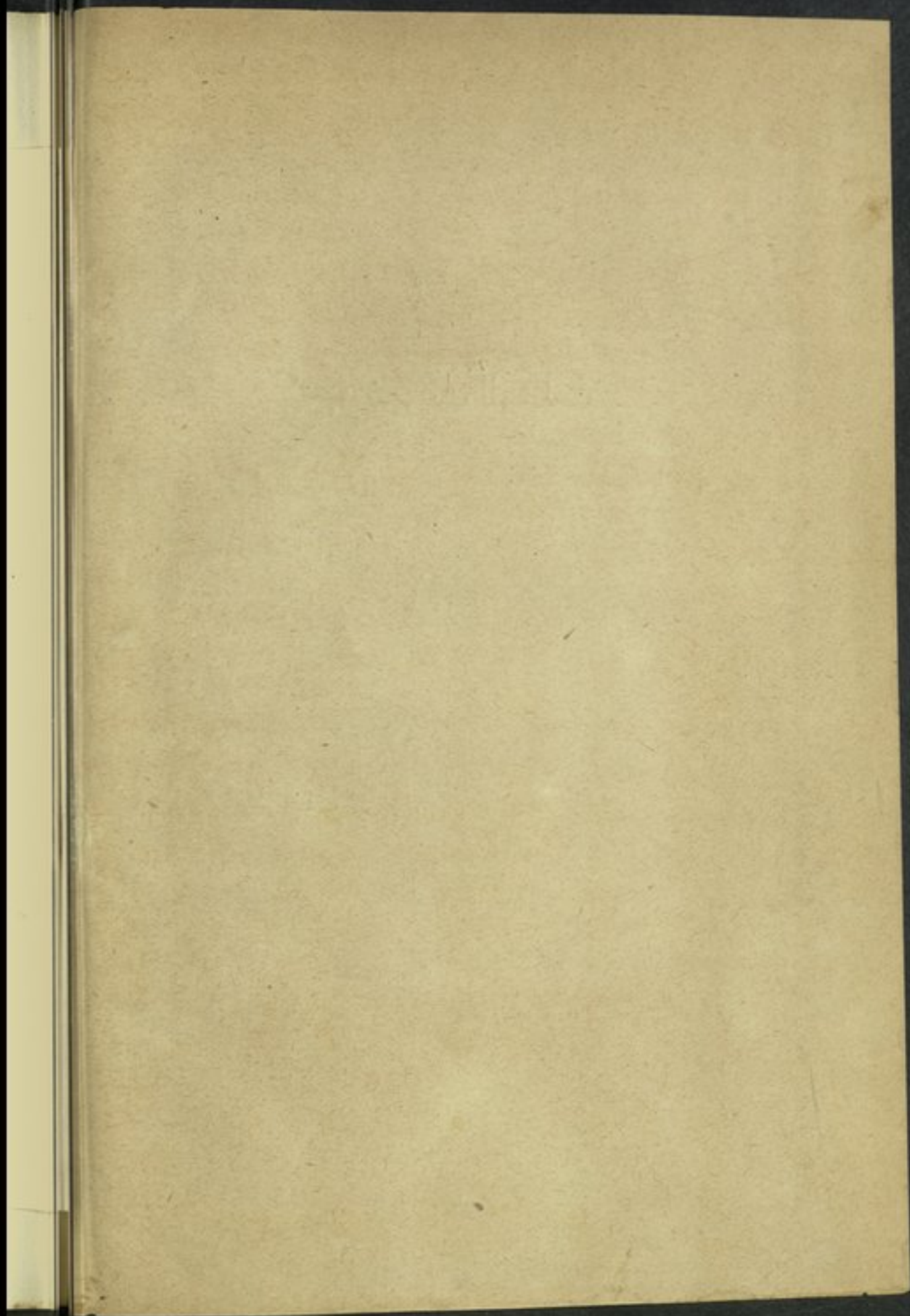
كيف ينهض المسلمون

تأثر العالم بعبئه ببعض - شيوع الثقافة وسرعة تداولها  
العوامل التي نهضت بأوربا - تقدم الاوربيين في العلوم  
الصناعية والطبيعية ، هل هناك من خطر في احتضان الثقافة  
الاوربية - بحث في المذاهب الثقافية المعاصرة - خصوصتها الشديدة  
لروحانيات - التشابه في عوامل تأخر الاوربيين والمسلمين -  
على أي شيء ينهض المسلمون - الحركات الدينية المعاصرة .



## كتب ظهرت للمؤلف

- ١ -- أيامى أو فلسفة الحياة .
- ٢ -- محادثة الزمن أو طه حسين .
- ٣ -- مع عقلاء الإنس ومجانين الجن .
- ٤ -- لا أو من بالعقل .
- ٥ -- هل أفلسنا حضارة أوربا .
- ٦ -- البعث أو مذهب السلام .



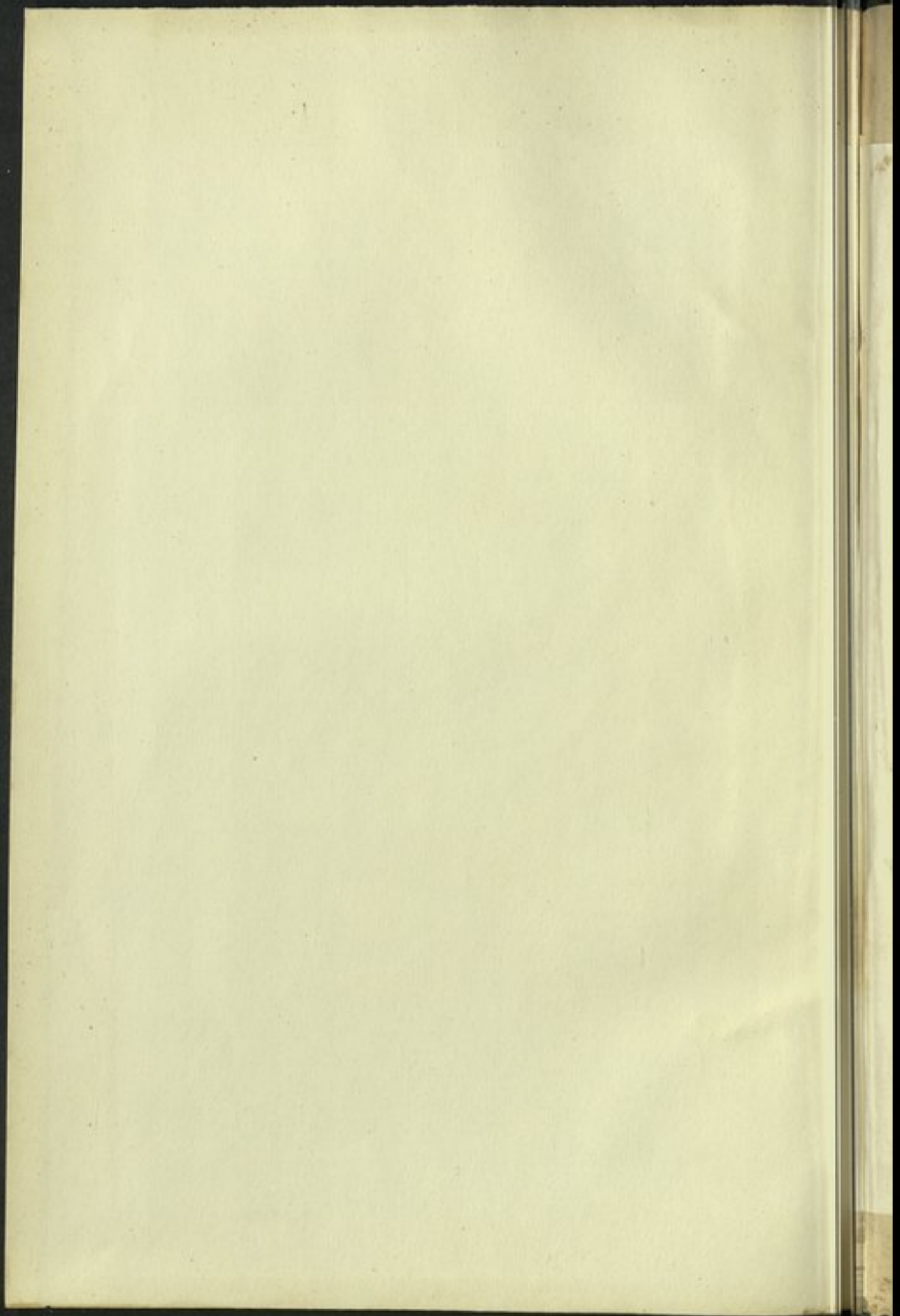
وقعت بمضمة أمطاء مطبعية مما فات التصحيح سجلنا هنا

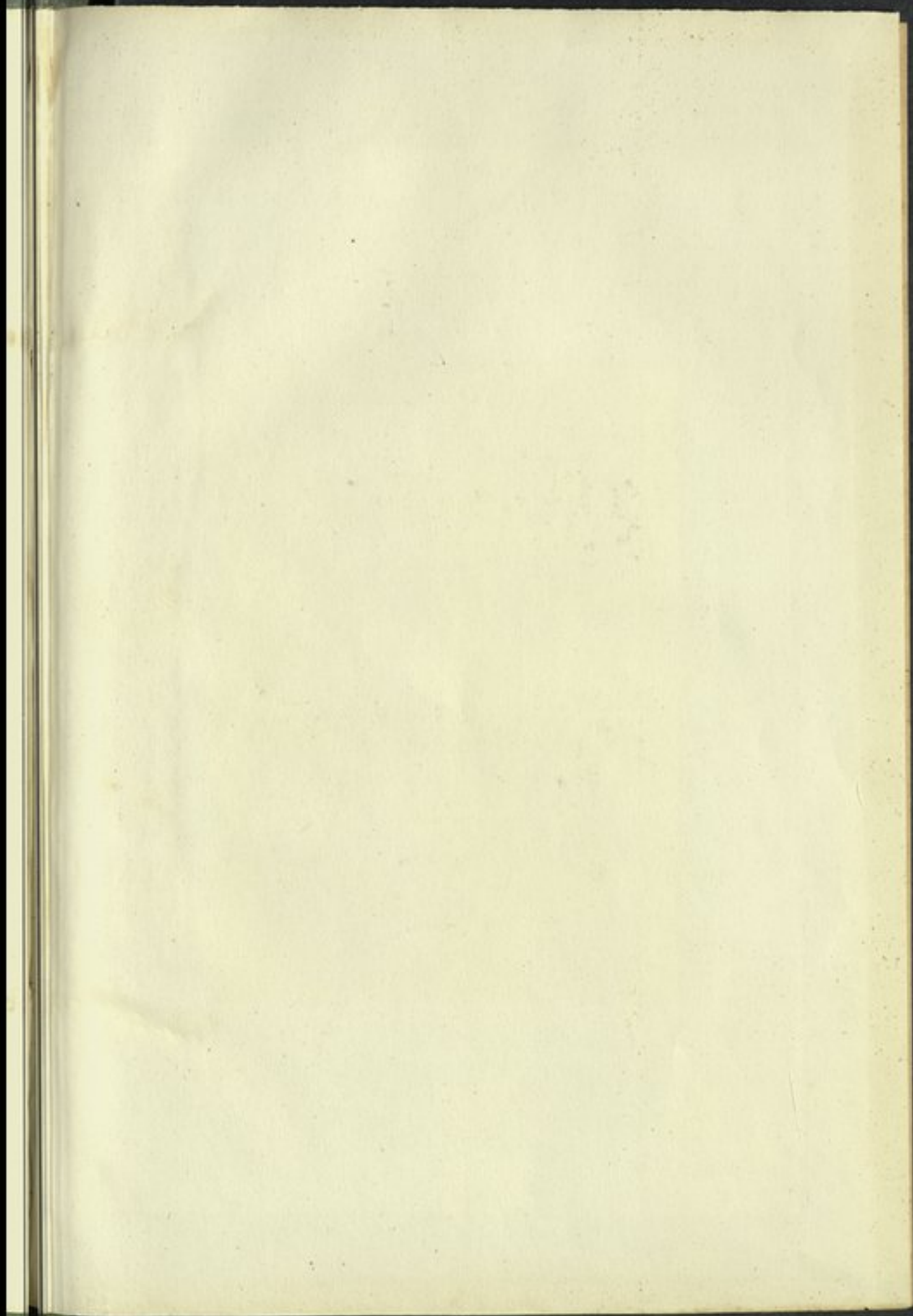
بعضها ونراكنا الباقي لفظة الفارسي مع اعتذارنا الشريف

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	١١	مشيدو	مشيدى
١٢	٢	صنم	صنما
١٤	٦	يبيحونه	يبيحوه
١٤	١٤	سائل	سائلا
١٥	١١	حاططة	حاطة
٢٨	٢١	تعن	تعنى
٣٣	١٨	وأسرار	وأسرارا
٣٤	٢٥	ليجيبنا	ليجبنا
١٢٩	١	أن تقطع	أو تقطع
١٩٥	٢	تعون	تعوا
١٩٥	٩	يعملون	يعملوا

كتاب في بيان أسماء الأفعال التي هي  
 من جنس الأفعال التي هي من جنس الأفعال

الصفة	العدد	الاسم	الاسم
١	١١	أفعل	أفعل
٢	٢	فعل	فعل
٣	٣	فعل	فعل
٤	٤	فعل	فعل
٥	٥	فعل	فعل
٦	٦	فعل	فعل
٧	٧	فعل	فعل
٨	٨	فعل	فعل
٩	٩	فعل	فعل
١٠	١٠	فعل	فعل
١١	١١	فعل	فعل
١٢	١٢	فعل	فعل
١٣	١٣	فعل	فعل
١٤	١٤	فعل	فعل
١٥	١٥	فعل	فعل
١٦	١٦	فعل	فعل
١٧	١٧	فعل	فعل
١٨	١٨	فعل	فعل
١٩	١٩	فعل	فعل
٢٠	٢٠	فعل	فعل
٢١	٢١	فعل	فعل
٢٢	٢٢	فعل	فعل
٢٣	٢٣	فعل	فعل
٢٤	٢٤	فعل	فعل
٢٥	٢٥	فعل	فعل
٢٦	٢٦	فعل	فعل
٢٧	٢٧	فعل	فعل
٢٨	٢٨	فعل	فعل
٢٩	٢٩	فعل	فعل
٣٠	٣٠	فعل	فعل





297: [REDACTED]

العماري، محمد عبد القادر

هذا هو الإسلام

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01002597



AMERICAN  
UNIVERSITY OF BEIRUT

1957